نظرتان

مجلة القصة بعد عام

بقلم : محمود تيمور

على رأس عام مضى لمولد هذه المجلة الناشئة ، يطيب لنا أن نستميح قراءها وقفة عاجلة ، نتحدث فيها اليهم حديثا هو مزاج من نظرتين ، احداهما نلتفت بها الى وراء ، والأخرى نتطلع فيها الى أمام •

وليس يحدونا الى هذه الوقفة أننا نبغى منها الاشعار بجهد بذلناه ، أو الادلال بمسيرة قطعناها ، فما بنا ــ علم الله ــ من ذلك شيء قل أو كثر ، ولعل وقفتنا هذه أقرب الى أن نحاسب أنفسنا ، منها الى أن نبدى الرضا بما صنعنا . فما تعوزنا الشجاعة على الكشف عن تقصير وان لم يكن على عمد ، أو التذكير بما نأمل أن نتداركه فى غد •

ان أول ما حرصت عليه المجلة أن تقدر كل التقدير ما هدفت اليه الدولة فى رعايتها لصحافة الأدب والثقافة ، فهذه المجلة وليدة تلك الرعاية التى استهدفت أن تستطيع كل صحيفة أدبية ثقافية ــ فى نطاق تخصصها ــ أداء رسالتها ، وهى بمنجاة من المؤثرات المادية وغير المادية ، مما يعوق خطاها ، أو ينحرف بها عن الطريق السديد، ومن ثم أوتيت القدرة على أن تنمو نموها ، وأن تحقق ما تنشد تحقيقه ، فى غير تعويل على توفير كسب ، أو اجترار مغنم ، أو التماس سبب للذيوع غير مشروع •

لقد أريد بهذه المجلة خاصة أن تكون سندا لتلك الجوهرة الكريمة فى عقد الأدب الرفيع : جوهرة القصة الفنية على اختلاف صيغها وأنواعها ووسائل تعبيرها عن الحياة والمجتمع ، حتى يكون لها فى حياتنا الفكرية مجال رحب وميدان فسيح . ولا تظل دخيلة على الصحف والمجلات الجامعة ، قانعة منها بمنزلة الضيافة أو التطفل ، تلقى منها القبول حينا والازورار أحيانا ، وربما أريدت على غير ما تريد فى الكم أو الكيف ، وفى ذلك ما يمنعها أن تتألق وتزدهر فى حيوية وحرية وانطلاق •

وفى رصيد مجلة « القصة » خلال العام المنصرم ما يسفر عن عنايتها الواضحة بالقصة القصيرة بوجه عام ، فقد استغرقت الثلثين من الرصيد أو يزيد ، واذا كانت القصة القصيرة الموضوعة قد ظفرت بالنصيب الأوفى من هذين الثلثين ، فان المترجمة قد اختيرت من أدب الشرق والغرب على تباين الأرجاء ، من الأدب الصينى واليابانى ، ومن الروسى والسوفييتى ، ومن الألمانى والفنلندى ، ومن الأسبانى والجواتيمالى . وفيما لوحظ فى اختيار المترجمات أن يكون جانب كبير منها عصرى الطابع ، يمثل التطور الفكرى والفنى فى الأدب القصصى الحديث .

ولم يكن اجتهادنا أن نوفى للقارئ حقه من تقديم النماذج الطيبة الناضجة من القصص الموضوعة ، ليحول بيننا وبين تمهيد السبيل للقصاص الذين يتوثبون للنضج كما تتوثب أكمام الزهر للتفتح ، دون أن نمالئ الناشئين الذين لم تبلغ أعمالهم درجة التجربة المقبولة ، أو نشجع المتخلفين على القناعة بالتهافت والاسفاف .

وفى الحق أن محاولات الطلائع فى ميدان القصة ، تتيح الفرصة لهم أن يعبروا عن استجاباتهم الخاصة لما يستقبلون من شئون الحياة الحاضرة ، ولما يشهدون من مشكلات المجتمع الحديث ، مما لا يتسر لمن علت بهم السن ، وتراكمت عليهم تجارب العيش ، واختلفت امام أعينهم آفاق النظر ، فللنفوس الفتية حيوية ، وللوجدان المشبوب حرارة ، وللطاقات الجديدة نزوع ، وكل أولئك جدير أن يتمخض عن خلق فنى جديد . وما أحوجنا مع حكمة الشيخوخة بما لها من أصالة ومرانة وعمق ، الى توهج الشبيبة بما لها من جدة وتطلع وانتفاض .

ولم تخل المجلة من الرواية المسلسلة ، أو القصة المطولة ، ولكن ما نشر منها جد قليل ، واذا كانت القصص القصيرة تكسب المجلة مزية التنوع ، وبها تتودد الى القارئ العجلان ، وما أكثره . . . فان للمطولات مكانتها من الفن ، ولها كذلك أشياعها ممن يصبرون أنفسهم على المتابعة ، ويرغبون فى أن يدارجوا تعقد الأحداث ، ويراقبوا تطور الشخصيات ، فى عمل قصصى مشبع .

وفى المجلة حقا عشرات من بحوث ودراسات طيبة ، منها التاريخى ومنها العصرى ، ولكنى أوثر المصارحة بأن جانب النقد على أية حال لا غنية له عن مزيد . ومن واجب المجلة ألا تقف فى حدود امتاع القارئ بأعمال قصصية ، فهى مدرسة للقصة : تقدم النماذج ، وتقدم معها النقد ، ليكون له أثره فى التنوير والتقويم ، ولابد لنا من أن نتتبع المذاهب الأدبية والاتجاهات الفكرية فى أفقها العالمى ، وأن نعرف بها على الوجه الصحيح ، وأن يكون للنقد الموضوعى للقصص العربى أو الأجنبى حظ غير منقوص ،

وما زلنا نفتقر الى تعميق الوعى النقدى فى بيئتنا الأدبية ، حتى تقوى شـوكة هذا الجانب فى أدبنا القصصى الحديث ٠

وهذه المجلة تصدر فى « الجمهورية العربية المتحدة » ، لا خاصـة بأهلها ، ولا مقصورة على كتابها ، وان من أعز أمانيها أن يبرز معنى الوحدة العـربية فيما تحـوى صفحاتها من ثمرات القرائح ، فالأدب العربى على تعدد أوطان العروبة كتلة تتسع فيها دائرة المشابهات وتضيق دائرة الفروق ، والقصة العربية فى اطارها الشـامل تمثل الفكر العربى والروح العربى فى تصويره لظواهر المجتمع وتعبيره عن واقـع الحياة ٠ وليس فى معايير المفاضلة بين ما يرد الى المجلة من القصص والدراسـات ما يتصـل بالاعتبارات المحلية من قريب أو بعيد ٠

ومما ترجو المجلة أن يجد صداه بين حملة الأقلام ، الاتجاه الى ابتعاث العناصـر القصصية فى أدبنا العربى الموروث ، أو استيحاء ما فيه من قصص شعبى أو أسطورى، وصقله صقلا فنيا يمنحه صبغة الجدة والنضرة فى الشكل والموضـوع ، حتى تسرى فى جنباته خفقة الحياة الملائمة لعصرنا المشهود ٠

وأخيرا ، نجاهر فى صدق واخلاص بأن مؤازرة الأدباء والكتاب لهذه المجلة ، ومد أيديهم لتصافح الأيدى المبسوطة لهم فيها ، وشعورهم بأنها مجلتهم على السـواء ، هو الذى يحقق ما نصبو اليه ، ونعمل فى سبيله ، من أن تكون مجلة « القصة » مشعلا مضيئا يحمله خلف عن سلف ، وحقلا خصيبا تمد الجذور فيه بالغذاء فروعا جديدة ، وميدانا رحيبا لصفوة من الأفكار والأذواق، تتراءى فيها صورة النهضة الأدبية الحاضرة، وحقيقة الوثبة الاجتماعية الحية ، فى اطار القصص الفنى الرفيع ٠

فالى الغد ٠٠٠

والى الملتقى !

على المتجرد

ابراهيم المصري

« من عنايات الى زوجها صفوت »

عزيزى صفوت

« أنا لم أشأ ان أهدم حياتك ولكني أريد أن تعلم علم اليقين انك انت الذى هدمتها بنفسك ... لا تضطرب مما سأقوله لك ، ولا تدع الغضب يتمكن منك والسخط يستولى عليك... ولكن هل يمكن لمثلك أن يغضب أو يسخط أو يثور ؟ ... ذلك هو محور المسالة. انت رجل لا تحفل بشيء ، ولا تتأثر بشيء ، ولا تقيم وزنا لأى شيء .. كل ما تنشده فى هذه الدنيا هو راحة البال ، واطمئنان النفس ، وفراغ القلب ، والضحك ، والتنكيت ، و « الفرفشة » . انت لا تؤمن الا بنعيم مستمد من الصغائر ، وبسعادة نابعة من كل ما هو مادى واقعى رخيص .. هذا انت وتلك هى صورة نفسك . ولكنى ما بدأت خطابى بالتحدث اليك عن هذه الصورة الظاهرية منك ، الا لأتحدث عن سر روحك ، وجوهر طبيعتك ، ورذيلة حياتك ، تلك الرذيلة الشائنة البغيضة التى عصفت آخر الامر بنا ، وقوضت صرح بيتنا ، وألقت بى أنا فى تيار مأساة مروعة كادت تفقدنى سلطانى على نفسى ، وتقضى القضاء المبرم على ...

لقد تزوجتنى ياصفوت ، وانت تعلم انى كنت مدرسة ملحوظة المكانة فى أوساط التعليم ، وانى كنت فتاة رقيقة الحس ، مشبوبة العواطف ، مولعة بالفكر ، كلفة بالادب وسائر الفنون. ولقد اخترتنى ، لهذه الخلال نفسها ، أو للمفاخرة بها ، لا أدرى ... ولكنك على كل حال قدرت فضائلى ، وأقبلت على اقبال رجل معجب ذاهل مفتون ، يتمنى أن يشاطرنى عواطفى، ويقاسمنى ميولى ونزعاتى ، ويبادلنى الحياة المعنوية التى كنت أنزع اليها والتى كانت هى غاية فكرى وقبلة خيالى ...

هكذا رأيتك فى مبدأ الامر ، وهكذا تصورتك . اعتقدت إنك مخلص فى اعجابك ، صريح فى اطرائك ، صادق فى عزمك على أن تعيش معى وفق ميولى وعلى نفس المستوى المعنوى الذى كنت تعلم انى أحبه ، وأوثره ، وانشد العيش فيه ...

والحق الذى يجب أن أعترف به : هو انك فى العام الاول من زواجنا ، حاولت أن تشعر ... حاولت أن تفهم ... حاولت أن تتغير ... أردت أن تسمو بنفسك ولو قليلا ... أردت أن تهذب من فكرك بالمطالعة ، وتهذب من عاداتك بالملاحظة ، وتهذب من أنانية أهوائك وطباعك بالرقة والدماثة ، ورياضة النفس أيضا على التضحية ..

ولكنك فى الواقع كنت تمثل . كنت تتكلف وتتصنع . كنت تقاوم ذاتك ، وتكافح طبعك ، وتستر حقيقة أخلاقك ، وتود من أعماق نفسك أن تمزق ذلك القناع الذى اسدلته بيدك على وجهك .

وشيئا فشـيئا ، وعلى مر الزمن ، مزقت القنـاع بالفعـل ، ثم أطلقت لنفسك عنانها ، وأرسلتها على سجيتها ، وبرزت فجاة رجلا قاسـيا فظا غليظا لا يمت بأية صـلة الى ذلك الرجـل المهذب الممتاز الرقيـق الذى ارتضيته أنا زوجا لى ...

تبدل كل شيء فيك بغتة ، وعدت الى طبيعتـك ، طبيعة الانسـان الفطرى البدائى المتحلل من كل ضابط . أيقظت غرائزك من سباتهـا ، ثم ارتميت فى غمرتها ، أسعد ما تكون بالتمرغ فيها ، واتخـاذها وسيلة للزهو والاستهتار والتحدى .

وكانت غرائزك هى المجون الوضيع ، والكسل البغيض ، والشراهة المنفرة ، والبخل ... البخل الشـائن الحقير المزرى .

كنت ما تكاد تدخل بيتك عائدا من الديـوان حتى تطلب الطعـام وانت تجار . فاذا ما جئتك به ، ارتميت عليه كوحش كاسر ، وطفقت تأكل بيـديك وعينيك وقدميك وكل عضو فيك حتى تتخم . وبعد فراغك من تناول الطعام كنت لا تكلف نفسك عناء الجلوس الى ولو لحظة ، بل تسرع وتتناول شيئا من كربونات الصودا ، ثم تدخل مخدعك ، وتنام ... تنام حتى الساعة السادسة ثم تستيقظ ... تستيقظ ونفس النهم متمكن منك ، ونفس الشراهة مستولية عليـك . فترسـل فى طلب جارك وصديقك الوجيه العاطل احسان بك ، وتجلس فى الشرفة معـه ، مرتـديا جلابيتك المخططة التى أبيت أن تستعيض عنها بالبيجاما ، ثم تنادى بأعلى صوتك كل بائع متـجول ، و « تفاصله » وتساومه ، وتشترى منه « الخس » أو « الملانة » ، أو البرتقال أو « اليوسف افنـدى » أو الجزر ، ثم تميـل على صاحبك وترشقه بـ «النكت» المكشوفة البذيئة ، ثم تقهقه قهقهة مدوية والطعام مايزال يملأ شـدقيك ، ثم تلقى بأعواد الخس أو اعواد الملانة أو قشر البرتقال على أرض الشرفة النظيفة التى غسلتها أنا ومسحتها بيدى فى الصباح !...

ولقـد كنت أحاول أن أغفر لـك شراهتـك ، واعتبرها شـبه تسلية تساعدك على تغذية روح المرح المتأصلة فيك . ولكنك كنت تمعن فيهـا امعان بعض النسوة البلديات المتلهفـات على السمنة بأى ثمن ... أجـل . كنت مثلهن تماما . لا تتهافت على الطعـام فقط بل تتهالك أيضـا على « المفتاة » و «الحلبة» والكثيرة» وتأبى الا أن تسمن وتترهل وتستكرش وتصبح كباشوات العهد القـديم ، تتباطأ فى حركتك ، وتتئد فى اشـاراتك ، وتتهـادى فى مشيتك ، وتتخطر وتتعثر تعثر الوجاهة والعز والدلال .

ولقد كان يثيرنى منك فوق ماتقدم ، ولعك الوحشى بأكل اللحوم ، ومعرفتك الراسخة بأنواعها ، ودقتك العجيبة فى اختيارها ، واتجاهك فى معظم أمسيات الشتاء الى قتل وقتك باستحضار ذلك القرطاس الكبير المملوء بالفحم ، ورص الفحم فى الموقد ، واشعال النار فيه ، وخنق أهل البيت بدخانه ، كى تشوى

عنيه شرائح اللحم ثم تلتهمهـــا وهى ساخنة طرية لذيذة تنضح بالدهن ٠٠٠

تلك كانت هوايتـــك المفضلة التى طالما زجرتك عليها ، ونهيتك عنهـا ، وحاولت أن أحررك منهـا ، حرصا على صحتك وكرامتك ولكن دون جدوى ٠

بيد ان شراهتك كانت لا تقلقنى ، وميلك الى المجـــون والكســـل كان لا يخيفنى ، ونزعتك الى الاســـتهتار وعـدم الاكتراث كانت لا تذهب بهدوء أعصابى ٠

كل هـــذه الاهواء كانت تبعث فى نفسى على الرغم منى شـــعورا بالتقزز فقط ، تخالطه الحسرة واللوعة والندم ٠ أما الرذيلة التى كانت حقـا تثيرنى ، وتجثم على صدرى وتملأ قلبى بالكراهية والخوف والحقد ، فهى بخلك الغريب ، بخلك الخـــارق ، بخلك الذكى اللئيم الخبيث ، الذى جعـــل من ذهنك آلة «حاسبة» عجيبة ، آلة تكيل بكيلين ، وتنزع نزعتين ، فتسخو على نفسهـــا مختـــارة ، بينا هى ، فى منـــاورات مدهشـــة ، تذل الآخرين ، وتحرمهم ، وتقتر عليهم أشد وأبلغ وأبشع تقتير ٠

هو ذاك ٠ الطعـــام الشـــهى لك ، والكساء الأنيـق لك ، وتحقيق مختلف الرغبات والنزوات طوع مزاجك ٠ وأنا ٠٠٠ أنا زوجتك ، زوجة صفوت أفندى ، أستغفر الله ، بل زوجة صفـــوت بك الموظف فى الدرجة الرابعة ، فيجب ألا أكون امرأة ، ويجب ألا اتجمل ، ويجب ألا أفصل فســـتانا على « الموضة » أو أشترى زجاجة كولونيا ، أو علبة بودرة ، أو اصبعـــا من الروج ، أو حقـــا من الكريم ٠٠٠ كل هذه الاشياء كانت فى نظرك مساخر وترهات وكماليات يجب أن احتقرها أنا وأستغنى عنها ، وأعرف كيف أكون امرأة جميلة أنيقة بدونها ٠ أما طفلتك ، بنتك ، بنتك الوحيدة ، فلا يجوز أن تصرخ ، ولا يجـــوز أن تبـكى ، ولا يجوز أن تمرض ، فتعكر مزاجك ، وتقلق راحتك ، وتجلب اليك الوساوس والهمـــوم ٠ وأما اذا حدث وأصيبت باى داء فواجبى أنا أيضا ، أنا وحدى ، أن أعنى بها ، وأن أتجنب جهدى عرضها على طبيب ، وأن أحملها وأطوف بها على المستوصفات الشعبية ، أو المستشفيات المجانية ، أسرق لهـــا العلاج والدواء من الفقراء والمساكين ٠٠ والويل لى ثـــم الويل ان حاولت أن أضللك ، وأحتال عليك ، وأغالطك فى الحساب ، وأخفى عنك قرشـــا واحدا أنفقه على ابنتى ، أو على زينتى ، أو على بيتى ٠ انك حينئذ تفتـــح عينيـــك ، وترهف أذنيـــك ، وتنقلب الى صراف مجرب حذر يقظ ، ثم تبدأ بمحاسبتى على كل قرش بل كل مليم وانت تبتسم ابتسامة فاترة ناعسة ، ملؤهـــا الدهاء والخبث ، والرغبة فى الاحراج والاتهام والاذلال ٠٠٠

هذا البخل الوضيع ، هـــذا البخل النابع من الأنانية ، والصادر عن غلظة العواطف ، وجفاف المشاعر ، وجشـــع النفس ، وفراغ القلب والروح ، هذا البخل الذى كان يمكن لك من التمادى فى الشراهة ، والتمتـــع بالانـــاقة ، والاغراق فى الكسل والمجـــون وعدم الاكتراث على حســـاب امرأتك وبنتك وبيتك ، هذا البخل ولد فيك على مر الايام ، وانت لا تدرى ، ولعـــا مضاعفا بالجشع ، وشغفا جنونيا بالمال ، وتكالبا مسعورا على المصلحة ، وشذوذا مخيفا فى الميول والاهواء ٠

وهذا الشذوذ هو الذى ابتلانى بالكارثة التى أرزح تحتها اليوم ، بل هو الذى احتفر الهوة تحت قدمى ، وزين لى بالرغم من صبرى وطول احتمالى أن أثور ثورة جارفة على حظى وأن أكتب اليك هذه الرسالة ، بعد أن غادرت بيتك أنا وابنتى ، ولجأت مذعورة مخبلة الى منزل أبى !... فاسمع الآن ... اسمع الحقيقة كلها... الحقيقة المروعة التى صنعتها أنت ... وعساك أن تنفعل وتضطرب وتراجع نفسك قبل فوات الوقت .

لقد عشنا معا أربعة أعوام ، ولكننا لم نعش فى بيتنا بمفردنا . كان معنا شقيقك «سامح» منذ أول يوم تزوجنا فيه . لم أشأ فى مبدأ الامر أن أعيش فى بيت يلازمنى فيه رجل غريب ، وكدت أرفض هذا الزواج . ولكننى بعد أن رأيت سامح ، وتعرفت اليه ، وقص على قصته ، وعلمت انه كان متزوجا منذ عشر سنوات بامرأة أحبها الى حد العبادة ، ثم طلقها لسوء سلوكها وآلى على نفسه أن يعيش عزبا ، وأن ينصرف عن النساء ، وألا يقدم على الزواج مرة ثانية ، بعد أن علمت كل هذا ولمست فى شخصية سامح حسرة عميقة على امرأته، وحنينا خفيا الى الايام والاعوام التى أمضاها معها ، تأثرت له، واطمأنت نفسى اليه ، لا سيما وانه كان رجلا دمث الطبع ، لين الجانب ، رقيقا مهذبا ، يعرف كيف يحترم نفسه كما يعرف كيف يحترم الآخرين .

وهكذا رضيت بالحياة معكما تحت سقف واحد . رضيت وأنا متنبهة متيقظة ، أرقب كل حركة تصدر عنى، وكل كلمة أو اشارة تبدر منى، وأحاول ما استطعت أن أكون مع سامح بسيطة فى ظرف ، متحفظة فى كياسة ، رقيقة فى عزة وأدب واحتشام .

وكان سامح يحترمنى ويقدرنى قدرى ، ويعاملنى معاملة الاخت، متجنبا كل مباسطة معى ، وكل خلوة تجمعه بى ، وكل حديث خاص يرفع الكلفة بينه وبينى . وكنت أنا مستريحة الى هذا الضرب من الحياة ، اغبط نفسى على ما حالفنى من هدوء وتوفيق ، ولا يخطر على بالى لحظة واحدة ان ازداد تقربا من سامح أو اقتحم شخصيته ، أو أجاوز فى معاملته حد الود الأخوى الصريح .

ولقد أحس هو منى ذلك التحفظ . فازداد احتراما لى ، وتشبثا بالجمود المؤدب المتباعد الذى كان قد فرضه على كل تصرفاته معى .

ولبثنا على هذه الحال طوال تلك السنوات الاربع . ثم تغير فجأة كل شيء ... كنت أنا مثال التحفظ وكان سامح مثال الادب بل مثال الجمود . ولكن هذا الجمود الواقى ، هذا الجمود العاقل المتزن ، لم يعجبك انت ... انت زوجى ... فشرعت تتبرم وتتململ . فاستغربت أنا تحولك، ولم أدرك علة استيائك ، ولم أستطع أن أتبين حقيقة نواياك ...

وفى ذات يوم ، فى ذات يوم تذكره ولا شك تماما ، دعوتنى الى مخدعنا ، ثم أوصدت بابه ، ثم انحنيت على فجأة، وقلت لى ولمعة البخل تومض فى وجهك، ولهفة الجشع وحب المال تتقد فى عينيك ، قلت لى ان أخاك سامح موظف ممتاز ، وانه يتقاضى اليوم من الشركة التى يعمل بها مرتبا كبيرا، وانه لايعول زوجة ولا أولادا ، وانه قد ادخر فى

العشر سنوات الاخيرة التى أمضاها عزبا مبلغا يربى على الثلاثة آلاف جنيه. فتطلعت اليك أنا ولم أفهم ... لم أتبين ... فزجرتنى وصحت بى وعيناك تبرقان ، ان واجب الحكمة والعقل يقضى علينا بأن نربح سامح لأنفسنا ، وندمجه فى حياتنا جهدنا ، ونرفه عليه قدر استطاعتنا ، كى يخرج من انكماشه وجموده ، فلا يحس مرارة الوحدة ، ولا يشعر بالحنين الى الحياة العائلية ، ولا يفكر رغم تعلقه بالعزوبة، فى الاقدام يوما على زواج جديد . وهكذا يبقى جهاده لنا ، وخيره لنا ، وماله لنا ولأولادنا ...

هذا ما قلته لى انت بالحرف الواحد ثم ضممتنى الى صدرك ، وهمست فى اذنى ان سامح بدأ يتردد على أسرة صديقنا المحامى الاستاذ صلاح ، وانه يعجب بابنته الجميلة «سهام» وانهم قد فاتحوه بشان الزواج منها ، وانه حائر محجم . يشعر بميل الى الفتاة ولكنه يتردد فى التضحية بحريته وتكبيل نفسه بقيد أصبح لايالفه ... فتفرست أنا فيك دهشة وسألتك مزيدا من الافصاح . فقلت لى بلهجة آمرة جافية، انه يجب على أن أتقرب جهدى الى سامح وأن احاسنه وأسايره ، وأجامله واتملقه . واجتذبه واستميله ، وابذل قصاراى فى التغلب على تحفظه وجموده، بحيث يركن لنا، ويطمئن الينا، ويحس انه واحد منا ، فلا تتمكن منه الوحشة والجهامة . ولا تدفعه مرارة الوحدة الى التفكير يوما فى الزواج بسهام أو بغيرها ...

وكنت تتكلم ، وبصرك يلمع ، وصوتك يتلهف ، وانفاسك تغلى ، وبدنك يرتعش . وانت تتصور مال أخيك وقد أصبح فى النهاية لك وحدك. وكنت أنا أنظر اليك ، وأتأملك ، وأعدك بان أذعن لأمرك ، وملء نفسى الشعور بالكبر والأنفة والتقزز والضجر .

أجل . لم اكترث لتدبيرك . لم اعلق عليه اهمية كبيرة . ولكنى مع هذا نفذته لأرضيك . اقبلت على سامح بوجه اوفر بشاشة وأكثر استجابة واقل تحفظا . بيد انى لم استطع مغالبة طبعى والتحلل دفعة واحدة من مختلف ضوابط العرف والعادة التى كانت تسيطر على تصرفاتى وميولى . فاستأت انت وتذمرت ، وانتهرتنى فى عنف ، ثم رميتنى بضيق الذهن ، وقصر النظر ، وقلة الحيلة ، فكنت انت ، انت الذى حفزتنى وشجعتنى ...

نعم شجعتنى . فمضيت انا طوعا لأمرك أستدرج سامح واحاوره ، وأروضه وأدلله ، وأترضاه وأجتذبه . فبهت الرجل لتحولى ، وانكمش وتراجع ، وازداد جمودا ، بل ازداد انطواء وتباعدا وتجهما . فأحسست أنا ، أحسست لأول مرة فى حياتى ، بغريزة الأنثى تجيش وتصطخب فى صدرى ... كبر على أن يتحدانى رجل ، ويروغ منى ، ويثبت أمامى ، ويستعصى على . فلم الجأ الى التلطف والتودد فقط كما نصحتنى ، بل وجدتنى ألجأ ، بالرغم منى ، الى الدهاء .

فطفقت اقبل تارة على سامح ثم أعرض عنه ، أمنية بصداقتى ثم انقلب عليه ، أرضى عنه فترة ، ثم اتبرم به

وادعة فريسة الحيرة والقلق والتخبط والذهول ...

هذا الجو المضطرب المكفهر ، المتارجح بين المد والجزر ، أحدث أعمق الأثر فى نفس سامح . فخشى أن يغضبنى ، وخشى أن يثيرنى ، وخشى ان هو اسرف فى جموده أن أسرف أنا ايضا فى اعراضى ، فتستغرب انت أمرنا ، وترتاب فينا ، وتتشكك فى براءة ونزاهة صداقتنا . فلم يستطع سامح ، بعد جهد الا أن يلين لى مكرها ، ويقبل على مترددا ، ويبادلنى فى الوقت بعد الآخر تبسطا بتبسط ، وود بود ...

وكان يدرك انى صادقة فى ودادى . وكان تاعسا ومحروما لم يألف متعة التجاوب مع امرأة منذ سنين . فظل فترة طويلة يعاند ويكابر ، ويتمنع ويتحفظ ، تدفعه الرغبة ويمنعه الخجل ، حتى استمرأ فى النهاية حلاوة الألفة ، وعذوبة التقلب فى جو المرأة . فطأطأ الراس صاغرا ، ولان تماما واستسلم وخضع ...

وكنت انت سعيدا بهذا التبدل الفجائى الذى اردته واغريتنى به .

كنت من فرط ارتياحك وابتهاجك تمعن فى هوايتك المفضلة ، فتقيم سهرات « شواء » صاخبة ، وتلتهم شرائح اللحم وانت تنشر النكت الجريئة البذيئة ، وتضحك وتغنى وتكاد ترقص ... لم ارك ابدا سعيدا كما رأيتك فى تلك الأيام . كنت ما تفتأ تقبلنى ، وتهنئنى ، وتهتف فى اذنى انى فى الحق امرأة وفى الحق انثى !...

وشرعنا نعيش معا أنا وأنت وسامح كأسرة متفاهمة متآلفة .

بدانا نسهر معا ، ونلعب الورق معا ، ونتبرم بزيارة الغريب ونؤثر ان نبقى فى البيت وحدنا .

واذ ذاك ، وفى هداة ليالينا الحلوة الناعمة، بدات انا اهتم اهتماما جديدا بسامح واتأمله واتفرس فيه ...

كان رجلا شامخ الراس فى عزة ، وئيد الحركة فى هيبة ، ذا عينين ساهمتين تفيضان عذوبة ورقة ، ووجنتين تضطرمان نضرة وفتوة ، وشفتين دقيقتين ترتسم عليهما ابتسامة حالمة متحسرة .

هذا المزيج من الانفة والسماحة ، من الرجولة والرقة ، سكن هواجسى ، وضاعف اطمئنانى ، وحبب الى المضى فى هذه الحياة الجديدة التى شعرت انا أيضا انى أحوج ما اكون اليها للترفيه عن نفسى .

ثم بدانا نخرج الى النور ونستجلى معا طلعة الدنيا . كنا نخرج الى المسارح ودور السينما ، الى الكازينات وملاهى الليل . وكنت انت تزعم تارة انك نسيت حافظة نقودك ، او تتململ اخرى لأنك فى حاجة الى « الفكة » ، أو تصطنع السهوم والشرود والاستغراق فى التفكير كلما كان يقتضيك واجب اللياقة أن تدفع على الأقل نصيبك ونصيب امرأتك . فكان سامح هو الذى يدفع ... كان يسبقك الى الدفع حتى لا يحرجك ويصيبك فى عزة نفسك أمام زوجتك ... ولما

كنا نجلس للعشـــــاء فى احد المطاعم الكبيرة ، كنت انت تنتهز الفرصـــــة ، وتطلق العنـــــان لبخـــلك وطمعك وشراهتك . فتطلب لنفسك عشـــاء كاملا ، وكاسين او ثلاثة من الويسكى ، ولونين او ثلاثة من الحـــلوى . فاذا ما جاء وقت الحســـــاب ، اشحت بوجهك ، ولذت بالشرود كعـــادتك ، وانت تخرج علبة سجائرك فى حرص ، وترمق اخاك من طــرف خفى ، كى تتفقـــله مرة اخـــرى وهو يحاسب الجرســـــون ، وتضـــــن عليه حتى بسيجارة ...

وكنت انا الحظك واكاد اموت خجلا وغما . ولكنك كنت تســـتخف بى ، ولا تقيم وزنا لحنقى ، بل كنت على النقيض تغمـــزنى بعينك ، وتنبهنى بقـــدمك ، وتحثنى على التغـــافل و « الصهينة » مثلك ...

وكان سامح يدفع وينفق اكراما لى ، وخجلا منى ، وابتهـــاجا بوجودى ، وتادية لواجبه كرجل مهـــذب يخـــرج فى صحبة امراة . فكنت اشعر شعورا مرا عميقا بانه ينفق من اجلى ، وانك أنت تعرف ذلك يا زوجى ، تعـــرفه وتريده ، تريد ان تتخـــذ من امراتك وسيلة لاشباع غرائزك واداة لاستغلال اخيك ! ...

هذا الشعور ، شـــعورى باسفافك الى هذا الحد وهوان شأنى عندك ، هو الذى ذهب بعقـــلى ، وافقـــدنى اتزانى ، وبدد البقيـــة البـــاقية من تحفظى ، وأثارنى عليك ثورة دفعتنى بالرغم منى الى محـــاولة الثـــار منك بمضاعفة التقرب الى سامح ...

اجـــل . كنت تســـرف أنت فى استغلالى ، فاسرف انا فى التودد الى سامح عساك ان تفار وترتدع وتفهم . بيد أنك كنت ممعنا فى بخلك ، سادرا فى طمعك ، غافلا أو متغافلا عن نتائج تصرفك . فضاق صدرى ذرعا بك ، وضاق صدرى ذرعا بحيـــاتى المظلمة الوضيعة معك . فلم اجد بدا من أن أنفس عن كـــربى فى التعلق والتشبث بتلك الصداقة النـــامية الناضرة التى كانت قد بـــدات تتـــوثق بينى وبين اخيك ...

وهكذا حملنى التيار على دهش منى فاخذت بســحر سامح ... رايت فيه نقيضك وما كان يجب ان تكون عليـــه انت . رايت فيـــــه ملاذى وملجئى . شعرت انى فى حاجة اليه . احسست انى اتخلص فى قربه من ربقـــة غلظتك وعبء ضجرى . كل ما كنت أتحرق عليه وأتمنـــاه فيـــك وجدته فيه : رقة الطبع وادب النفس وكرم اليد وحنان الروح . فاذهلتنى نشوتى ، وافقدتنى سلطانى على عقلى ، واسلمتنى الى هذا النعيم الذى لم اكن اتوقع أن اخالســه ولو بالوهم طول عمرى ...

وكان جوا مبهما غامضا عجيبـــا ، يتــــكاثف ويتقبض تارة ، ويصـــــفو وينفرج اخـــرى ، ذلك الجو الذى سبحت فيه انا وسامح ...

كان سامح لا يتكلم . كان ينظر الى فقط . وكنت ارى فى نظراته الحيرة والقلق ، والارتباك والتعثر ، والاستنكار والتأبى ، والخجل والاغضـــاء . فكنت أحدق فيه طويلا ، وارســـل اليه من ومضات عينى ولهثـــات انفاسى مايثيره

ويدعوه . فكان يطـــرق ويغمغم ، ثم يرتجف ويتخبـــط ، ثم يقبـــل على مكرها ، ويظل شاخصا الى وفى عينيه رغبة محمومة يوشك ان يخالطها ، من فرط المجاهدة والكبح ، تلهف مندفع مخبول .

والهبت انا فيه هذا التلهف ما شاء لى مكرى وخبثى وضـجرى وانتقامى وفرحى الطارىء بالسعادة النادرة التى غمرتنى . ولكنى شعرت فجأة ان هذا التلهف نفســـه يجتاحنى ، لأنى قد بدلت سامح ولأنه قد أصبح تحت تأثير اغرائى رجلا قويا مغامرا جســـورا ، لا يكفيه ان ينظر الى ويتأملنى وينعم بصـــــداقتى ، بل يريد أن يقتحمنى ويغزونى ويمتلـكنى . فانخلع قلبى ، وارتعدت . عرفت لأول مرة شـــعور الفــزع والخوف والحب .... ولكنى ما كدت افزع واخاف حتى اضـطرب هو ايضا وملكه الذعر ...

وبتنا كلانا والذعر يطاردنا ، نهمس ولا نتكلم ، نلهث ولا نتنفس ، ننساب ولا نمشى ، نتلامح بعيـــوننا فترة ثم نسرع فنغض من ابصارنا جزعا وهولا، كأننا قد ارتكبنا الجريمة بالفعل ولم يعد فى وسعنا الا أن نرتكبها ايضا كى نخنق فيها تبكيت ضـــميرنا ، فنقر السلام فى قلبينا ونستريح ..

وكان خوفنـــا من الجريمة يدفعنـــا اليها ويغرينـــا بها . فكنا نراها دائما أمامنا ، زاحفة الينا ، مخيمة علينا ، مطوقة افكارنا ، مندسة فى خيـــالنا ، تبتســـم لنا وتضـــحك منا ، وتهزأ بخوفنا وجبننا ...

واستبد بنا الخوف . فاشـــتعل حبنا ،واضطرمت عواطفنا ، وضـــقنا بالصبر والألم والحرمان ، واحسسنا فى لحظة من لحظات وعينـــا المتيقظ المستهول ان الهاوية المروعة تحتفر شيئا فشيئا تحت أقدامنا ...

ففى تلك الليلة ، واظنك تذكرها ، تلك الليلة المقمرة الحارة الخانقة ، وأنا راقدة فى فراشى بجوار ابنتى ، افـكر فيك يا زوجى وانتظر عودتك من الحفلة التى دعاك اليها رئيسك بمناســـبة ترقيته ، تولانى قلق عصبى غريب ، كنت اعلم أن سامح لم يغادر البيت وانه الآن فى حجـرته بجوارى . فلم اســـتطع أن اهدأ واعالج النوم . ساورتنى رعـــدات متعاقبة كرعدات الحمى . خفقت دمائى خفقـــا عنيفا ضـــاعف من عنفه وجيب قلبى . شعرت أن اعصابى تفلت منى ، وكان كيانى كله ينسلخ عنى ، بل كأن شيئا اقوى من ارادتى وعقـلى يدفعنى الى الحركة والنهوض فنهضـــت . نهضت ومشيت ... مشيت دون أن افكر لماذا نهضت ولماذا امشى ... مشيت دون ان افكر فى ابنتى ، او اســـمع غطيطها ، او القى عليها نظرة . مشيت بخطى اللص الحذر . لم اســـمع غير لهثات انفاسى ، وطنين الليل حولى ، وتدافع الدم الذى كان يهـــدر فى عـــروقى ... وتقدمت واذا بى تجاه حجرة ســـامح اريد ان اقتحمهـــا وادخلها ... وما أن عـــزمت ودنوت من بابهـــا وهممت بأن أفتحه ، حتى تقهقرت مذعورة وصرخت .. وصرخت اذ ابصرت البـــاب يفتح من تلقـــاء نفسه ، ويبرز منه ســـامح ، ويقف امامى وجها لوجه ! ...

كان هو ايضا يرتعش . كان في مثل حالتي . اراد هو الآخر ان يتسلل الى حجرتي . لم يستطع هو ايضا الا ان يلبي ندائي ويسرع الى ...

ولبثنا واقفين ، يحدق كل منا الى الآخر ، ويرى كل منا عيني الآخر ، ونظراته ، وقسمات وجهه ، مندلعة متشنجة ، تملؤها الرغبة العاتية ، ويبرق في تضاعيفها العزم الأثيم .

وتخاذلت ركبتاى واوشكت ان اتهاوى . فاسرعت واستندت الى مصراع الباب وانا ارتجف .

وكانت أشعة القمر المنصبة من النافذة ، تمتد الى سامح وتغمر وجهه الذى انسكب عليه ، برغم احتقانه وتصلبه ، فيض من حرارة الابتهال ومرارة التضرع ، وعذوبة الأسى . روعنى وفتننى ، وأشاع في جسمي وعقلي تهافتا كتهافت الدوار ...

وحالف الصمت ذهولى ، ولفنى في ضبابه الزافر . فتاه فكرى ، وغلى دمى ، وتوترت اعصابى برغم خوفى ، واحسست انى اتقدم ايضا ، واتأمل سامح ، واوشك ان اصافح انفاسه التى كانت تهب كالنار على وجهى ... واستشعر هو ضعفى وتخاذلى . فابرقت عيناه ، وارسل صيحة مخنوقة ثم فتح ذراعيه وحاول ان يعانقنى . ولكنه ما ان دنا منى ، ما ان لمسنى ، وما ان شعرت أنا بوطأة ذراعيه اللينة القوية تحط في ارادة حاسمة على كتفى ، حتى جحظت عيناى،ودبت في مفاصلى رجفة زلزلت كيانى ، واجبرت سامح على الترفق بى ، والتراجع عنى لحظة ريثما اتمالك نفسى .

وفي تلك اللحظة ، في تلك اللحظة التى كادت تجرفنى وتطوينى وتغيبنى في لجة لا قرار لها ، اندفق على من موجها الصاخب ضوء ساطع ، رد الى عقلى وايقظنى .

ادركت في مثل خطف البرق ، ادركت ادراكا ثابتا في تجبره ، دقيقا في توعده ، فظيعا في صورته ، انى ساشطر جسدى بين أخوين ، وابذل نفسى لشقيقين ، واعيش في بيت واحد بين رجلين ، يفترسنى كل منهما فاصمت ، ويستريب بى من هو صاحب حق على فاكتم وامكر، واخدع واكذب ، وانافق واضلل ، واتقلب ابدا في جو عاصف من الاقدام والاحجام ، والحذر والتوجس ، والقلق والرعب ، والتدهور والعذاب . فتصاعدت من اعماق ذاتى شهقة استنكار دفعتها موجة اشمئزاز طاغية ، تمكنت منى ، واخذت بمخنقى ، واشاعت الخدر في اعضائى . فخشيت ان أنا قاومتها ان اعود فاقع تحت سلطان رغبتى . فلذت بها ، وتركت سيل الاشمئزاز والرعب يحملنى ، وانتفضت وصرخت :

ــ سامح ...

ثم لوحت بذراعى وقلت :

ــ يجب ان ترحل ! ...

فتطلع الى الرجل مبهوتا وجمد . فاردفت وانا اجاهد كى لا انظر اليه :

ــ غدا ... يجب ان ترحل غدا... يجب أن تغادر البيت ! ...

فاختلج اختلاجا عنيفا ، وصوب الى نظرة مسترحمة ممزقة . ولكنى لم أرحمه ولم أرحم نفسى ، بل واجهت

عينيه الناعستين ، وقلت فى صوت خفيض :

ـ ويجب ... يجب ان تتزوج سهام ! ...

فامتقع وجهه، ثم رفت أهدابه رفيفا متداركا ، وتلوت شفتاه تغالبان دمعه وتحبسان فى صدره انفجار عواطفه . ثم تداعى راسه بغتة ، وتساقطت كتفاه ، وانبعث من هيكله المحطم صوت غائر يقول :

ـ سارحل ...

ومد ذراعه بالرغم منه ، وحاول أن يلمسنى . ولكنه ارتد مذعورا ودفع اصابعه فى شعره كمن يريد ان يستفيق . ثم صعد نفسا مستطيلا ، ورمانى بنظرة تائهة ، واستدار فجاة ودخل حجرته واوصد خلفه الباب .

واحسست انا كانما هذا الباب قد اوصد على حياتى . فنازعتنى نفسى ان اغامر وادفعه . ولكن هذا الباب نفسه ، هذا الباب الذى اوصده سامح فى وجهى ، هو الذى اسعفنى . ومثل امامى فى صلابته الراسخة ما يجب ان تكون عليه صلابتى . فالتقطت أنفاسى، وقفلت راجعة الى حجرتى ، واوصدت انا أيضا بابها على .

ولم اكد أرى ابنتى راقدة على فراشى ، تغط فى نومها الطاهر الساكن القرير ، حتى أسرعت واستلقيت على الفراش بجوارها ، وعزمت ان أطرد كل شىء وانسى . ولكنى عندما حاولت أن انام ، شعرت كأن لوعة ما تزال تشتعل فى قلبى . فارتميت على ابنتى وقبلتها. فاستيقظت الطفلة وقبلتنى . فضممتها فى عنف الى صدرى ، واحسست راحة منقدة تغمرنى . فأغمضت عينى . وعجبت لنفسى كيف طوانى النوم واستغرقت فيه ...

***

وعدت انت يا صفوت من الحفلة قبيل الفجر ، مكتظا بالطعام والشراب، هاتفا بكرم رئيسك ، تتحدث فى اعجاب وانبهار عن اللحوم السمينة ، والطيور المحشوة ، والحلوى الفاخرة ، وشتى انواع المأكولات الشهية التى كانت تزين مائدة الحفلة والتى استمتعت بها دون ان تكلف نفسك قرشا واحدا . ثم ارتميت على فراشك ونمت كالقتيل..

وفى صباح اليوم التالى ، وكان يوم جمعه ، استفقت انا من نومى الخاطف مبكرة ،واسرعت فاعددت طعام الافطار والفداء . وقبل أن تصحو أنت ويستيقظ سامح ، ارتديت ملابسى ، وأمرت الخادم بأن تحل فى خدمة البيت محلى . ثم اصطحبت ابنتى وخرجت لزيارة شقيقتك اجلال ...

كنت على اتم اليقين من ان سامح لابد أن يبر بوعده ، ولابد أن يغادر بيتنا فى هذا اليوم . وكان فى وسعى أن أوقظه . كان فى وسعى أن أزوده منى ولو بنظرة قبل رحيله . ولكنى كنت قد استعدت قوتى وسيطرتى على نفسى . فلم اشأ أن التقى بسامح، او أن اتيح له الفرصة لتوديعى .

ولما عدت الى البيت عصرا شاهدت ما كنت اتوقعه ... رايتك انت فى حالة هياج عصبى ما رايتك عليها أبدا من قبل . كنت مهتاجا هياجا لا يثير الدهشة بقدر مايبعث على الضحك والرثاء ... رأيتك تغدو وتروح فى

البيت كمعتوه ، تنتظر بفارغ الصبر عودتى ،زائغ العينين ، منتفخ الصدغين، تهدر وتزفر غيظا ، وتصدم المقاعد وتركلها ، وتنهر الخادم وتسبها ، وتصرخ وتهذى وكأنك تود ان تحطم كل شىء .

وما ان ابصرتنى حتى انفجر مرجل غضبك ، وتفاقمت ثورتك . على أنها لم تكن ثورة رجل وانما كانت ثورة طفل حانق بائس مسكين . صحت بى والدمع يكاد يطفر من عينيك ، ان سامح قد جمع ملابسه وحزم حقائبه ، وترك البيت دون سبب ... تركه الى غير عودة ... ثم زايلتك طفولة غيظك وكمدك ، وارتدت اليك قسوتك وغلظة طبعك . فاردفت وفى عينيك بريق وحشى ، ان سامح قد صارحك بانه قد سئم حياة العزوبة واعتزم ان يتزوج سهام ... ثم انقضضت على، وامسكت بى ، وصرخت فى وجهى ، وانت تهزنى هزا عنيفا وتوشك ان تضربنى ، انى أنا ... أنا السبب فى رحيل سامح ، وانى لم أعرف كيف استميله ،وكيف أجتذبه ، وكيف أغريه، وكيف أحبب اليه الحياة المستمرة فى بيتنا ...

ثم مضيت تندب وتولول ، وتذكر ثروة سامح وكرمه وخيره ، وكل تلك النعم التى كان يقدمها بالأمس علينا والتى ستغدق فى الغد على الغريب...

وأصابك شبه مس . فتحولت الى ثانية تسائلنى كيف اهملت ، وكيف تهاونت ، وأى ذنب قد ارتكبت فى حق اخيك كى يرحل عنا هكذا فجأة وبدون سبب ...

وكنت تصرخ وهوس البخل يتلهب فى عينيك ، وشهوة المال ، والتكالب عليه ، والحسرة على ضياعه ، تمسخ معالم وجهك وتفجر الزبد من شدقيك ...

وكنت أنا ،ازاء هذا المشهد المخجل، ما أزال ثابتة هادئة ،اصطنع الاستغراب والدهشة من كل ما وقع ، وأفكر فى أن أجبهك بالحقيقة لأستريح . ولكنى استهولت أن اضرم فى نفسك باعترافى نار ثورة أعنف وأشد . فاحتفظت بصمتى وهدوئى . فضاعف هذا الهدوء نفسه من هياجك وثورتك وامعانك فى اتهامى . فكبر على أن تكون أنت السبب فى ورطتى ثم تحملنى عبء المسؤولية كلها وتظلمنى . فتطاولت عليك بالرغم منى . فضل عقلك ، ورميتنى بيمين طلاق واحدة شفعتها بطردى من بيتك . ثم دفعت الباب فى عنف وخرجت .

أما أنا فلم اتردد لحظة واحدة ، واصطحبت ابنتى ، واتجهت من فورى الى منزل ابى . وما كدت استقر هناك حتى جاش فى صدرى شعور الاستنكار والظلم ، ولم يعد فى وسعى احتمال الكتمان والصمت . كنت قد احتفظت بالصمت حرصا على بيتى ، أما وقد هدمت أنت هذا البيت فى غفلة وغباء، فقد رأيت أنا ان من واجبى ان أتكلم، ومن واجبى ان اتهم ، ومن واجبى أن اكشف النقاب عن الصراع الذى نشب فى نفسى ، وعن العذابات المريرة التى كابدتها ، وعن الورطة القاسية التى تخبطت فيها ، لتعلم أنت ، أنت يا من كنت بالأمس زوجى ، انك أنت الذى حرضتنى وأنت الذى أغريتنى ، وأنت

أوشكت ببخلك الدنىء وجشعك المرذول، أن تلوثنى وتهلكنى ·

لهذا حزمت أمرى وكتبت اليك هذه الرسالة .

فانعم النظر فيها مليا لعلك الآن تتأثر ، ولعل ضميرك يبكتك فتشعر وتقدر وتفهم . على أنك لو فهمت حقا موقفى ، وقدرت حقا مبلغ عذابى ، وآمنت بصدق كل كلمة كتبتها فى هذه الرسالة ، لم يداخلك أيسر شك لافى استقامتى وشرفى ولا فى استقامة وشرف اخيك ، ثم أردت أن تثوب الى رشدك، وأن تفكر فى ردى يوما الى عصمتك ، فاعلم انى لن اعود اليك حتى ولو حبست عنى نقودك ،وحتى ولو اجبرتنى على أن اعول ابنتك بنفسى . لن أعود اليك الا اذا أقلعت أولا وقبل كل شيء عن كبرى رذائلك ، وهى رذيلة البخل التى نجم عنها دمار بيتك ،والتى كادت تعصف بى أنا أيضا وتجرفنى . أما اذا أبيت الا أن تمعن فى بخلك ، وتوغل فى طمعك ، وترتع فى بحبوحة انانيتك وشراهتك وغلظتك وعدم اكتراثك ، فابق حيث أنت . فلن أعدم أنا بعدك رجلا يفهمنى ويقدرنى ويجدد حياتى ويستطيع أن يحفظ بشهامته ورجولته، كرامته وكرامتى .

« **عنايات** »

***

وأدهشت هذه الرسالة صفوت ، وكادت تزعجه ازعاجا شديدا· ومع ذلك فهو لم يستطع ، من فرط اعتداده بنفسه وثقته فى امرأته وايمانه بشرفها، ان يتصور ان تلك الوقائع التى وردت فى الرسالة على النحو الذى رسمته عنايات ، يمكن ان تكون قد أفضت الى أشياء نابية ومزعجة الى هذا الحد ··

كان من عادته حرصا على هدوئه ، وضنا براحة باله ، وذودا عن روح العبث والاستهتار والمرح المتأصلة فيه، كان من عادته الا يؤمن بوجود العواطف الكبيرة والانفعالات العميقة ، ولايصدق أولا يريد ان يصدق ان تلك العواطف والانفعالات يمكن ان تتطور فى نفس الانسان تطورا خطيرا يؤدى الى وقوع كوارث ونكبات ·

لهذا سخر من الرسالة ، وأصر على اعتبارها قصة محشوة بالمبالغة والخيال أرادت بها امرأته التنصل من ذنبها · بيد انه احس على الرغم منه، ان تفاصيل الرسالة دقيقة ، وان لهجتها حارة وصادقة · فاكربته تلك الدقة اللعينة، وهذا الصدق المزعج ، فأبى أن يتأثر بهما خشية ان يؤثرا فى جو حياته الرخى المرح، كما أبى حرصا على كرامته وكبريائه ان يفكر فى مناقشة امرأته حول محتويات الرسالة ، أو ان يواجه أخاه ويطلعه عليها ··

ولم يكن فى الواقع مشغولا بالرسالة، ولا بالنزاع الذى أقصى عنه امرأته ، ولا بيمين الطلاق التى افلتت منه · بل ان ما كان حقا يشغله ، وينغص عليه عيشه ، هو خوفه من ضياع المال ، هو حرصه على الدجاجة التى كانت تبيض له كل يوم ذهبا ، فانطلق يتعقب أخاه ، ويطارده ، ويضيق السبل عليه، عساه أن يقنعه بترك البنسيون الذى نزل فيه ، والعدول عن التزوج بسهام، والعودة فورا الى البيت ·

ولكن سامح لم يضعف ، ولم يسلم، كان يقاوم ويرفض · كان ، وقد تأثر بما حدث وهاله ان تطلق عنايات



بسببه ، يمعن فى التشبث بموقفه ، ويأمر شقيقه بالعودة الى امرأته، ويثنى عليها ، ويطرى خلالها ، ويحمل على اخلاق صفوت ، ويبرىء عنايات من كل عيب وذنب .

وكما كان يصر على وجوب عودة اخيه الى زوجته ، كذلك كان يصر هو على استمساكه بحريته ، وعلى حقه فى الحياة واعتزامه ان يقترن وشيكا بسهام ..

وتحطمت محاولات صفوت وأفانين مكره على صخرة عناد اخيه . يئس من امكان الفوز بالمال . فملأ الغيظ قلبه ، ونهش الكمد صدره وتحولت ثورته الى امرأته ، فأبى أن يذهب اليها، أو يتصل بها ، أو يرى ابنته الوحيدة التى كان لا يعطف فى العالم على أحد غيرها .

وبدأ يدفن همه فى الأكل ، ويعيش فى البيت وحيدا شريدا تائها ، تلفه العزلة ، وتكتنفه الجهامة ، ويسحقه الضيق والضجر والكمد .

وانقضى شهر بطوله وهو يتقلب فى هذه الوحشة الخانقة ، هذه الوحشة التى لم يألفها ، والتى لا تتفق وعاداته وميوله ، والتى ناءت عليه بغتة كحمل ثقيل أو هم وبيل لم يكن قط فى حسبانه فحاول ان يفر من تلك الوحشة باللهو والسهر فلم يفلح . وحاول ان يتغلب عليها بفكرة الزواج من امرأة أخرى ، فلم يستقر أيضا ولم يهدأ .

كان فكره لايطاوعه، وقلبه لايعاونه، وارادته لا تستجيب اليه . كان ضميره يهمس فى اعماق روحه البليدة الكثيفة همسا دائبا متقطعا خفيا ، ان امرأته صادقة ونزيهة ، وان الذنب ذنبه هو لا ذنبها ، وانه هو المسؤول عن كل ما وقع لا هى ..

وكما يحدث فى نفوس الضعاف الغلاظ المستمتعين ، العاجزين عن الصبر على الألم ، التواقين الى الراحة والمرح ، النزاعين الى الحركة السهلة والحياة اللينة، لم يستطع صفوت احتمال عزلته وجهامته ووحشته . فتمنى ان يتحول ، وأراد أن يتحول . فلم يعد يجد بأسا فى الاعتقاد بأنه بالفعل قد تحول ، وانه هو المذنب حقا . ذلك لأن

قلبه وجسمه وكل ما فيه كان يصبو الى التمتع بامرأته ، وبجو الراحة والأمن والأئتناس الذىاعتاد ان يحس به منبعثا منها ، منتشرا فى البيت حول انوثتها ووجودها ..

ولم تكد هذه الصورة الحلوة تندس فى خياله وتتمكن منه ، حتى ارتد من فوره الى طبيعته وتنفس .. لمعت عيناه، وأبرقت اساريره ، وعادت الابتسامة العابثة المستهترة فازدهرت فى غبطة وفرح على شفتيه ..

وفى ذات مساء ، حزم أمره ، وقام فحلق ذقنه ، ونسق شعره ، وارتدى أجمل أثوابه وتعطر ، ثم خرج .

وقبل ان يستقل الترام ، عرج على محل حلوانى ، واشترى علبة متواضعة من الفواكه المسكرة ، وملفا صغيرا من الشوكولاته ، ثم توكل على الله وقصد الى بيت حميه ..

ودخل على امرأته ، مشرق الطلعة ، برىء النظرة ، ضاحك السن ، كأنه كان منذ لحظة معها ، وكأن لم يحدث بينهما أى شىء ..

ودهشت عنايات وتحفظت . وقابل جميع افراد العائلة ، ثم داعب حماته أبوها وأمها واخوها تصرف صفوت بالسرور والارتياح وان كانوا قد التزموا هم ايضا جانب التحفظ ، وبدت عليهم امارات الفتور . فلكى يحل صفوت عقدة تحفظهم ، ويبدد فتورهم ، ويدهشهم ويبهرهم ، لم يسرع بمصالحة امرأته ، ولم يعتذر اليها ، ولم يشر ولو من طرف خفى الى حدوث اى نزاع بينهما ، بل اسرع وقدم اليها علبة الفواكه المسكرة ، ثم اجترأ وعانقها فى حرارة وقبلها ، ثم استفسر عن صحة جميع أفراد العائلة ثم داعب حماته

العابسة ومازحها، وطفق ينثر المجاملات الرقيقة والدعابات اللطيفة والنكت المستملحة ، وهو يحتضن ابنته ويهدهدها ، ويدس فى يدها ملف الشوكولاته ، ضاحكا لنكته ، متباهيا متفائلا مستبشرا ..

وأذهلت الكل هذه الروح البسيطة الطيبة السمحة وطمأنتهم . فانتعشجو البيت ، وانتعش صفوت نفسه بهذا الجو . فأمعن فى القفش والتنكيت . فانتشر المرح مجلجلا . فابتسمت الحماة بالرغم منها ، وقهقه زوجها ، وكاد ابنه يستلقى على ظهره من فرط الضحك .

اما عنايات فقد ظلت ثابتة متحفظة، ولكنها ما لبثت ان ابتسمت مكرهة ، ثم ضحكت ، ثم لم تستطع حيالطوفان النكت ان تضبط نفسها فمضت تقهقه هى الأخرى .

ولما اطمأن صفوت الى أن الجو قد صفا ، عرض فى لباقة على امرأته ان يعود بها الى البيت . ولكن عنايات التى ارادت ان تمتحنه وان تستوثق مما اذا كان قد طالع الرسالة بامعان وتدبر واصبح وفى عزمه ان يغير حقا من طباعه واخلاقه ، رمته بنظرة متأبية صارمة أدرك هو معناها ولكنه تجاهلها واغضى عنها . فانثنت اليه وقالت له انها لن تعود الى بيته الآن ، وانها فى حاجة الى التفكير والترفيه عن نفسها فى جو أسرتها . ثم اذنت له ان يسهر الليلة معهم وان يزورهم ايضا وفى أى وقت شاء .

وابتهج أهلها بقضاء السهرة فى صحبة صفوت المرح الطروب. فاستبقوه ملحين متشبثين . فما كان منه الا ان نهض مسرعا ، ونضا عنه بعض ثيابه ومال الى حجرة النوم فاختطف من

الشماعة احدى جلاليب حميه ، وارتدى الجلابية وخرج عليهم ٠٠

وكانت الجلابية ضيقة وقصيرة ٠ فانحشر فيها صدره المكتنز ، وبرز منها كرشه المتكور ، وبدت من تحتها ساقاه عاريتين ملبدتين بالشعر ٠ فضج الجميع واغرقوا فى الضحك ٠ فأجال صفوت البصر فيهم وهو يضحك مثلهم ويتواثب كأنه يرقص ٠ ثم راق له بغتة ان يدهشهم ايضا ، وأن يبهرهم ، وأن يضاعف سروره وسرورهم بهذه الليلة السعيدة الشائقة ٠ فاندفع نحو سترته، واخرج منها حافظة نقوده ٠ ثم نادى الخادم فى صوت معتز جهير ، وناولها فى شجاعة جنيهين كاملين ، وأمرها بأن تذهب وتشترى كيلوين من لحم الضأن ال « ملبس » باللية ، وعشرة أرغفة وكثيرا من البقدونس والطماطم والخيار ٠٠وما كادت الخادم تختفى حتى أسرع هو الى المطبخ ، وأشعل وابور الغاز ، ثم ثبت فوقه المشواة ثم حمل الوابور الى غرفة الصالون، ووضعه على الأرض، وتربع تجاهه ، واشار الى الجميع بأن يتربعوا حوله ، وجعل يفرك يديه ويبتسم ٠٠ ولما عادت الخادم أمرها بان تغسل البقدونس ، وتعد طبقا من السلاطة المتقنة ٠ ثم تناول منها اللحم، وقلبه لحظة ، وتفحصه ، ورضى عنه ، ثم بدأ يرص الشرائح فى دقة على المشواة، ورأسه يهتز، وعيناه المتلهفتان تلمعان ٠٠

وتصاعدت فى الجو رائحة الشواء ٠ وعادت الخادم تحمل صينية فيها السلاطة والبقدونس والخبز ، فتقاطر الجميع على صفوت وهم يتدافعون ويتصايحون ٠ فأستمهلهم فلم يهملوه ٠ فجعل يلتقط بأصابعه قطع اللحم المشوية ويدس كل قطعة فى شطيرة من الخبز ، ويقدمها مبتهجا لأقرب يد ممتدة اليه متهافتة عليه ٠٠ واختص نفسه بالقطع الكبيرة، وشرع ينهشها فى نهم ، ويمضغها فى شغف ، ويستمرئها فى نشوة ، وعنايات التى لم يستخفها كل ما كان يجرى حولها ، تتأمل صفوت ، وترى شراهته المستفحلة ، وغلظته ومكره وسخاءه الغشاش ، ماثلة فى عينيه ، وفى فكيه، وفى شفتيه ، وفى اسنانه الوطيدة التى تطحن الطعام طحنا وتبتلعه كأنها تختزن ثروة عزيزة وتطمرها ٠٠

وعاودها شعور التقزز ، وظلت تنعم النظر فى الرجل ٠٠

ايقنت انه لم يتغير ولن يتغير ٠٠٠ وعندما تحول اليها وابتسم لها، وناولها قطعة الخبز الدافئة ، لم تنظر اليه بل نظرت الى قطعة الخبز وما فيها٠٠ نظرت الى اللحم ٠٠ الى شريحة اللحم المشوية المتألقة النضاحة بالدهن ، وانجابت عن ذهنها السحب فجأة وادركت ٠٠

ادركت ان هذا اللحم هو الخمر ، هو النسيان ، هو الخلاص.. وانها اذا أرادت أن تعيش مع هذا الرجل ، وتنسى الى الأبد قلبها ، وحبها ، وآمالها ، فعليها ان تضحك ، وان تمرح ، وان تحب هذا اللحم٠٠ هذا اللحم الذى كان يثير حتى اللحظة تقززها واستنكارها ٠٠

وأدنت القطعة من فمها، وعضت عليها بأسنانها ٠ فوجدت لها طعما لذيذا جديدا ٠ فأحست على دهش منها ، أحست وهى مأخوذة ومبهوتة ، ان اللحم قد اختطفها ، وان عبير الشواء قد احتواها ، وان الدموع التى كانت تتحير فى عينيها ، ترتد فجأة وتتبدد، وتؤثر ان تموت فى قلبها على ان تنحدر على خديها ٠٠

خيط من النور

بقلم : محمود البدوى

فتح عينيه فالفى الظلام يخيم على الغرفة فأصابه ما يشبه الذعر .. اذ كان يود أن يغادر القاهرة فى قطار الساعة السادسة الى الاسكندرية .. ليكون بنجوة هناك من كل مطاردة ويختفى عن العيون .

وكان النوم قد غلبه وهو جالس على السرير لارهاقه الشديد وشعوره المجسم بالحادث الذى تجلى له .. مروعا حتى زلزل خواطره وسد كل المنافذ فى وجهه .. فهرب من الواقع المروع بجسمه ونفسه واستغرق فى النوم .

وعجب شوقى لكونه ينام فى هذه الساعة العصيبة ولكن أعصابه المرهقة طوال الأيام الماضية كانت فى حاجة فى الواقع الى هذا الاسترخاء الطويل وأفاده النوم فعلا .. وفتح عينيه وهو يحس بأنه صلب وانه قادر على مجابهة الأمر بعد أن كان قد انهار كلية فى النهار وكاد أن يسلم نفسه .

وكانت الغرفة سابحة فى الظلام . ولكن نافذتها الوحيدة المطلة على الشارع الخلفى كانت بمثابة حلقة اتصال بالعالم الخارجى .. فحدق فى العمارة المواجهة ..وكان بياضها قد ضرب الى السمرة من فعل الزمن واستقر بصره على شرفاتها ونوافذها وكان بعضها مضاء من خلال الشيش المغلق .. وبدا الزجاج يلتمع من سقوط المطر وأحس بالرغبة فى أن ينهض من الفراش ليشاهد . مقدار البلل الذى أصاب الشارع وتعرف حالة المطر هل كان رذاذا أو سيلا منهمرا .. ولكن الضعف والخمول ولزومه الفراش منعته من الحركة وأحس بالعرق الغزير يبل الفراش مع انه خلع سترته قبل أن ينام ورأى أن يبقى بالقميص والبنطلون ليكون على استعداد تام لكل الطوارىء .. ولكن الخوف زاد من افرازات العرق كما أنه دفع الغطاء وكوره فوق رأسه وهو نائم وكأنه يحتمى به من كل ما يأتى به القدر .

وحرك البطانية جانبا ٠٠ واضطجع وقد جعل رأسه ناحية الباب بعد أن أحس بحركة النزلاء فى « البنسيون » ٠٠ وكانوا قد تجمعوا فى الحجرة الخلفية ليلعبوا القمار كعادتهم وسمع صوت مدام سوزان صاحبة البنسيون وضحكاتها ثم صوت ابراهيم أفندى ٠٠ وكان أكثر النزلاء ٠٠ تحمسا للعب ٠ وهو الذى يجمع رفاقه على المائدة من الساعة التاسعة ليلا ويظلون فى لعب القمار الى الصباح ٠

وكان أرمل ومنذ ماتت زوجته وهو يعيش فى البنسيونات والفنادق مضطربا فى معيشته ويبدو تاعسا وحيدا حاسا بالفراغ القاتل ٠

وكانت « سوزان » صاحبة البنسيون تشاركهم فى اللعب أحيانا ومعها سيدة شابة من شقة مجاورة فى نفس العمارة وذلك فى الحالات التى يحمى فيها وطيس اللعب ٠٠ وتكون متأكدة من اخراج مبلغ مناسب للمائدة التى يلعبون عليها ٠٠ وكان يقر فى حسبانها دوما ان فى مائدة القمار والحسان اللواتى يجلسن حولها اغراء للنزلاء على البقاء « بالبنسيون » ٠٠ والتعلق به وعدم تركه الى غيره ٠٠ والبنسيونات والغرف المفروشة فى القاهرة كثيرة جدا ٠

ولخبرتها بالرجال ولباقتها لم تلح على « شوقى » فى أن يلعب القمار مع النزلاء لما وجدت أنه لا يحب ممارسة هذه اللعبة ٠

كما انها لم تقصر فى العناية به فى بيتها بسبب انه يدفع أقل النزلاء أجرا بل كانت تعنى بفراشه وبنظافة غرفته كأى نزيل آخر يدفع ضعف أجره ٠

وكانت تحنو عليه وتنزله من نفسها منزلة خاصة لشبابه وصباحة وجهه ٠٠ اذ كان هو الشاب الوحيد وبقية النزلاء من العجائز ٠

كما كان هو الوحيد الموظف فى الحكومة ويدفع لها أجر الغرفة بانتظام ٠٠ وأكثرهم استقرارا اذ مضى عليه فى بيتها أكثر من سنة وغيره من النزلاء كالقومسيونجية والعابرين لا يمكثون أكثر من شهرين أو ثلاثة ، وكانوا يتعبونها لكثرة تنقلهم ٠٠ولأنهم يدفعون شهرا ويؤجلون الدفع أشهرا ٠٠

وكانت مستريحة « لشوقى » راضية عنه لأنه هادىء الطباع قليل الزوار قليل المطالب ،وكانت قد بصرت به فى هذه الليلة٠٠وهو مستغرق فى النوم من وقت الظهر على غير عادة ففتحت عليه الباب برفق وهو نائم ثم ردته لما رأت استغراقه وأدركت أنه متعب فتركته ليستريح ٠

ولما فتح « شوقى » عينيه كان صوتها هو أول صوت وصل الى سمعه٠٠ فبقى فى مكانه يحدق فى الظلام ٠٠ فوجد سترته ملقاة كما اتفق ٠٠ وبعض الكتب على الطاولة وبجوارها دورق وكوب والنافذة مشرعة ٠٠ ولاحظ فى البيت المقابل حركة ليلة الأحد ٠٠ اذ كانت معظم الشقق مضاءة وكانت العمارة

عالية حتى حجبت عنه نجوم السماء وهو في مكانه على الفراش ٠

ولما نهض من السرير وجلس مسترخيا على الكرسى تحت النافذة مباشرة رأى جانبا من السـماء والنجوم تطاردها السحب وأنس الى أنوار العمارة المقابلة وتحرك سكانها ٠٠ ودار فى خاطره ان المطر قد انقطع منذ ساعة واحدة وان الليلة شديدة البرودة ٠٠ والسـماء أخذت تدكنها السحب السوداء ٠

وشعر انه احسن حالا بجلوسه على الكرسى ٠٠ وارتدى سترته على عجل فشـعر بالـدفء ٠٠ وزايله بعض الاحساس بالقلق ٠

وكانت فى رأسه صورة « عفـاف » وهى زوجة رجل سكير مقامر يقيم فى نفس البنسيون ٠٠ وكانت تلاحقـه برغباتها المكبوتة وهو يصدها برفق ٠٠ وخشى لو دخلت عليه الغرفة فى هـذه الساعة أن يضعف ويستجيب لرغباتها ٠

وفتح عينيه جيدا ٠٠ وظل يحـدق فى الباب بقوة والأفكار تعصف برأسه وتقوده الى الشرود ٠٠ كان يتعذب ٠

وأحس بحاجته الى أن يذهب الى دورة المياه ٠٠ فخلع سترته ٠٠ ومشى الى الباب دون أن يضىء المصباح ٠

وشعر بالبرد فى الغرفة ٠٠ وبحركة النزلاء الساهرين على مائدة القمار ٠٠ ولمح قبـل أن يدفع باب الحمـام ٠٠ « روحيـة » نائمة فى المطبخ وكانت متكورة على البلاط ومعرية فخذيهـا وترتعش من البرد ٠٠ فشعر بالأسف لحالها :

وأسرعت نبضات قلبه وثبت بصره عليها ٠٠ ان هذه الفتاة معه فى نفس البنسيون منذ سنة وأكثر وهى أجمل من وقعت عليه عيناه فى كل النساء فى داخل البنسيون وما يجاوره من البيوت ٠٠ وقد أشفق عليها لما رآها مهضومة الحق وسيدتها لاتعاملهـا بانسـانية ولا تترفق بها ٠

***

ودخل الحمام ٠٠ واخذ يغتسل وهو يحس ببرودة الماء على أصابعه ووجهـه ولكنه أحس بأنه أفاق وذهـب عنـه الشرود ٠

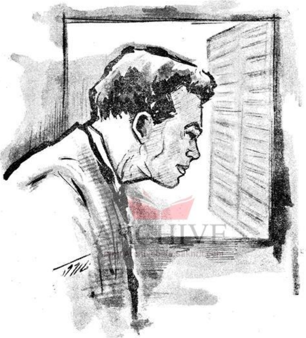
وتولد عنده احساس قوى ٠٠ لأن يرى الشارع يرى الدنيـا فى الخارج وماذا حدث لها وجرى فيها ٠٠ فأطل من نافذة الحمام الصغيرة بعد ان أغلق مفتاح النور ٠

كان الليل شاحبا ٠٠ وكان الشارع يعج بالسيارات تحت المطر ٠٠ ولم يكن بين المارة ولا فى الحركة المتصلة توقف ولا أدنى احساس لما حدث ٠

فخمن ان العسـكرى الانجليزى لم يصب من القنبلة وانها ذهبت هباء ٠٠ ولم تحدث أثرا يذكر ٠٠ وأخذ يستعيد فى ذهنه الصورة بكل دقائقها وتفاصيلها وأدهشه ان يستعيد كل شىء رغم مافى ذلك من الم ٠

وسمع وهو راجع الى غرفته ابريقا يئز على النار فى المطبخ ٠٠ فأدرك أن نزيله تعد لنفسها الشاى ٠

ولما جلس على سريره بعد أن أغلق الباب بالمفتـاح ٠٠ تلاشى شـعوره بالاستقرار ٠٠ وأخذ يحدق فى الظلام



٠٠ وفى النافذة المطلة على الشارع وعلى الجانب المقابل ٠٠ أخذت انوار الحجرات تخفت ٠٠ ويغمر الظلام كل واجهـات البيوت ٠

وتولدت عنده كراهية للسياسـة ولعنها ولعن الساعة التى انتمى فيهـا الى الحزب٠٠ولعن كل الأحزاب الموجودة وساءه أكثر انه اشترك مع اثنين آخرين فى القاء القنبـلة وكان قد سـمع ان احدهما قبض عليه فى مكان الحادث وقد يعترف ٠٠ ويذكر اسمه ٠٠ وانهم الآن يبحثون عنه وارتعش قلبه ٠

كانت أعصـابه قد تفككت ٠٠ ثم عادت وتماسكت مؤكدة عنده احساس مدمر بالقلق والتعاسة المرة ٠

كان كل ما يحسه هومزيج من الحاجة

الى النوم أو الاسترخاء ٠٠ أو الحاجة لأن يدفن رأسه فى صدر امرأة ويطلق توتر اعصابه ٠

وأحس بالظلام يلف وجدانه ومشاعره وكل أحاسيس نفســـه ٠٠ وغمره احساس بأن السياسة عبث والحياة عبث ووجوده كله عبث ٠

أحس بأنه يرى قوة أكبر منه آتيــة لتحطمه آتية لسحقه ٠٠ ولا قبل له بردها ولا وقفها ٠

كان مضطجعا يحدق فى الظلام وهو عابس الوجه ويحاول ان يحلل الخوف ويحلل مشاعر نفسه ٠

ورجع فى تلك اللحظة يفكر فى الفتاة المسكينة « روحية » التى تعمل خادمة عند ســيدة مصرية متزوجة وكانت السيدة تتخذ من البنسيون بيتا تطبخ وتعمل فيه كل شىء كأنها فى بيتهــا الخاص فجاءت بهذه الفتاة معها ولـكنها لم تعاملها برفق وكان شوقى يشــعر نحو الفتاة بعاطفة انسانية دافقــة ٠٠ ويتألم لحالها وهو يراها نائمة فى المطبخ على البلاط فى ليالى الشتاء وفوقها غطاء خفيف وتحتها شىء اشــبه بالحصــير لايقيها شر الرطوبة ولا رعشة البدن فى الليل المقرور ٠

وعلى توالى الأيام تحولت الشفقة الى حب ٠٠ وحب متمكن من شغاف القلب وكانت الفتــاة تراه وحــده فى الغرفة لايختلط بسكان البنسيون ولا يزور احدا ولا يزار ٠٠ فأنست لوحدته ٠٠ وكانت تحمل له دورق الماء وكوب الشاى واذا رأته يغسل شرابا أو منــديلا فى الحمام تناولته منــه بسرعة وغسلته ونشرته وهى تنظر حواليها خوفا من ان تراها سيدتها فتؤنبها على هذا العمــل وربما تشتمها وتسمعها الكلام الموجع ٠

وكان شوقى اذا عاد من عمله ولم يرها أو يسمع حسها فى داخل البنسيون يحس بالوحشة وبالاشتياق حتى تعود من الخــارج ٠٠ وأول شىء تفعله وهى راجعة هو المرور على بابه لتتــأكد من وجوده فاذا وجدته أشرق وجهها وفاض البشر على محياهــا حيتــه وانصرفت مسرعة الى عملها ٠٠ وكانت لهفتهــا واشتياقها الى لقائه أضعاف لهفتــه واشتياقه ٠

وفى الساعة التى يذهب فيها سيدها بصحبة سيدتها الى السينما أو الى مشوار فى الخارج ٠٠ كانت تمضى الوقت كله ٠٠ فى غرفة « شوقى » ويحسان فى هذه العزلة الحبيبة بالامتزاج والنشوة والحب ٠

وأحس بانه شغل عنهــا فى ايامه الاخيرة بالحادث السياسى فلما فرغ منه وقرر الهروب الى الاسكندرية اختلى بها وحدثها برغبته فى اخذها معه ٠

وسألته برقة واستغراب :

ـ أروح معك اسكندرية ؟! ٠٠

ـ نعم ٠

ـ ازاى ؟

ـ سنعيش سوا ٠

ـ لكن أنا خدامة ٠٠ ياسيدى ٠٠ ؟!

ـ لا أحب سماع هذه اللفظــة ٠٠ ولا تقوليها لى أبدا ؟

ـ امال أقولك ايه ؟

ـ شوقي ٠

ـ شوقي بس ٠٠ ؟

ـ بس ٠

ـ لكن انت سيدى ؟

ـ لا تقولى هذا الكلام ٠٠ ولا يوجد أسياد وعبيد فى العالم ٠٠ الله خلق الناس سواء فى هذه الدنيا ولكنا نحن الذين نفرق بينهم ٠٠ ونجعلهم طبقات بحماقتنا وغرورنا الانسان عندمايتجبر ٠٠ يطغى ٠٠ ولا يقف طغيانه عند حد ٠٠ كما يطغى الانجليز الآن ٠٠ويحاولون أن يستعبدونا ٠٠ ولكنا سنوقف طغيانهم ٠

وتحمس ومد قامته وبدا امامها قويا واعجبت لحماسته وقوته ٠

واقترب منها واحتضنها ٠٠ ومسح على شعرها بحنان وحب ٠٠ وسألها :

ـ ستسافرين معى الى الاسكندرية ؟

ـ نعم والى كل مكان ٠

فقال هامسا :

ـ فى ساعة الفجر ٠٠ سنفتح الباب بهدوء ونخرج معا ٠٠ فاعملى حسابك وكونى صاحية ٠٠

ـ مش حنام أبدا ٠

وتركته ٠

وظل هو متيقظا يرسم خط سيره وتحركه ٠٠ والمكان الذى سيقيم فيه فى الاسكندرية بعيدا عن العيون ٠٠ وكان معه حوالى ستة عشر جنيها سيقطع منها ثمن التذكرتين والباقى يصرفانه حتى يتدبر حالته ٠٠ ويشتغل هناك فى أى عمل ٠٠ والمدينة كبيرة ولن يجوع فيها ٠٠ وستبقى « روحية » فى البيت لن تشتغل فى أى مكان وسيتزوجها ويعمل على اسعادها ويرفع من كيانها وانسانيتها ويرد لها حقها المسلوب ٠

وفتح شوقى باب البنسيون وكانت الساعة قد تجاوزت الخامسة صباحا بقليل ولا يزال الظلام يخيم ودفع الفتاة امامه بحذر على السلم ونزل وراءها ٠

وفى مدخل العمارة لمح شيئا جمد له قلبه ٠٠ فقد رآهم يرابطون على الباب واخذوا يقبلون نحوه بخوذاتهم النحاسية وفى ايديهم البنادق ٠٠ وكان يتقدم القوة اثنان من الكونستبلات الانجليز وبدا له جليا انهم قبضوا على رفيقه وانه هو الذى وشى به ودلهم على مكانه ٠٠ وكان ابداء أى حركة مقاومة منه معناها ٠٠ صرعه وصرع الفتاة المسكينة فظل ثابتا فى مكانه ٠٠ حتى طوقوه ٠

وعندما وضعوه فى « البوكس » ظلت الفتاة واقفة وحدها على عتبة الباب تصرخ ولم تكن قد فهمت شيئا ٠٠ ولكنها ظلت مع ذلك تصرخ بحرقةوكان صراخها يمزق نياط القلب ٠

وكان شوقى يسمع صراخ الفتاة والنور يشعشع من خلال الكوة فى العربة المغلقة وظل يفكر فيها وفى صراخها وعذابها وهو فى العربة وومض فى رأسه خيط من النوراضاء له الطريق للهرب والعودةاليها ليخلصها منالعذاب ويخلص نفسه ٠٠ قبل ان يضعوا فى عنقه الحبل ٠

الحصار الأخير

قصة

بقلم صوفى عبدالله

أصيبت بما يشبه الطعنة ، وشعرت بأعز مافى حياتها يحتضر فوقفت جامدة كالتمثال والورقة فى يدها تتراقص سطورها أمامها ، ثم تتداخل وتنطمس وشل لسانها والرجل الواقف أمامها يحثها على التوقيع ليذهب لقضاء بقية مهامه ٠٠ وفى حركة آلية أمسكت بالقلم بين أصابع مرتجفة ووقعت ٠٠ نعم وقعت فما كان فى امكانها أن تفعل غير ذلك فقد فوجئت به ٠٠ فوجئت به على غير انتظار أو توقع ٠٠ فوجئت به ولم يخطر ببالها يوما ان يحدث هذا ! ٠ ٠ ٠ فوجئت به كالصاعقة حينما تنقض على رأس انسان من حيث لا يحتسب ٠ ٠ كيف يمكن أن يحدث هذا ؟ ٠ ٠ كلا انها مكيدة دبرت لها ٠٠ فهذا الشخص غير موجود ٠٠ غير موجود على الاطلاق ، وحتى لو كان موجودا لما تجاسر ٠٠ فبأى حق يأتى الآن ؟ ! بأى حق يظهر على مسرح حياتها ويطالبها ! أله عندها شىء ٠٠ ؟ ألم تكن هذه الوديعة هى التى دمر حياتها بسببها ؟ شردها حكم عليها بالذل والهوان لكى تتخلص منها ٠٠ أوقع عليها يمين الطلاق قبل أن تكتحل عيناه برؤيتها ٠٠ تركها عرضة لأعاصير الحياة وتقلبات الزمن ، وهو يعلم تماما ان لامورد لها ٠٠ هل بعد كل ذلك يعود ليطالبها بها ؟

وتساندت لترتمى على أول مقعد صادفها ، وشريط حياتها يترى أمام ناظريها فى صور متلاحقة ٠٠ ويدها قابضة على الورقة تلوكها بين أصابعها دون أن تفطن لحركاتها ٠

ها هى فتاة تجرى وتتغامز وتتضاحك وترتمى على حجر أبيها ٠٠ انه يعبدها فهى وحيدته ، قره عينه ٠٠ الأمل الباسم الذى يرى فيه جمال أيامه ٠

أمها فقدت بولادتها آخر أمل فى ولادة ثانية استؤصل رحمها ، وأصبحت (صفاء) زخر أبويها بعد أن بلغ والدها من السن ما يركن فيه الى حياة الدعة٠

لقد تزوج أمها بعد أن تخطى سن الشباب ٠٠ تزوجها بعد أن قضى مع زوجته الاولى عشرين عاما ، وماتت دون أن تنجب له ذرية ، كانت هى أول ذريته ٠٠ عبدها من دون الله ٠٠ أغدق عليها من موارده الضيقة، كان يستدين أحيانا اذا طلبت منه ما تعجز يده عن احضاره ٠

وكبرت فى حضن هذا التدليل ٠٠
كبرت وكبرمعها الاحساس بالملكية لكل ما تشتهيه ٠٠ لا عسير على والدها لاشىء يقف فى سبيل رغبة تبديها ٠٠ انها الملكة المتوجة على عرش بيت رعاياها فيه أب وأم وخادم ٠٠ وعالم زاخر من حولها اذا أرادته ملكا خالصا لما توانى والدها فى تمليكه لها ٠

كان هذا شعورها حينما خرجت من عالمها الضيق من مملكتها الصغيرة ٠٠ مملكة البيت والاسرة ٠٠ الى العـالم الزاخر الواسع من حولهـا ٠٠ عالم الدراسة ٠

ومن الطبيعى أن تصـطدم عشرات المرات فى اليوم بالاطفال من حولها ٠٠ لقد تعودت أن تطاع ٠٠ أن تكون الآمرة الناهية ٠٠ أن يخضع الجميع لرأيها ، حتى الاطفال الذين كانوا يزورون الاسرة مع أمهاتهم ٠٠ كانوا يطيعونها حينما يجلسون للعب معها بلعبها الكثيرة ٠٠

ولكنها هنا لا تطاع ! هنا مثلها مثل الآخرين ، لهم ما لها من حقوق ، وعليها ما عليهم من واجبات ، وهى تعودت غير ذلك ٠٠ تعودت أن يكون لها كل الحقوق ولا تطالب بأى واجبات ٠

وراحت تصرخ وتعول وتضرب الارض بقدميها ، فكان جزاؤها عقابا وحرمانا من اللعب ، فتلجأ الى والدهـا شاكية باكية ، فيحجزها بجانبه عدة أيام ٠٠ وكانت والدتها تحثه على ارسالها والا تلفت ٠٠٠

هل كانت تفكر فى مستقبلها وقتذاك انها راضية هكذا ٠٠ قانعة بقربها من والدها ٠٠ فليذهب مستقبلها الى الجحيم فما الذى ستفعله به اذا كان فى هـذا المستقبل مدرسة وتلاميذ «وامارة» ٠٠ وبهدلة ! هنا هى بجانب والدها ، ملكة متوجة لايشاركها انسان ، ولا ينازعها أطفال «مفاعيص» ٠

وعلى هـذا الاســاس تعثرت فى دراستها ٠

وسرحت بخاطرها تستعرض زميلاتها اللواتى أصبح منهن طبيبات ومدرسات وأقلهن شأنا تكسب قوتهابعرق جبينها متزوجات نعم ٠٠ ولكنهن صاحبـات مهن يعولن عليها اذا خانهن الحظ فى الزواج ٠٠ أما هى ؟

لم يكن الدرس شغلها فى طفولتهـا وصباها ، كان همها ان تثبت نفسها : أن تشعر الأخريات انهن أقل منها شأنا فليس تفوقهن فى الدرس دليلا عـلى أنهن يفضلنها ،فهى تستطيع أن تحصل عـلى أى شىء لا يستطعن من الحصول عليه ٠٠ فى امكانهـا أن تطلب نجوم السماء فيجاب طلبها ٠٠ ليس الدرس ما يهمها فهى فى غنى عنه تماما ٠

كانت تبهرهن بما تلبس من ثياب ، وما تتزين به من حلى ، وكانت تتحـدى أى واحدة منهن أن يكون لها من الحرية ماليديها٠٠ وكل يوم تطلع عليهن بجديد وتسرد على مسامعهن اخبار نزهاتها ٠٠ والجديد من ملابسها ٠

وان تنس فلا تنس يوم أن تحـدتها الطالبة (نعمات) «ألفة» الفصل ، والفتاة المتفوقة التى لم تتخل يوما عن أولويتها كيف سخرت منهـا ، وهى فى وسط «الشلة» تقص عليهن آخر مشترياتهـا

ناذا بنعمات تتهكم عليها عن بعدصائحة (مثلك يجبأن تستأصل من المجتمع) ٠

هنا ثارت ثائرتها ، واستعدت عليها الطالبات جميعا ٠٠ الطالبات اللواتى كانت تنفق عليهن عن سعة ، فرحن يعايرنها بفقرها ، وبملابسها البالية ، ويقارن بينها وبين ملابس صفاء الشيك الأبهة ٠٠ ولم يتركنها حتى بكت ألما مقهورة ، وقد تخلى عنها الجميع ٠٠٠ هنا انتشت بالانتصار على خصمها اللدود ٠

أين هى الآن نعمات الفتاة الجادة المتفوقة التى لم تكن تملك سوى ثوب واحد ترتديه تحت مرولتها المدرسية طوال العام ٠

لقد أصبحت طبيبة يشاراليها بالبنان وأين هى منها الآن ؟

وزفرت من أعماقها ٠

لولا فرحتها بأن تظفر به لتكبتهن جميعا لما أصبح هذا شأنها ٠

ووالدها ٠٠ لماذا تركها تلهو دون رادع ؟

كان يدللها فعلا ٠٠ ولكنه عارض أشد المعارضة فى زواجها المبكر ، ومنذ بلغت السادسة عشرة والعرسان يتقدمون لها واحدا فى أثر الآخر ٠٠٠ لكن والدها رفضهم جميعا دون استثناء

لماذا ؟ لم تكن متفوقة ، ولم يكن يبشر لها بمستقبل علمى باهر ، أو حتى متوسط ٠٠ كانت فى الثامنة عشرة من عمرها حينما نجحت فى الابتدائية بجهد الجبابرة ، وبمعاونة زمرة من المدرسين الخصوصيين ، وانتقلت الى السنة الاولى الثانوى . ومع ذلك كان والدها يغريها بشتى المغريات ليدفع بها الى حب الدرس ويزين لها مستقبلها بعد التخرج ، وقد تبوأت أعلى المناصب واصبحت حرة نفسها تتصرف كيفما تشاء دون حاجة لانسان ٠

كان يعلم أنه لن يعيش لها طويلا ، ولا يملك عقارا يورثه لها ليكفيها شر الحاجة ، فلا شىء اذن سوى العلم ، العلم وحده هو الذى يعصمها من شرور كثيرة ٠٠ والزواج الآن ــ حتى ولو كان زواجا طيبا ــ لايضمن أن تستريح مع زوجها وهى الدلوعة المستجابة الطلبات فاذا كان هو يعززها كما لا يستطيع غيره فى الحياة أن يفعل معها ٠٠ فمن أدراه أن الزوج يحذو حذوه ، ولا يذيقها الهوان اذا أرهقته بالمطالب التى اعتادت عليها وأصبحت فى نظرها من المسلمات٠

ووقعت فى «زين» ٠

ولا تدرى أكان حبا هذا الذى حملته له ، أم رغبة مشبوبة لكبت الاخريات بعد أن رأتهن يتدلهن فى حبه !

وسواء كان هذا أو ذاك ، فقد بهرتها وسامته المفرطة ، وشعره الأشقر (المسبسب ؟ وعيناه الزرقاوان الناعستان ٠

رأته وهى فى طريقها الى مدرستها الجديدة ، وهو طالب مزمن بالمدرسة الثانوية التى تجاور مدرستهم ، يرفض باصرار أن يتركها للجامعة لانها مورد رزقه ٠ ٠مورد رزقه عن طريق طالبات المدرسة الثانوية اللواتى يغدقن عليه الهدايا ٠٠ فهو يغيرهن كما يبدل قمصانه المشجرة ذات الالوان الفاقعة

التى يغوى بها الصغيرات فارغات العقل فيقعن فى حبه ٠٠ فيتدلل عليهن ٠٠ فيطلبن وده بالهدايا ويصبح الآمر الناهى ٠

ثم يأتى الهجر بعد الوصال، فتعرف الفتاة معنى البكاء والسهد وسهر الليالى والاقدام على الانتحار ٠٠ ولكن زين المدلل يكون قد استنفد كل ما يريد من فتاته حتى آخر قرش معها ، وغير بعيد أن تبيع أسورتها او خاتمها ، أو ساعتها ، لتشترى بثمنها هدايا لزين ليرضى عنها ، ولا بأس من أن تقسم لمامى أنها ضاعت ، ومامى لاتجسر بالتالى أن تخبر الوالد الحمش لئلا يقطع رقبتها ٠

وزين يستطيع أن يعرف كل مايتعلق بالفتاة قبل أن ينصب شباكه حولها ٠٠ ووجد صفاء صيد « صقع » وهنا راح يتودد اليها ويغازلها بعينيه الناعستين ، وهى رأت فيه انتصارا آخر على رفيقات درسها ٠

ودون أى تفكير أقدمت على المغامرة ، ولم تكن المغامرة كلها كبتا للزميلات ، بل ان حسنه بهرها ، وقمصانه الفاقعة الألوان من بنبه مسخسخ الى احمر فاقع الى لبنى مزهره ٠٠ كانت تضفى عليه طابعا مميزا عن كل من حوله ٠

وتململت صفاء فى جلستها ، ثم قامت تقطع البهو الصغير ذهابا وايابا كالطير الجريح ، وهى تفرك بين أصابعها فى عنف تلك الورقة التى سلمت اليها من لحظة ٠

ماذا يريد منها الآن ؟ ماذا يريد بعد عشر سنوات من انقطاع أخباره ٠

كان شؤما ذلك اليوم الذى خطتفيه بقدمها الى الحديقة التى تواعدا على اللقاء فيها ٠٠ لم تكن أقدمت على مثل هذه الفعلة النكراء حتى بلوغها هذه السن ، ولا تدرى كيف استطاع أن يؤثر عليها حتى استدرجها الى لقائه ٠

كان لطيف الحديث ، بارعا فى اختيار كلماته ، جعلها تنسى نفسها ، سحرها بعذب ألفاظه ، وكان فى استطاعته أن يأمرها فتجىء بعد ذلك صاغرة اليه ، ولكنه ترك لها حرية الاختيار ليلتذ بحيرتها وبصراعها بينها وبين نفسها ثم بهزيمتها أخيرا وموافقتها ، وهكذا لم تفارقه الا بعد أن ربطت نفسها بموعد آخر تلقاه فيه ٠

ومع ذلك كم راجعت نفسها ، وكم من ليلة قضتها مسهدة تستعرض موقفها بيد أن كلماته المعسولة كانت ترن فى أذنها كأنغام الموسيقى الشجية ، وهى تراه بعين الخيال ، بقامته الفارعة ٠٠ وجماله الساحر ٠

وفى المرات التالية طلب منها أشياء بدت غريبة منفرة ٠٠ فرفضتها باصرار ولم يستطع صوته الساحر ، ولا عذوبة ألفاظه أن تثنيها عن عزمها ٠٠ بل وقررت أن تقطع علاقتها به ٠

وتنهدت بحرقة وغمغمت :

ـ ليتنى فعلت ٠

ولكنه لم يتركها ٠٠ راح يلح أن يتزوجها ٠

وصعقت ٠٠ تتزوج منه هو قبل أن ينهى تعليمه ؟ وكيف يعيشان ؟

واخذ يزين لها حياة الزواج ، وانه يملك عقارا يستطيع أن ينفق منه حتى

ينتهى من علومه ويحظى بالوظيفة المنشودة ، وهى ؟ هل تقطع تعليمها ؟ هل تخذل والدها ؟

فقال وهو يحتضنها اليه :

ـ الفتاة ليس لها سوى زوجها ، أما العمل فهو كلام فارغ مادامت فى كنف زوج ينفق عليها عن سعة ويهيىء لها الحياة الرغدة ٠

وارادت أن تقاوم ، ولكن لذة عناقه أذابت كل مقاومة لها ٠٠ ورضيت أن تتزوجه وتهرب معه الى مكان بعيد حتى تهدأ الحالة بعد ان يرى والدها نفسه أمام الامر الواقع فيغفر لها ويعودان بعد أن يصفح عنها ليعيشا مع والدها حتى ينهى تعليمه ٠٠ عليها فقط أن تكتب له خطابا تتركه فى مكان ظاهر حتى لايزعجه غيابها فيلجأ الى البوليس الامر الذى يريدان تحاشيه بشتى الطرق تجنبا للفضائح ٠

وتركته على لقاء سريع فى صباح اليوم التالى ٠

وأمضت الليل بطوله تنمق فى الخطاب وتعيد كتابته عشرات المرات لتجعله خفيف الوقع على والدها المسكين ولمت بعض ثيابها الضرورية فى حقيبة مدرستها ، فقد قدرت أن غيابها لن يطول ، وانها لابد عائدة بعد أيام ٠

وكعادتها فى الصباح قبلت والدها وودالدتها قبل النزول الى المدرسة وتأبطت حقيبتها بعد أن وضعت الخطاب فى أبرز مكان بحجرتها ٠

وكان فى انتظارها ٠٠ كان يعلم انها لن ترضى بالذهاب معه الى أى مكان قبل أن يعقد عليها ٠

وجلسا فى مكان عام يتناولان بعض المرطبات وما ان وافت الساعة العاشرة حتى توجها معا الى المأذون ، وعقد لهما ٠ وأعطاها صورة من العقد ، واخذ هو صورة فى جيبه ٠

أكان يحبها فعلا ؟ ٠٠ لماذا اذن أقدم على كل هذه الاجراءات ان لم يكن يحبها ؟

وركبا القطار الى الاسكندرية ليقضيا أياما من العسل حتى يصفح عنها والدها ٠

وعاشت معه أياما كأنها تعيش فى الجنة ٠

ولم يمض أسبوع ، وذات صباح فتحت الصحيفة وهى على مائدة الافطار ـ كما تفعل كل صباح ـ تطوف بعينيها على المكان الذى يمكن أن تجد فيه نداء من والدها يحثها على الرجوع اليه ونسيان ما بدر منها ٠

ولكنها بدلا من أن ترى النداء وجدت صورة والدها وتحتها نعيه ٠

مات المسكين ، لم يتحمل الصدمة ٠ قتلته ٠٠ هيأ لها الحياة فسلبته اياها ٠

وراحت تبكيه بحرقة ، وزين واقف أمامها فى شرود ٠

ولم تستطع أن تعود الى البيت ٠

كيف تقابل والدتها ؟ كيف تواجه الناس من حولها ؟ سيشيرون اليها بأصابعهم وان لم يكن فبعيونهم ٠

هاهى قاتلة أبيها ٠

لابد أن تبقى فى الاسكندرية حتى تهدأ الحالة ٠

وأسقط في يده ٠

ماذا يفعل ولم يبق معه من النقود مايكفيهما ٠

واتاه الفرج من حيث لا يحتسب ٠

أرسلت والدتها نداء في الجرائد الثلاث تناشدها العودة وقد صفحت عن جميع تصرفاتها ٠

وعادا ٠٠٠

وتكشف لها زين بكل صوره البشعة ترك والدتها تنفق عليهما من المعاش الضئيل الذي تركه لها والدها ٠٠ وعاد هو الى حياة اللهو والعبث مع الفتيات كما كان يفعل قبل الزواج ٠

وسألته بعد أن طفح بها الكيل ٠

– كيف يرضى على كرامته أن تنفق عليه وعلى زوجته امرأة لامورد لها الا القليل الذي تتقاضاه معاشا ٠

فأجابها في تبلد :

– انه حر فيما يفعل ، وانها تعيش مع امها ، فاذا لم تنفق عليها أمها عن طيب خاطر فمن تنتظر ينفق عليهـا وايراداته لم تصله للآن ؟

وتضرب كفا بكف ٠٠ وتحس بالعرق يتصبب على جبينها وهي تتذكر يوم أخبرته أنها حامل ٠

وصل الامر به أن ضربها حينما رفضت باصرار أن تذهب معه الى طبيب ليجهضها ٠

لايمكن أن تتخلص من وليدها ٠ ٠ كان الموت أهون عليها من أن تفكر في الخلاص من جنينها ٠

ان تفكيرها في الزواج كان للانجاب قبل أن يكون للحب ، لاأحد يدري كيف تعبد الاطفال ٠٠ ولا هو زين يستطيع أن يحس بحنينها ولهفتها على الاطفال ٠

ورفضت ٠٠ رفضت رغم فقدانه أعصابه ٠٠ فقد بدأ يلعنها ويلعن اليوم الشؤم الذي عرفها فيه ٠

ولم تتكلم ، تركته يخرج كل ما في جعبته ٠٠ ثم أدارت له ظهرها وخرجت من الحجرة ، وخرج هو الى الطريق ٠

ومنذ ذلك اليوم لم تقع عينها عليه ٠

ترك البلاد وسافر ٠٠

الى أين ؟ لاتدري لم يكن لديه عقار ، ولا أهل له ، ولا أقارب ، ولم تقف له على أثر ٠

كان الأثر الوحيد الذي تركه لها ورقة طلاقها ٠٠ وصلتها على يد شيخ الحارة في مساء اليوم نفسه ٠

وعاشت في حزن مقيم ، حزن على حياتها التي اضاعتها هدرا ، وحزن على والدها الذي قتلته برعونة تصرفاتها ٠

وولدت ابنتها ايمان نسخة مصغرة من أبيها ، طفلة آية في الروعة والجمال ٠

وعاشت لتربيها ، عاشت لها طوال العشر سنوات ، أنكرت نفسها تماما أوصدت قلبها وأغمضت عينيها عن كل متع الحياة ٠

أعادت حب والدها لها في حبها لايمان ، ولكن بدون تدليل ٠

كانت أمها تنظر اليها وتتعجب ٠٠ كيف تتحمل المدللة : الفقر والجوع ،



وحياة الذل كما لايتحملها الرجال ٠٠ واخيرا وبعد عشر سنوات من الذل والحاجة، فتح الله عليهم على صورة ارث آل لأمها بعد موت عمة لأمها عجوز عانس ٠

وبعد عشر سنوات أيضا عاد «زين» يطالب بضم ابنته اليه ٠

هذا الذى أراد أن يزهق روحها قبل أن ترى الحياة ، يأتى الآن ليأخذها صبية يانعة كالزهرة ٠

أين كان طوال هذه المدة ؟ ولماذا يطلبها الآن ؟ ما الذى ارتكبته فى حقه حتى عاملها هذه المعاملة ثم أخيرا يضن عليها بحضانة ابنتها ؟ أليست هذه الابنة هى التى لفظها بسببها ، أم انها تعلة اتخذها ليهرب من مسئولياته كلها !

انها لم تطالبه بشىء ، ولن تطالبه مدى الحياة ، فقط ليبتعد عنها ويترك لها وحيدتها ، أملها كله والنسمة التى تتنفسها وتحيا بها ٠

أو يريد أن يرجع اليها وهو يتعلل بايمان ٠

واستنكرت الحنين الذى يزحف الى قلبها بعد الذى اقترفه فى حقها ٠

لتقتلن نفسها ، لتزهق روحها ٠٠ قبل أن تفكر فى الصفح عنه ٠

ولكن كيف تثنيه عن أخذ ايمان ٠٠ كيف تثبت للمحكمة تصرفاته وسبب طلاقه لها ٠

وتهاوت على المقعد مرة ثانية .

ودخلت ايمان فى يد جدتها عائدة من المدرسة ، وارتمت على أمها تقبلها .. واحتضنتها صفاء فى يأس موجع .

اكتب عليهـــا أن تشرب المر حتى الثمـــالة ؟ ألم تكف السنوات العشر تكفيرا عمـــا ارتكبت .. يستطيع أن يسلبها حياتها أما ايمان فالسماء أقرب اليه من أن ينال شعرة من رأسها .

وهدتها أمها أن يقيما محاميا للدفاع عنها .

وراودتها نفسها على الصلح اكراما لايمان لكنها تراجعت ، تركت المحامى يسير فى اجراءاته ويعرض عليـــه أى شىء فى سبيل ترك ايمان لها .

وفى المساء أخبرها المحامى انه يريد خمسمائة جنيه مقابل أن يتخلى لها عن ابنته .

وصعقت . ابنته ؟ منذ متى عرف ان له ابنة ؟ ومن أين لى بهذا المبلغ ؟ .

ـ يقول المحامى :

ـ يقول من الميراث الذى آل لوالدتك، وسيكتب لك تنـــازلا كليـــا ولن ترى وجهه بعد الآن .

وهزت رأســـها فى أسى لاتستطيع حلاوة العالم كله أن تمحوه ، ولم تدر بماذا تجيب .. ومرة أخرى رنت فى أذنيها كلمة أمها التى ترددها على مسمعها دائما كلما رأت (حالها المائل)

ـ من يزرع الريح يحصد الزوابع .



من أقاصيص الأولين

اختيار وتقديم
الدكتور محمد أحمد خلف الله

- ١ -

حدث محمد بن الحارث بن بسخنر قال :

كانت لى نوبة فى خدمة الواثق فى كل جمعه ، اذا حضرت ركبت الى الدار ، فان نشط الى الشرب أقمت عنده ، وان لم ينشط انصرفت ٠

وكان رسمنا ألا يحضر أحد منا الا فى نوبته ٠ فانى لفى منزلى فى غير يوم نوبتى اذا رسل الخليفة قد هجموا على وقالوا لى :

احضر ٠

فقلت : ألخير ؟

قالوا : خير ٠

فقلت : ان هذا يوم لم يحضرنى فيه أمير المؤمنين قط ، ولعلكم غلطتم ٠

فقالوا : الله المستعان ، لاتطل وبادر ، فقد أمرنا ألا ندعك تستقر على الأرض ٠

فداخلنى فزع شديد ، وخفت أن يكون ساع قد سعى بى ، أو بلية قد حدثت فى رأى الخليفة على ، فتقدمت بما أردت وركبت حتى وافيت الدار ، فذهبت لأدخل على رسمى من حيث كنت أدخل ، فمنعت ، وأخذ بيدى الخدم فادخلونى وعدلوا بى الى ممرات لا أعرفها ، فزاد ذلك فى جزعى وغمى ٠ ثم لم يزل الخدم يسلموننى من خدم الى خدم حتى أفضيت الى دار مفروشة الصحن ، ملبسة الحيطان بالوشى المنسوج بالذهب، ثم أفضيت الى رواق أرضه وحيطانه ملبسة بمثل ذلك ، واذا الواثق فى صدره على سرير مرصع بالجوهر وعليه ثياب منسوجة بالذهب ، والى جانبه فريده جاريته ، عليها مثل ثيابه وفى حجرها عود ٠ فلما رآنى قال :

جودت ـ أسرعت ـ والله يا محمد الينا ٠

فقبلت الأرض ثم قلت :

يا أمير المؤمنين خيرا .

قال : خيرا ، أما ترانا ، طلبتوالله ثالثا يؤنسنا فلم أر أحق بذلك منك ، فبحياتي بادر فكل شيئا وبادر الينا .

فقلت : قد والله ياسيدى أكلت وشربت أيضا .

قال : فاجلس .

فجلست .

وقال : هاتو لمحمد رطلا فى قدح ، فأحضرت ذلك ، واندفعت فريده تغنى .

أهابك اجــلالا وما بك قـدرة
على ولـكن ملء عينى حبيبهـا
وما هجرتك النفس أنك عندها
قليل ولـكن قل منك نصيبها

فجاءت والله بالسحر ، وجعل الواثق يجاذبها ، وفى خلال ذلك تغنى الصوت بعد الصوت ، وأغنى أنا فى خلال غنائها ، فمر لنا أحسن ما مر لأحد . فأنا لكذلك اذ رفع رجله فضرب بها صدر فريده ضربة تدحرجت منها من أعلى السرير الى الأرض ، وتفتت عودها ، ومرت تعدو وتصيح . وبقيت أنا كالمنزوع الروح ، ولم أشك فى أن عينهوقعت على وقد نظرت اليها ونظرت الى .

أطرق ساعة الى الأرض متحيرا وأطرقت أتوقع ضرب العنـق . فانى لكذلك اذ قال لى :

يا محمد .

فوثبت .

فقال : ويحك أرأيت أغرب مما تهيأ علينا .

فقلت : يا سيدى ، الساعة والله تخرج روحى ، فعلى من أصابنا بالعين لعنة الله ، فما كان السبب ؟ ألذنب ؟

قال : لا والله ؟ ولكن فكرت أن جعفرا يعقد هذا المقعد ويقعد معها كما هى قاعدة معى ، فلم أطق الصبر وخامرنى ما أخرجنى الى ما رأيت .

فسرى عنى وقلت :

بل يقتل الله جعفرا ، ويحيا أمير المؤمنين أبدا . وقبلت الأرض وقلت :

يا سيدى الله الله ، ارحمها ، ومر بردها .

فقال لبعض الخدم الوقوف : من يجىء بها ؟

فلم يكن بأسرع من أن خرجت وفى يدها عودها وعليها غير الثياب التى كانت

عليها . فلما رآها جذبها وعانقها ، فبكت وجعل هو يبكى ، واندفعت أنا فى البكاء .

فقالت : ما ذنبى يا مولاى وياسيدى ؟ وبأى شىء استوجبت هذا ؟

فأعاد عليها ما قاله لى وهو يبكى وهى تبكى .

فقالت : سألتك بالله يا أمير المؤمنين الا ضربت عنقى الساعة وأرحتنى من الفكر فى هذا ، وأرحت قلبك من الهم بى ، وجعلت تبكى ويبكى ، ثم مسحا أعينهما ورجعت الى مكانها .

وأومأ الى خدم وقوف بشىء لا أعرفه ، فمضوا وأحضروا أكياسا فيها عين وورق ، ورزما فيها ثياب كثيرة ، وجاء خادم بدرج ففتحه وأخرج منه عقدا مارأيت قط مثل جوهر كان فيه . فألبسها اياه ، وأحضرت بدرة فيها عشرة آلاف درهم فجعلت بين يدى وخمسة تخوت فيها ثياب ، وعدنا الى أمرنا والى أحسن مما كنا . فلم نزل كذلك الى الليل ، ثم تفرقنا !

وضرب الدهر ضربه وتقلد المتوكل . فوالله انى لفى منزلى بعد يوم نوبتى اذ هجم على رسل الخليفة ، فما أمهلونى حتى ركبت وصرت الى الدار ، فادخلت والله الحجرة بعينها ، واذا المتوكل فى الموضع الذى كان فيه الواثق على السرير بعينه والى جانبه فريده . فلما رآنى قال :

ويحك ؟ أما ترى ما أنا فيه من عنم ؟ أنا منذ غدوه أطالبها بان تغنينى فتأبى ذلك .

فقلت لها : يا سبحان الله ! أتخالفين سيدك وسيدنا وسيد البشر ؟ بحياته غنى ؟

فعرفت والله ثم اندفعت تغنى .

فلا تبعـــد فكل فتى سيأتى ... عليه الموت يطرق أو يغادى

ثم ضربت بالعود الأرض ، ثم رمت بنفسها عن السرير ومرت تعدو وهى تصيح : واسيداه .

فقال لى . ويحك ؟ ما هذا ؟ .

فقلت : لا أدرى والله يا سيدى .

فقال : فما ترى ؟

فقلت : أرى أن أنصرف أنا وتحضر هذه ومعها غيرها ، فان الأمر يؤول الى مايريد أمير المؤمنين .

قال : فانصرف فى حفظ الله ؟

فانصرفت ولم أدر ما كانت القصة .

حدث أبو سفيان بن حرب قال :

كنا قوما تجارا ، وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حصرتنا حتى نهكت أموالنا • فلما كانت الهدنة ـ هدنة الحديبية ـ بيننا وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خرجت فى نفر من قريش الى الشام ، وكان وجه متجرنا منه غزة • فقدمناها حين ظهر هرقل على من كان بأرضه من الفرس ، فأخرجهم وانتزع منهم صليبه الأعظم وكانوا قد استلبوه اياه • فلما بلغه ذلك منهم وبلغه أن صليبه قد استنقذ منهم ، وكانت حمص منزله ، خرج منها يمشى على قدميه شكرا لله حين رد عليه مارد ليصلى فى بيت المقدس ، تبسط له البسط ، وتلقى عليها الرياحين •

فلما انتهى الى ايلياء فقضى فيها صلاته وكان معه بطارقته وأشراف الروم ،أصبح ذات غدوة مهموما يقلب طرفه فى السماء •

فقال له بطارقته : والله لكأنك أصبحت الغداة مهموما •

فقال : أجل ؟ رأيت البارحة أن ملك الختان ظاهر •

فقالوا : أيها الملك ، ما نعلم أمة تختتن الا اليهود ، وهم فى سلطانك وتحت يدك، فابعث الى كل من لك عليه سلطان فى بلادك فمره فليضرب أعناق من تحت يدك من يهود واسترح من هذا الهم •

فوالله انهم لفى ذلك من رأيهم يدبرونه اذ أتاه رسول صاحب بصرى برجل من العرب يقوده ـ وكانت الملوك تتهادى الأخبار بينهم ـ فقال :

أيها الملك ، ان هذا رجل من العرب من أهل الشاء والابل يحدث عن أمر حدث فاسأله •

فلما انتهى به رسول صاحب بصرى الى هرقل ، قال هرقل لمن جاء به :

سله عن هذا الحديث الذى كان ببلده ، فسأله ، فقال :

خرج بين أظهرنا رجل يزعم أنه نبى ، وقد اتبعه ناس فصدقوه وخالفه آخرون ، وقد كانت بينهم ملاحم فى مواطن كثيرة ، وتركتهم على ذلك •

فلما أخبره الخبر قال : جردوه فاذا هو مختون ، فقال :

هذا والله النبى الذى رأيت لا ما تقولون ، أعطوه ثيابه وينطلق •

ثم دعا صاحب شرطته فقال له :

اقلب الشام ظهرا لبطن حتى تأتينى برجل من قوم هذا الرجل •

قال أبو سفيان : فانا لبغزة اذ هجم علينا صاحب شرطته فقال :

أنتم قوم من الحجاز ؟

قلنا : نعم ·

قال : انطلقوا الى الملك ·

فانطلقوا بنا · فلما انتهينا اليه قال :

أنتم من رهط هذا الرجل الذى بالحجاز ؟

قلنا : نعم ·

قال : فأيكم أمس به رحما ·

قال : قلت أنا – قال أبو سفيان : وأيم الله ما رأيت رجلا أرى أنه أنكر من ذلك الأغلف – يعنى هرقل –

ثم قال : أدنه · فأقعدنى بين يديه وأقعد أصحابى خلفى ، وقال :

انى سأسأله ، فان كذب فردوا عليه ·

قال أبو سفيان : فوالله لقد علمت أن لو كذبت ما ردوا علي ، ولكنى كنت أمرأ سيدا أتبرم عن الكذب ، وعرفت أن أيسر ما فى ذلك ان أنا كذبته أن يحفظوه علي ثم يحدثوا به عنى ، فلم أكذبه ·

قال : أخبرنى عن هذا الرجل الذى خرج بين أظهركم يدعى ما يدعى ·

قال أبو سفيان : فجعلت أزهد له شأنه وأصغر له أموره ، وأقول له :

أيها الملك ، ما يهمك من شأنه ؟ ان أمره دون ما بلغك ، فجعل لا يلتفت الى ذلك منى ·

ثم قال : أنبئنى فيما أسألك عنه من شأنه ·

قال أبو سفيان : قلت سل عما بدا لك ·

قال : كيف نسبه فيكم ؟

قلت : محض ، هو أوسطنا نسبا ·

قال : أخبرنى هل كان أحد فى أهل بيته يقول ما يقول فهو يتشبه به ؟

قال أبو سفيان : قلت لا ·

قال : هل كان له فيكم ملك فسلبتموه اياه فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكه ؟

قال أبو سفيان : قلت لا ·

قال : أخبرنى عن أتباعه منكم من هم ؟

قال أبو سفيان : قلت الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان والنساء ، فأما ذوو الأسنان من الأشراف فلم يتبعه منهم أحد ·

قال : فأخبرنى عمن يتبعه أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه ؟

قال أبو سفيان : قلت : قلما يتبعه أحد فيفارقه ·

قال : فأخبرني كيف الحرب بينكم وبينه ؟

قال أبو سفيان : قلت : سجال يدال علينا وندال عليه ٠

قال : فأخبرني هل يغدر ؟

فلم أجد شيئا أغتمز فيه غيرها ٠ فقلت : لا ، ونحن منه في هدنة ولا نأمن غدره ٠

قال أبو سفيان : فوالله ما التفت اليها مني ٠ ثم كرر على الحديث فقال :

سألتك عن نسبه فيكم ، فزعمت أنه محض من أوسطكم نسبا ، فكذلك يأخذ الله النبي لا يأخذه الا من أوسط قومه نسبا ٠ وسألتك هل كان أحد من أهل بيته يقول مثل قوله فهو يتشبه به ، فزعمت أن لا ٠ وسألتك هل كان له ملك فيكم فسلبتموه اياه فجاء بهذا الحديث يطلب ملكه ، فزعمت أن لا ٠ وسألتك عن أتباعه ، فزعمت أنهم الضعفاء والأحداث والمساكين والنساء ، وكذلك أتباع الأنبياء في كل زمان ٠ وسألتك عمن يتبعه أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه ، فزعمت أنه لا يتبعه أحد فيفارقه ، فكذلك حلاوة الايمان لا تدخل قلب رجل فتخرج منه ٠ وسألتك عن الحرب بينكم وبينه فزعمت أنها سجال تدالون عليه ويدال عليكم ، وكذلك حرب الأنبياء ولهم تكون العاقبة ٠ وسألتك هل يغدر ، فزعمت أن لا ٠ فلئن كنت صدقتني عنه فليغلبن على ما تحت قدمي هاتين ، ولوددت أني عنده فأغسل قدميه ؟ انطلق لشأنك٠

قال أبو سفيان : فقمت من عنده وأنا أضرب باحدى يدي على الأخرى وأقول : يا لعباد الله ؟ أصبحت ملوك بني الأصفر يهابونه في ملكهم وسلطانهم ٠

- ٣ -

حدث أبو محمد بن النشار قال :

كان أبي صديقا للحسين بن الضحاك وكان يعاشره ، فحملني معه يوما اليه وجعل أبي يحادثه الى أن قال له :

يا أبا علي ، قد تاخرت أرزاقك وانقطعت موادك ونفقتك كثيرة ، كيف يمشي أمرك ؟

فقال له : بلى والله يا أخي ، ما قوام أمري الا ببقايا هبات الأمين محمد بن زبيدة وذخائره وهبات جارية له ــ لم يسمهــا ــ أغنتني للأبد لشيء ظريف جرى على غير تعمد ، وذلك أن الأمين دعاني يوما فقال لي :

يا حسين ، ان جليس الرجل عشيره وثقته وموضع سره وأمنه ، وان جاريتي فلانة أحسن الناس وجهـا وغناء ، وهي مني بمحـل نفسي ، وقد كدرت على صفوها ونغصت على النعمة فيها بعجبها بنفسها وتجنيها على وادلالها بما تعلم من حبي اياها ، واني محضرها ومحضر صاحبة لها ليست منها في شيء لتغنى معها.فاذا غنت وأومأت لك اليها ــ على أن أمرها أبين من أن يخفى عليك ــ فلا تستحسن الغناء ولا تشرب عليه

واذا غنت الأخرى فاشرب واطرب واستحسن واشقق ثيابك ، وعلى مكان كل ثوب مائة ثوب .

فقلت : السمع والطاعة .

فجلس فى حجرة الخلوة وأحضرنى وسقانى وخلع على ، وغنت المحسنة وقد أخذ الشراب منى ، فما تمالكت أن استحسنت وطربت وشربت ، فاوما الى وقطب فى وجهى . ثم غنت الأخرى فجعلت أتكلف ما أقوله وأفعله . ثم غنت المحسنة ثانية فأتت بما لم أسمع مثله قط حسنا ، فما ملكت نفسى أن صحت وشربت وطربت ، وهو ينظر الى ويعض شفتيه غيظا ، وقد زال عقلى فما أفكر فيه ، حتى فعلت ذلك مرارا ، وكلما ازداد شربى ذهب عقلى وزدت مما يكره ، فغضب منى فأمضنى وأمر بجر رجلى من بين يديه وصرفى ، فجررت وصرفت ، فأمر أن أحجب .

وجاءنى الناس يتوجعون لى ويسألون عن قصتى فأقول لهم :

حمل على النبيذ فأسأت أدبى ، فقومنى أمير المؤمنين بصرفى وعاقبنى بمنعى من الوصول اليه .

مضى لما أنا فيه شهر ، ثم جاءتنى البشارة أنه قد رضى عنى ، وأمر باحضارى، فحضرت وأنا خائف . فلما وصلت أعطانى الأمين يده فقبلتها ، وضحك الى وقام وقال اتبعنى .

دخل الى تلك الحجرة بعينها ولم يحضر غيرى ، وغنت المحسنة التى نالنى من أجلها ما نالنى فسكت .

فقال لى : قل ماشئت ولا تخف . فشربت واستحسنت .

ثم قال لى : يا حسين ، لقد خار الله لك بخلافى وجرى القدر بما تحب فيه . ان هذه الجارية عادت الى الحال التى أريد منها ورضيت كل أفعالها ، فاذكرتنى بك ، وسألتنى الرضا عنك والاختصاص لك . وقد فعلت ووصلتك بعشرة آلاف دينار ، ووصلتك هى بدون ذلك . والله لو كنت فعلت ما قلت لك حتى تعود الى هذه الحال ثم تحقد ذلك عليك فتسألنى ألا تصل الى لأجبتها .

فدعوت له ، وشــــكرته ، وحمدت الله على توفيقـه ، وزدت فى الاستحسان والسرور الى أن سكرت ، وانصرفت ، وقد حمل معى المال .

وما كان يمضى أسبوع الا وصلاتها وألطافها تصل الى من الجوهر والثياب والمال بغير علم الأمين ، وما جالسته مجلسا بعد ذلك الا سألته أن يصلنى . فكل شىء أنفقته بعده الى هذه الغاية فمن فضل مالها وما ذخرت من صلاتها .

قال ابن النشار : فقال له أبى : ما سمعت بأحسن من هذا الحديث ، ولا أعجب مما وفقه الله لك فيه .

الساعة الخامسة والعشرون

بقلم : فاروق خورشيد

قال تريان كوروغا لأبيه وصديقه اثر عودته من العاصمة الى منزل أسرته فى الريف :

- ان أشخاص روايتى القادمة سيكونون من الرجال الذين يعيشون على سطح الكرة الأرضية ! ولما كان هومير نفسه يعجز عن كتابة قصة أبطالها مليارات من الأشخاص ، فاننى بدورى لن آخذ الا عددا قليلا ، لا يتجاوز العشرة لأننى لن أحتاج الى أكثر من هذا العدد .. ومع ذلك فان هؤلاء العشرة سيحيون نفس الحوادث التى سيحياها الآخرون ..

وحين تبادل سامعوه أسئلة الحيرة والدهشة عن كيفية انتقاء هؤلاء العشرة قال تريان :

- لسوف أعنى فى ايراد حوادث لا يمكن للمخلوق البشرى أن ينجو من الوقوع فى مثلها ، ولن أكون فى حاجة الى شخصيات تقوم بدور البطولة أو تكون ذات أهمية معينة . بل سأترك للصدف أمر ابرازهم . وعلى ذلك فاننى سأنتقى من مليارين من البشر ، عشرة أعرفهم أكثر من سواهم ، أسرة كاملة : أسرتى مثلا ، أبى وأمى وأنا وأنت وخدم أبى ، وبعض الأصدقاء والجيران ..

وكان تريان يؤمن أن حدثا خطيرا قد وقع ، حقا انه يجهل أين انفجر ومتى بدأ ولكنه واثق أنه وقع وأنه سيدوم ويقول :

- اننى أشعر بهذا الحدث الهائل ، شعورا لا يضاهيه الا احساس الجرذان المسبق الذى يدعوهم الى هجر مركب على وشك الغرق . لن يكون لنا أى مأوى فى أى مكان من العالم .

انه خوف يملأ قلبه من ثورة بدأت بالفعل ، ولن يحس الناس بها تأخذ بخناقهم الا تدريجيا ، وحين يفيقون الى الخطر لن تكون هناك منجاة منه .. انها ثورة الرقيق الجديدة .. ثورة الرقيق الآلى الذى حل فى حياة البشرية محل الرقيق البشرى القديم .. فان الحياة اليوم تتحرك بجهد عشرات المليارات من الرقيق الفنيين أو الميكانيكيين ، فالبواخر اليوم لم تعد تسير بقوة عضلات العبيد الذين كانوا يسيرون السفن القديمة ، بل بقوة الرقيق الفنى . وعندما يحل الظلام فان الرجل الثرى لم يعد يضرب كفيه آمرا عبيده بالمجىء حاملين المشاعل كما كان يفعل سلفه فى روما وأثينا ، بل انه يدير زرا فيقوم الرقيق الفنى بانارة غرفته .. ويقول تريان شارحا رؤيته المخيفة :

ـ ان العبيد الفنيين يشكلون اليوم ، أكثرية عددية ساحقة في المجتمع الحاضر ، تلك حقيقة ملموسة ٠ انهم يتصرفون في هذا المجتمع ، وفق قوانين خاصة ، مختلفة عن قوانين البشر ٠ ولن أذكر من هذه القوانين الخاصة بالعبيد الفنيين الا : الآلية ، والمماثلة ، واغفال الذات ٠٠

ان هذه الرؤية الشعرية تبدو كالنبوءة المخيفة التى تلقى بظلها الثقيل فوق انفاس البشرية فهى تعنى أننا ـ نحن البشر ـ كاقلية عددية فى دنيا الآلة سنضطر كى تستمر الآلة على خدمتنا أن نتخلى عن انسانيتنا خطوة خطوة لنتعلم أسلوب حياة عبيدنا الميكانيكيين ٠٠ ويقول تريان كوروغا :

ـ ستكون دلالة التخلى عن الانسانية ، احتقار الكائن البشرى ٠ ان الرجل العصرى يعرف أنه وزملاءه من بنى الانسان ، ليسوا الا عبارة عن عناصر يمكن استبدالها ٠٠ والمجتمع الحديث الذى يحتوى على رجل واحد ، مقابل كل ثلاثين عبدا فنيا ، ينبغى أن ينظم وأن يعمل حسب النظم الفنية ٠ لأنه مجتمع خلق وبنى على احتياجات ميكانيكية وليست انسانية ٠ وهنا تبدأ الفاجعة ٠٠

ويوضح تريان هذه الرؤية الرهيبة قائلا :

ـ ان هذا التحول البطىء سيقلب الكائن الحى ، وسيجعله متخليا عن احساساته وعلاقاته الاجتماعية ويجعلها محصورة فى حدود ضيقة ، واضحة ، آلية تماما ، كتلك العلاقات التى تجمع بين قطعة آلة واخرى ٠ وسوف يقلد البشر فى علاقاتهم الاجتماعية، وفى الادارة ، وفنون النقش والرسم ، والأدب وفى الرقص ، الاسلوب واللغة الخاصين بالرقيق الآلى وستصبح المخلوقات البشرية ببغاوات ، تنقل رغبات العبيد الميكانيكيين، غير أن كل هذا ليس الا بداية الفاجعة ٠ من هذه البداية تبدأ كذلك روايتى ، وأقصد حياة أبى وأمى وحياتى وحياة الآخرين ٠٠

ان الفاجعة فى نبوءته سوف تنفجر من الصدام بين الطبيعة البشرية والآلة ٠٠ وقد بدأ هذا الصدام بالفعل فالبشر لا يمكن أن يتحولوا الى آلات ولكنهم سوف يخسرون المعركة التى لا بد أن يربحها الخدم الميكانيكيون الذين يشكلون الأغلبية الساحقة فى هذا العالم ٠

ويقول صديق تريان فى ذعر :

ـ ان تشاؤمك عنيف جدا ٠

فيقول تريان فى اندفاع :

ـ اننى شاعر يا جورج ٠ أملك شعورا يسمح لى بالتنبؤ بالمستقبل لا يملك الآخرون مثله ان الشاعر نبى ،اننى آسف اذاأتنبأ بأشياء مفجعة كهذه ٠ لكن مهمتى كشاعر ترغمنى على ذلك ٠ ينبغى أن أصرخ ، وأن أحمل الاصداء قولى حتى ولو كان قولا ممجوجا ٠ وتصبح الرؤية مجسمة ورهيبة حين يرسم تريان صورة الانسان فى هذا المجتمع :

ـ ان أى شىء يمكن أن يحدث للانسان ، طالما قد تحول الرجل الى نسبة ، ذات قيمة آلية اجتماعية ، انه بوصفه هذا يتعرض للاصابة بأى شىء ٠٠ يمكن أن يعتقل ، وأن يرسل للقيام بالاعمال الشاقة ، بل وأن يستأصل من جذوره ٠٠ فهو يمكن أن يرغم على مزاولة أعمال معينة سواء لتحسين العنصر أو لاهداف أخرى ضرورية للمجتمع الآلى ، دون أن ينظر الى شخص بعين الاعتبار ٠ ان المجتمع الآلى يعمل فقط بناء على نظم آلية تهدف الى مشاريع معينة وتعمل بوحى واحد : وهو الانتاج ٠٠

هذه هى الرواية التى يكتبها تريان ، رواية عذاب الانسان الرهيب والآلة تأكله لتسيره ، وتتحكم فيه ليكون دائما فى خدمتها وخدمة نظمها ٠٠ وحين يسأله صديقه عن عنوانها يقول :

ـ الساعة الخامسة والعشرون ٠ اللحظة التى تكون فيها كل محاولة للانقاذ عديمة الجدوى ، بل ان قيام مسيح فيها لن يجدى فتيلا ٠ انها ليست الساعة الأخيرة ، بل هى ساعة بعد الساعة الأخيرة ، ساعة المجتمع الغربى ، انها الساعة الحاضرة ٠٠

هذه هى الرواية التى كتبها جيور جيو الكاتب الرومانى الذى لم يعرفه العالم الا من خلال كتابه الفذ هذا ، واسمه الكامل كونستانتان ، فيرجيل ، جيور جيو ، وهو من مواليد رومانيا عام ١٩١٦ ، ودرس اللاهوت والفلسفة فى جامعتى بوخارست وهيدلبرج وفاز بالجائزة الملكية للشعر فى رومانيا عام ١٩٤٠ ٠٠ ثم كتب كتابه هذا واعتزل الحياة بعده فى دير متوحد بعيد ٠٠

وهذا الكتاب لم تظهر طبعته الأولى فى رومانيا بل صدرت فى فرنسا ، كما لم يظهر بلغته الأصلية بل ظهر فى ترجمة فرنسية ٠٠ ويقول الناشر « ان المؤلف لمس لأسباب جد بديهية استحالة نشر كتابه فى موطنه » ويقول جابرييل مارسيل فى مقدمة الطبعة بالفرنسية « أكاد أجزم ان جانب الاختلاق فى « الساعة الخامسة والعشرون » يكاد أن يكون مغفلا ٠ لست أريد أن أقول ان كل ما فى هذا الكتاب انما هو ترجمة وقائع شخصية دقيقة ، برغم أن المؤلف وزوجه عانيا شخصيا بعضا من من أقسى المحن المدرجة فيه ٠ لكن ماعمله السيد جيورجيو ، كان مقتصرا على جمع عناصر هذه القصة المبعثرة ، التى هى فى جوهرها أصدق ما يمكن قراءته وبالتالى أقل نفعا بالنسبة لمتشيع لا يخرج عن كونه متشيعا فحسب ٠ ولا يمكن لهذا الكتاب أن يستقل من جانب واحد من الاحزاب القائمة حاليا ، وهذا أثمن مايبدو فيه » ٠

والذى لا شك فيه أن عمل القصاص فى هذه الرواية ينبنى على كثير من الرصد الدقيق للصورة الرهيبة البشعة التى تحولت اليها قيمة الانسان فى أوروبا الوسطى ابان الحرب العالمية الثانية حيث حل الحقد والخوف والتشفى مكان الوشائج الطبيعية التى تربط الانسان بأخيه ٠٠ وحيث حل الاعتقال والموت والضياع محل الحرية والحياة والوجود ٠٠ وحيث حلت قيمة المعسكرات المتنازعة ومصلحتها وأمنها محل كل اعتبار لقيمة الانسان كانسان له حقه فى الوجود ، وله حقه فى الحماية ٠٠

وأبطال القصة كما وعد تريان هم هو ومن يعرف ٠٠ هو وزوجته وأبوه وخادمه ٠٠

هم أهل قريته الوادعة البسيطة التى تعيش وسـط ريف رومانيا بعيدة عن كل الشهوات التى تتنازع العالم وتدمره ٠٠ ولكن العالم يزحف اليها حيث هى ، يزحف اليها ليدمرها ويفنيها ٠٠ يزحف اليها ليجعل منها ومن الناس البسطاء فيها تروسا فى عجلة الوحش الدائر الذى يقضم كل يوم قيمة جديدة من قيم الانسان ليقتات عليها ويحيلها نفاية وبقايا ورمادا ٠٠

ايوهان موريتز المزارع الشاب الصغير الذى يعمل خادما فى كنيسـة الراعى كوروغا والد تريان يحب ٠٠ ولكن الحب هـذه الأيام لا يعيش الا فى الخفاء وسـط الحشائش العالية وخلف الاشجار الغليظة ، فاذا ما انكشف انقضـت عليه مفاهيم العصر تحطمه وتقضى عليه ٠٠ فأبو حبيبته آرى متعصب لا يرضى لابنته أن تتزوج رومانيا فلاحا ، والسوط لها ان أحبت ، والسوط لامها حتى تموت ان لم يجد الفتاة يشفى بتعذيبها غليله ويرضى ثورته العارمة ٠٠ فاذا ماماتت الام وساقه الشرطه لم يسأل سوى عن مصير خيوله ، فالخيل لا الانسان هو حلم رجل الحرب العتيد سليل الآريين ٠

وبين صليل القيود فى يد الأب وحفنات التراب تنهال فوق قبر الام ، وصيحات الاشمئزاز والاستنكار من الحماة السليطة تتزوج سوزانا من ايوهان موريتز ٠٠ ولكن السعادة لا تعرف طريقا الى العش الصغير فرئيس الشرطة فى القرية يطمع فيها وهى تصده ، والعصر يعطيه السلاح ليبعد الزوج عن طريقه الى الزوجة العنيدة فحين طلب منه السلطات اعتقال اليهود ليعملوا فى بناء سور يحمى رومانيا من الغزو يضع اسم ايوهان على رأس القائمة ٠٠ وذات صباح يغادر أيوهان القرية فى طريقه الى المعتقل الكبير وصيحات احتجاجه لا تجدى ومحاولاته العديدة فى أن يفهم سر اعتقاله لاتجد أذنا تصغى ٠٠

وفى معتقل اليهود ينكره كل من فى المعسكر فهو ليس مثلهم ، لا يعيش حياتهم ولا يتكلم لغتهم ولا يدين بدينهم ، ولا يحمل حقدهم الأسود الرهيب على رومانيا التى اعتقلته ظلما بينهم ٠٠ ويحاول هو أن يعلن أن ثمة خطأ قد حدث فهو مسيحى معمد وليس معقولا أن يسجن بادعاء أنه يهودى ٠٠ ولكن دعواه لاتجد من يسـتمع اليها فليس لدى الحراس وقت يضيعونه مع سجين يهذى ويكذب ويخلق لهم المشـاكل العويصة ٠

ولكن القس كوروغا الذى كان ايوهان خادما فى كنيسته لا يستطيع أن يسكت كما سكت الآخرون خوفا وجبنا فيمضى يطرق كل باب يحاول أن يدخل فى أذهان المسئولين وما أكثرهم أن ايوهان راح ضحية خطأ أو ضحية مؤامرة ٠٠ وكان فى البدء يعتقد أن الأمر سـهل فهو قسيس القرية وهو الذى عمد أيوهان بيديه ٠٠ ولكنه سرعان ما بدأ يدرك أن الأمر ليس كما كان يتصور ٠٠ عشرات الموظفين ، وعشرات المسئولين كل يحيله الى الآخر ٠٠ وعشرات الساعات تروح وهو فى انتظار أمام باب مغلق ، لينتهى منه الى الوقوف أمام باب آخر مغلق يحرسه السعاة والجنود ٠٠وانتهى به المطاف عند المحافظ الذى كان صريحا وواضحا ٠٠ لامكان لمشكلة ايوهان وسـط

عديد المشاكل التى تواجهها الدولة وهى فى حالة حرب ‥ ويخطى منقلة يسير القسيس عبر المدينة ليقف أمام كنيسة عند مدخلها ، ويركع على قدميه ليهمس صلاته المريرة :

« لنصل الآن ، من أجل أولئك الذين يمتلكون جزءا حقيرا من السلطة ، لنصل من أجل كل أولئك الذين علينا أن نحتمل بينهم ظلم الدولة وعذابها ، من أجل أولئك الذين يحققون ثم يعيدون التحقيق للتأكد من صحته ، من أجل أولئك الذين يعطون الصلاحيات ويشرعون الممنوعات ، لنبتهل ألا يؤمنوا بالحرف والرقم ، فيعتبروهما أكثر حقيقة وأشد حياة من اللحم والدم ‥ »

ولكن ايوهان يبقى فى معسكر اليهود يبنى سورا لا يعرف مداه ولا نهايته ويحفر الطريق ويرفع الأتربة ويتحمل اهانات اليهود وسخرية الحرس ‥ ولكن الصدف تدفعه فى طريق مجموعة من اليهود تستعد للهرب من المعسكر برشوة سخية يقدمونها للحارس ويحتاجون الى من يحمل لهم الأمتعة فى طريق هربهم الشاق الى بلغاريا ‥ ويقع أيوهان فريسة اغراءاتهم له بالحرية والعمل والسعادة فى الأرض الجديدة فيرافقهم فى الطريق يحمل لهم الأمتعة وهم السادة وهو الخادم الفلاح المسيحى الذى يسير وراءهم كالكلب يتبع سادته ‥ وفى بلغاريا يتخلى عنه أصحابه اليهود ويفرون الى أمريكا أما هو فيقع من جديد فى يد سلطات بلغاريا بصفته جاسوسا رومانيا متسللا ، وفى المعتقل الجديد يلقى أهوال عذاب رهيب لينتزع منه المحققون أسماء من تسللوا معه الى بلغاريا وحقيقة مهمتهم فيها ‥ وهو لا يعرف الا أن جسده يحترق وأن جلده يتمزق وأن الألم رهيب وأن الصراخ لا يجدى والحقيقة لا قيمة لها ‥ وتظهر خادمة صغيرة كانت تعمل عند أقارب هؤلاء اليهود الهاربين لتؤيد قصته وتؤكد أنه ضحية وأنه لا يعرف من كل ما يريدون شيئا ‥ ويفرج عن أيوهان ليوضع من جديد فى معتقل آخر تمهيدا للبت فى أمره ‥

وبلغاريا حليفة لألمانيا وهى لا تملك الا أن تكون حليفة بدلا من الاحتلال السافر الرهيب ، وحين تطلب ألمانيا من حليفتها خمسين ألف عامل ليعملوا فى مصانعها يقع مجلس وزرائها فى اشكال رهيب ‥ فهو ان وافق تحمل مسئولية تسليم المواطنين للرق الألمانى ، وهو ان رفض عرض البلاد كلها لانتقام بشع وأسلم كل البلغاريين للرق الألمانى ‥ ويأتى الحل العبقرى الذى ينفذ للألمان ما يشاءون دون مساس بحرية أهل بلغاريا أنفسهم ‥ لقد قرر مجلس الوزراء أن يرحل الى ألمانيا كل الأجانب المعتقلين فى الأرض البلغارية باعتبارهم من البلغار ، ولن يهم الألمان سوى الخمسين ألفا من الايدى العاملة ‥ ويقول الكونت بارتولى رئيس الصحافة البلغارية لابنه لوسيان :

ـ ألا تشعر ياولدى بامتهان عند ما تعرف أن أباك قد ساهم اليوم فى عقد صفقة بيع أحياء آدميين ؟ ان هذا النوع من التجارة هو آخر مرحلة على سلم الانحطاط الخلقى ‥

ويقول لوسيان :

ـ ينبغى ألا تنظر الى الأمور من هذه الزاوية المؤسيه • ان العمال الموفدين الى المانيا لن يكونوا مغلولى الأيدى • انهم يذهبون الى هناك كعمال ••

ويقول الكونت فى مرارة :

ـ لن يغلوا فى الحديد لأنهم لن يستطيعوا فرارا • ان المجتمع المعاصر يملك من الوسائل للاحتفاظ بالرقيق مالم يملكه اليونان من قبل • اننى لا أفكر فقط فى المدافع الرشاشة وحواجز الأسلاك الشائكة التى يمر بها تيار كهربائى صاعق •• بل أفكر كذلك فى الأساليب التعسفية للآلية التى يعمد اليها النظام البيروقراطى للرقابة على الكائن الحى • وأقصد بطاقات الاعاشة وأذون رجال الشرطة للحصول على سرير فى الفندق أو ركوب الأوتوبيس أو التنزه فى الشارع أو ابدال المسكن • ان اليونان والمصريين ما كانوا ليكبلوا أيدى عبيدهم وأرجلهم بالحديد لو كانت لديهم الوسائل التى لمجتمعنا المتدين • غير أن الرقيق لم يتبدل ••

ويرفض لوسيان أن يقتنع بكلام أبيه فاجراء مجلس الوزراء يرضيه ، بل هو عنده اجراء بارع ، ومصير المعتقلين لايشغل باله على الاطلاق •• فيقول الكونت :

ـ ان هذا أشد خطورة لأن معناه أنك لا تملك ذرة من الاحترام للكائن البشرى • ولما كنت بشرا كذلك فان معناه أنك فقدت كل احترام لنفسك ••

ولكن الأمر قد تقرر وايوهان موريتز يرحل الى المانيا بصفته عاملا بلغاريا ، واحدا من خمسين ألف عامل يشكلون بعثة الصداقة بين عمال بلغاريا وألمانيا الحليفة ويحشد مع غيره فى قطار طويل يسير ليلا ويقف عند النهار •• وما أن يصل حتى يحاط بالورود وتنشد حوله الأناشيد ويسلم ايوهان الى سيده الجديد ••

وسيد ايوهان الجديد هو الآلة سافرة بغير حجب هذه المرة •• انها الآلة التى عليه أن يعمل أمامها فى المصنع الالمانى الذى أرسل اليه •• ويقول له الموظف الألمانى الذى كلف بارشاده الى العمل :

ـ ان الانسان الآلى لا يمكنه أن ينطبع برغبة الانسان ، فعليك اذن أن تساير رغباته وتوازن حركاتك مع حركاته •• ان هذا طبيعى جدا ، لأنه هو العامل الكامل•• أما أنت فانك لست كاملا • لا يستطيع الانسان ، أى انسان أن يكون عاملا كاملا ، أما الآلات فانها وحدها تستطيع أن تكون كذلك ، ينبغى أن تمعن النظر فيها لتتعلم كيفية العمل • هل فهمت ؟ ان الآلات تعلمك الترتيب والنظام والكمال • فاذا حاكيتها غدوت عاملا من الدرجة الأولى • لكنك لن تستطيع أن تكون عاملا من الدرجة الأولى لانك بلغارى ، والبلغاريون فى المصانع ينظرون الى النساء وليس الى الآلات •

ويدور ايوهان مع الآلة ويدور ، ويسقط صريعا فيذهب الى المستشفى ثم يعود أمام الآلة •• تأتى له بالصندوق ليرفعه الى مكانه تحمله آلة أخرى الى العربات ، كل ساعات نهاره تضبط حركته الآلة ، وحين يتحرك به الخيال حول هذه الصناديق

المغلقة يختل النظام وتثور عليه الآلات ويخطىء ويعاقب ٠٠ ومن يومها يرفض حتى التفكير ، انه مع الآلة وأمام الآلة وجودا وفكرا وخيالا وأنفاسا ٠٠

ولكن العمل فى المصنع رغم خضوعه للنظام لا يأتى بالنتائج المرجوة والتى قررت الارقام من قبل أنها لابد أن تتحقق ، ويقرر الأطباء أن السبب هو بعد الرجال فى المصنع عن النساء ٠٠ وذات مساء تحمل عربات لورى متعددة نساء كثيرات الى العنابر التى ينام فيها الرجال ليعود الانتاج محققا الارقام المقدرة من قبل ٠٠ ويهرب ايوهان من عنابر النوم الى هواء الليل يضرب وجهه المتضرم الثائر ، ويهمس صوت جاره الفرنسى فى الوقوف أمام الآلة قائلا :

ـ انهن بولونيات من معسكرات الاعتقال٠ان المعتقلات فى ذلك المعسكر يستعدن حريتهن اذا زاولن هذا العمل مدة ستة شهور ٠٠ غير أنهن خلال هذه الفترة يتهدمن تهديما ٠٠ انهن لا يغادرن معسكرات الاعتقال الا الى المستشفى أو المشرحة ٠٠ انهن لسن محترفات ٠٠ بل هن رقيق مثلنا يبذلن مجهودا يائسا لنيل حريتهن ، انهن رقيق يحاول تحطيم أغلاله بيديه وحدهما دون الاستعانة بأية أداة أخرى ، انهن يمزقن أجسادهن وهن يحاولن تحطيم سلاسلهن وأغلالهن ٠ انه عمل ينطوى على بطولة ، ولكن للأسف ان أغلال العبودية أقوى من الجسد البشرى ٠٠

وفى الصباح هرب جاره الفرنسى ٠٠٠

ولكن عذاب ايوهان فى المصنع لا يطول ، اذ يكتشف فيه أحد علماء الجنس الآرى المهووسين صورة كاملة لنموذج الرجل الآرى فيصدر أوامره بان يكرم وأن يلحق بالجيش النازى وأن يعتنى به بصفته من (العائلة الشجاعة) أشد قبائل المحاربين الجرمان بأسا منذ أول التاريخ ٠٠

وهكذا ، ويأمر الهر « موالر » غدا ايوهان موريتز آريا وجنديا ألمانيا تقدم له ألمانيا المسكن والزوجة والولد والمكان المرموق ، فهو الآن جندى يحمل بندقية ويحرس السجناء اذ لا تحتمل بنيته التى هدتها المعسكرات والعذاب أى عمل عسكرى آخر يتيح له أن يلبس البدلة العسكرية التى يريده الهرمولر أن يرتديها ٠٠

وتتيح له سترته الجديدة أن يلتقى بصديقه الفرنسى الذى فر من المعسكر والمصنع ، ويغريه أن يساعده هو وزملاء له على الهرب فماذا له فى ألمانيا ، وألمانيا عدوته وعدوة بلاده ، والحرية عند الدول الحليفة التى تدافع عن الانسان ٠٠ ويصدق ايوهان فيهرب مع أسراه الى معسكر الدول الحليفة وهناك يقابل مقابلة الأبطال ، ألم يضح بزوجته وولده ومكانه الجديد فى المجتمع النازى وساعد خمسة من المعتقلين الفرنسيين على الفرار ، انه بطل يستحق التكريم والشيكولاتة ، واللبان والسجائر الأمريكية ومكانا فى معسكر (الشرف) وكان ايوهان يحس أنه يحلم وأن الحياة قد أصبحت لينة وأن الخلاص قريب ٠٠ وذات صباح يستدعيه قائد المعسكر فجأة ليبلغه أنه منذ الغد لا مكان له فيه فان معسكر (الشرف) لا يأوى الا رعايا الدول الحليفة ، أما هو فهو عدو للأمم المتحدة ٠٠ ويقول ايوهان فى يأس واحتجاج :

ـ لكننى لم أرتكب شيئا ضد الامم المتحدة ، أقسم لك ياسيدى المدير أننى لم اسيء مطلقا الى الحلفاء ٠

فسأله المدير بصوت قاس :

ـ ألست رومانيا ، ان الرومانيين أعداء الامم المتحدة ، وأنت رومانى واذن فانك تكون عدوا لنا بصورة آلية ٠٠

وهكذا عاد ايوهان من جديد الى المعتقل بصفته رومانيا لأول مرة ، بعد أن دخله بصفته يهوديا وبلغاريا وآريا ٠٠ تتقاذفه جنسية لتسلمه الى جنسية ، وبتقاذفه وطن ليسلمه الى وطن ، وهو حائر طائع تأكله الآلة المخيفة التى اسمها الجماعة والتى اسمها الدولة والتى اسمها النظام ٠٠

وايوهان ليس وحده بطل هذه الرواية الرهيبة ٠٠ ان القس كوروغا له دوره أيضا ، وتريان ولده الكاتب المشهور الذى حاول أن يدافع عن قضية ايوهان أول الأمر ولكنه سرعان ماشغل بقضيته هو اذ كان متزوجا من يهودية ٠٠ فيهرب معها خوف اضطهاد النازى ليلتحقا بالمنطقة الامريكية التى كانت تبدو لهما ملاذا أمينا ٠ ولكن الحاكم الامريكى لم يكن يعرف الا اللوائح وهما يحملان جوازى سفر رومانى ، ورومانيا فى معسكر الاعداء ، اذن لا مكان لهما الا المعتقل ٠٠ ويقول تريان لزوجته وهو فى السجن :

ـ انهم لن يشعروا أبدا بوجودنا ٠٠ ان الحضارة الغربية فى مرحلتنا التقدمية الأخيرة لم تعد تأبه للفرد ٠ ولا شيء يدعونا الى الأمل انها ستأبه له يوما ٠ ان هذا المجتمع لا يعرف الا بعضا من المقاييس الفردية ٠ أما المخلوق الكامل بصفته الشخصية فانه لا وجود له فى نظره ٠٠ أنت مثلا لست الا مواطنه عدوه اعتقلت فى أرض ألمانية ، هذا هو أقصى ما يمكن للمجتمع الغربى الرسمى أن يتخيله عنك ٠٠ ان هذا المجتمع عندما يعتقل أو يقتل أحدا ، لا يعتقل أو يقتل شيئا حيا ، بل فكرة ، رمزا ٠٠ وفى المنطق الصحيح لا يمكن أن تعزى اليه هذه الجريمة ٠ لأن أية آلة لا يمكن اتهامها بارتكاب جريمة ، ولا يمكن لأحد أن يطالب آلة بمعاملة الانسان حسب ميزاته الشخصية ٠٠ كل ما أعرفه هو أن اخضاع الانسان للقوانين والمقاييس الاصطلاحية ، وهى مقاييس ممتازة فيما يتعلق بالآلات ، انما يعادل جريمة قتل ٠ ان انسانا يضطر الى الحياة بالشروط وفى الوسط الذى تحيا فيه الأسماك يموت خلال دقائق ٠ والعكس صحيح ٠٠ لقد خلق الغرب مجتمعا مشابها للآلة ٠ انه يرغم بنى الانسان على العيش فى صميم هذا المجتمع ويضطره الى الانسجام مع قوانين الآلة ٠٠ ومتى بلغ بنو البشر فى تشبههم مبلغ الآلات حتى يماثلوها ، فعندئذ لن يبقى بشر فوق سطح الأرض ٠٠

ان القرية الوادعة التى خرج منها ايوهان تنتهى هى الأخرى نهاية فاجعة اذ يدخلها يهودى شيوعى ملأ الاعتقال قلبه بالحقد فمضى يقتل كل من يملك خردلة ، وكل من يحمل صليبا وكل من أهان أهله وذويه من قبل اذ كانوا يعيشون وسط الناس الذين يدير فيهم الذبح منذ أجيال ٠٠

والروس يدخلون القرية وزوجة ايوهان تستباح مع غيرها من نســاء القرية والحرب الضروس الرهيبة تدور والطحن يقتل في نفس كل بشرى كل أمل ، كل عزاء، كل سلوى ٠٠ كل انسانية ٠٠

ثم يدخل الأمريكان باللبان والسجائر والثمن لكل عرض والحماسة الجوفاء لقضية موهومة اسمها قضية الغرب ٠٠

ويموت تريان عامدا وهو يسير بعينين مفتوحتين نحو الأسلاك الشائكة التى يقف عندها الحرس شاكى السلاح ٠٠ يموت عامدا دون معنى ودون شىء ، فقد أدرك أن الانســان فقد كل معنى وكل شىء ولكن كلماته اليائسة تتخللها نبرة أمل واحدة انه يقول :

« ان الرجل سيصبح مغلولا خلال سنين طويلة فى المجتمع الآلى ولكنه لن يموت فى الأغلال ٠٠ ان المجتمع الآلى يســتطيع ابتداع رفاهية ولكنه لا يســتطيع خلق الفكر ٠٠ وبدون الفكر ، لا توجد العبقرية ، وان مجتمعا محروما من الرجال العباقرة مقضى عليه بالفناء ٠ ان المجتمع الآلى الذى يحل محل المجتمع الغربى والذى سيكتسح سطح الأرض كله ، سيفنى هو الآخر ، وان انهيار هذا المجتمع الآلى سيعقبه اعتراف بالموهبات الانسانية والعقلية ، وسيشرق هذا النور العظيم من الشرق ولا شك ، ولكن ليس من روسيا ٠ ان الروس قد انحنوا خاضعين أمام نور الغرب الكهربائى ، فلن يبلغوا تلك المرحلة ٠٠

سيكتسح رجل الشرق المجتمع الآلى وسيستعمل النور الكهربائى لانارة الشوارع والبيوت ولكن لن يبلغ به مرتبة الرقيق ، ولن يرفع له معابد وصوامع كما هو الحال اليوم ، فى بربرية المجتمع الآلى الغـربى ، انه لن يضىء بنـور النيون خطوط الفـكر والقلب ٠ ان رجل الشرق سيجعل من نفسه سيدا للآلات وللمجتمع الآلى ، مستعينا بعقله ومستعينا بقلبه ٠٠ »

انني أقول مثل قول جابرييل مارسيل : لست أغفر لنفسى لو مسخت القصة الخارقة التى كتبها جيورجيو ٠٠ ولكنى أحببت جاهدا أن أضع يدك على بعض نبض هذا العمل الخارق العظيم ٠٠ ودعنا نأمل أن نرى من الشرق هذا البصيص الذى يحلم به أحد أبطاله الذى مات عند أطراف الأسلاك الشائكة تحجب انسانيته ويريد أن يخترقها وهو يعلم أن اختراقها ممنوع ٠٠

الغريب !

للكاتب العالمى ستيفان زفايج

ترجمة : فاروق يوسف اسكندر

حينما دخل ضباط الشرطة البرازيلية ــ ذات يوم من سنة ١٩٤٢ ــ منزلا فى بتروبوليس ، المشارفة لريودى جانيرو ، راعهم أن يروا جثتى الكاتب النمساوى اللامع ستيفان زفايج وزوجته ، وكان على مائدة هناك فى الشقة كوبان يفوح منهما رائحة ضعيفة خلفها السم الذى انتحرا به ، وخطاب ضمنه زفايج شكر الشعب البرازيلى على ما لقيه منهم من كرم ، ثم تسجيل فى تقرير حزين لبعض الأسباب التى دعته وزوجه الى أيثار الرحيل عن الدنيا : « لقد رأيت بلدى ــ موطن لغتى ــ تندحر بينما ــ أوربا ــ موطنى الروحى .. تدمر نفسها بنفسها» .

وواضح أن ستيفان زفايج كان ضحية الحرب ، لايرى فى الايام السوداء بارقة أمل فى هزيمة النازيين وعودة السلام المثمر للعالم ، ومنذ شباب زفايج المبكر كان يجاهر بخصومته للحرب وفظائعها ، كان رجلا حساسا ، شفوقا ، وفى هذا ما يكفى لايضاح مقته لتخريب الحروب ، ولكن زفايج أيضا كان من رجال الادب الاوربيين رأى أصوله الثقافية تنتمى الى الثقافة الاوربية جميعها ــ فقد أسمى أوربا وطنه

الروحى – ولذلك لم يكن ليصدق أن هناك فوارق قاطعة فاصلة بين شعوب أوربا تجعلهم يتحرش الواحد منهم بالآخر .

وخلال السنوات التى تلت الحرب العالمية الاولى بان لزفايج أن أوربا تتأهب ثانية لحرب تدمر أكثر مما قد دمرت قبل ، ومثل كثيرين غيره من الكتاب والفنانين الأوربيين ، نفى زفايج نفسه من القارة ، وراقب كيف أن بلده النمسا توطأ بأقدام النازى الألمانى ، وكيف ينتشر الحرب بين بلدان أوربا الواحدة تلو الاخرى فيغمرها ، ولبث حينا فى انجلترا ، وبعد قليل من اندلاع الحرب العالمية الثانية ، قصد البرازيل وفى الحقيقة انها سخرية مرة – لدى الاوربى المثقف – أن أوربا التى أدركت من الثقافة أرقى ماوعته ذاكرة انسان ، فرض عليها أيضا أن تقاسى طويل زمن من أهوال وبلايا الحرب أكثر مما قاسته بقعة من بقاع المعمورة . لقد خدمت العبقريات الاوربية العظيمة – حينا – غايات الهدم أكثر مما خدمت غايات البناء ، وخدمت غايات التدمير والعذاب الانسانى أكثر مما خدمت الفن والتجارة ، ومهما يكن من معنى لهذا التناقض فانه بين أن شعوب أوربا قد عاشت غالبا – وليس باختيارها أبدا دون مأساة أو حزن – حياة الحرب .

أن الشعوب تدرك فى ألم وقوة مدى تأثيرات الحرب على عقائدها وعواطفها الشخصية وخبرات الشعوب تلك فى الحرب قد خبرها غالبا الكتاب الغربيون الذين عبروا عنها فى أدبهم .

وفى قصة ستيفان زفايج التى تلى ، يقص المؤلف خبرة محزنة لرجل بسيط أسر فى أعصار الحرب العالمية الاولى المفجع ، وبطل القصة – ولو انه ساذج وأبكم – غير أن القارىء يستطيع أن يدرك العواطف التى حركته فى مجاهدته غير المثمرة لحرب لا يريدها ولا يستطيع منها فكاكا .

المترجم

ذات ليلة من صيف سنة ١٩١٨ لمح صياد فى قاربه ببحيرة جنيفا ـ غير بعيد من المدينة الصغيرة (سويس) فى فيلناف ـ شيئا غير عادى على سطح الماء • وحينما قرب منه رآه طوفا من كتل خشبية قد جمع بعضها الى بعض بلا تهذيب ، وفوقها رجل عار يحاول فى غير معرفة أن يجدف الى امام بواسطة لوح خشبى•كان المجدف منهوكا يرتجف من البرد،فأشفق عليه الصياد،وأعان هذا المرتعش ، مسافر البحر فجذبه الى قاربه وغطاه ببعض شباكه ، وتلك كانت كل ما لديه من وسائل الغطاء • ثم حاول أن يفاتحه فى الحديث • ولكن الغريب المنقذ ـ وقد ربض فى قاع القارب ـ أجاب بلسان لم يستطع الصياد أن يفهم منه حرفا • فأضرب الصياد صفحا عن محاولته الحديث ، وجذب شبكته التى جاء ليعالجها ثم جدف بضربات ثابتة ووجهته الشاطىء • وحينما بدت معالم الشاطىء تتضح مع ضوء الفجر المتجمع، أخذ الرجل العريان يبدو أكثر ابتهاجا• وتراقصت ابتسامة على الفم الكبير الذى كمن نصفه تحت شارب غزير غير مشذب ولحية • وأخذ يصيح مرارا وهو يشير تجاه الشاطىء ـ بين المتسائل والمتهلل ـ بلفظة جرسها مثل (روسيا) وعلت نغمة ثقته وكثر فرحه بينما القارب يقترب شيئا فشيئا نحو الأرض • وفى النهاية رسا القارب على الشاطىء •

وجرت جماعة النسوة العاملات لدى الصياد للمعاونة فى انزال صيد الليل الى الارض ثم ما لبثن أن تفرقن وهن يصحن مفزوعات ، ومثلهن مثل عذارى فوسيكا قديما حينما أبصرن اليسس العريان ، ولدى انتشار الاخبار العجيبة التى أتى بها الصياد من البحيرة ،تقاطر رجال القرية عند الشاطىء ، ومن بينهم عمدة القرية ، واستدعى حضور هذا الشخص الخطير ذى الاعتبار ، الملىء بمقام وظيفته ، الى الذهن جميع التنظيمات التى صدرت عن مراكز قيادة الجيش خلال السنوات الاربع الاولى من الحرب واذ اعتقد العمدة أن هذا القادم الجديد ينبغى أن يكون هاربا من الشاطىء الفرنسى للبحيرة ، حاول على الفور أن يبدأ معه استجوابا رسميا ، ولكنه مالبث سريعا أن أخفق بسبب عقبة عويصة وهى أن أحدهما لايفهم عن الآخر • ولم يجب الغريب ـ وهو يلبس سروالا ومعطفا جاء بهما له أحد القرويين ـ باجابة ما اكثر من تساؤل : روسيا ؟ روسيا ؟ ملفوظة فى توسل ، بل تغلب عليها نغمات متهدجة ، أوسع العمدة ـ وقد تضايق شيئا ما ـ خطاه تجاه دار العمودية مشيرا ـ فى حركة آمرة ـ الى اللاجىء أن يتبعه • وبين ثرثرة الصغار الذين تجمهروا الآن أنفذ الرجل الحافى ـ تتهدل عليه الثياب المستعارة ـ ما أمر به • وهكذا جاء الى دار العمودية حيث وضع فى مكان آمن •

لم يبد اعتراضا ، ولم ينطق بكلمة ، ولكن وجهه كساه الحزن • وقد طاطأ من رأسه هايبا كما لو كان متوقعا للطمة • وسرعان ما تسربت أخبار الصيد العجيب ـ الذى جاء به الصياد ـ الى الفنادق المجاورة •• سر ذوو اليسار من الزوار اذ سمعوا بشىء سيعينهم على انفاق ساعة •• فتوافدوا فى اعداد كبيرة ليتفقدوا الرجل المتوحش ! قدمت امرأة اليه بعض الحلوى ، ولكنه كالنسناس المرتاب رفض أن يقربها • والتقط زائر بآلة تصويره صورة خاطفة ، وأخذ الجمع المتجمهر حول ـ الرجل الغريب ـ يتحدث فى مرح •

وفى النهاية ظهر على المسرح مدير أحد الفنادق الكبرى المجاورة ، وهو رجل قد عاش فى بلاد كثيرة ، وكان يجيد عدة لغات • واختبر الغريب الذى صار الآن مرتبكا هلعا ، بلغة بعد أخرى الالمانية ، والايطالية ، وأخيرا بالروسية

ولدى اللفظة الاولى من الروسية بدا الزميل البائس وقد شد عزمه فجأة ، وأشرقت طلعته البسيطة الطيبة عن ابتسامة عريضة •

وعلى الفور ، وبهيئة الواثق ، ابتدأ يسرد حكايته • كانت طويلة ومشوشة ولم تكن جوانبها كلها واضحة لدى المترجم الذى ساقته الصدفة ، ولكن القصة تجرى أساسا كما يلى :

« أنه قد حارب فى روسيا • ويوما ما جمع هو وآلاف آخرون فى عربات السكة الحديد ، وقطعوا مسافات شاسعة بالقطار ، ثم ركب الجميع بعد سفينة قامت برحلة أطول عبرت فيها بحارا شديدة الحرارة حتى أن عظامه قد شويت - حسب وصفه هو - وأخيرا نزلوا الى البر لرحلة أخرى بالقطار ، وعقب مغادرتهم القطار بعث بهم على الفور لاقتحام جبل • وعن هذه الحرب فانه لم يستطع الا ذكر القليل ، لانه ما أن بدأت الواقعة حتى أصيب برصاصة فى قدمه •• » •

وكان من الواضح بعامة لسامعى القصة عند ترجمة مدير الفندق لها - جملة بعد جملة - أن هذا اللاجىء ينتمى الى احدى الفرق العسكرية الروسية المرسلة عبر سيبيريا ، والمسافرة بحرا الى فرنسا من فلاديفوستك • وامتزج حب الاستطلاع بالشفقة ، حتى أراد كل واحد أن يعرف ما الذى حدا بالرجل أن يبدأ رحلته العجيبة التى قادته الى البحيرة • وبابتسامة صريحة لاتخلو من مكر ، أوضح الروسى أنه حين كان يعالج من جراحه فى المستشفى سأل : أين توجد روسيا ؟ فعينت له جهة وطنه عموما • وحالما صار قادرا على المشى هرب ، واسترشد فى طريقه لجهة موطنه بالشمس والنجوم • وسار بالليل ، وبالنهار •• كان يختفى من أكوام الدريس ليروغ من الدوريات العسكرية وعن الطعام فانه كان يجمع الفاكهة ، أو يتسول رغيف خبز من هنا أو هناك• وفى النهاية بعد سير عشر ليال أدرك هذه البحيرة •

والآن صارت روايته أكثر اضطرابا، لقد كان فلاحا من سيبيريا ، يجاور موطنه بحيرة بايكال • فرأى أنه يستطيع العبور الى الشاطىء الآخر من بحيرة جنيفا الذى تصور أنه ينبغى أن يكون (روسيا) • لقد سرق لوحين من أحد الاكواخ ، واتخذ سمته عليهما الى أسفل مستخدما لوحا كمجداف وسالكا طريقه بعيدا خلال البحيرة • وهناك عثر به الصياد • وأنهى قصته بالسؤال المشوق :

- هل يمكننى غدا الوصول الى وطنى؟

أثارت ترجمة هذا السؤال عاصفة من الضحك لدى أولئك الذين كان أول ماتبادر الى ذهنهم عنه أنه مسكين أبله •• ولكن فكرتهم الثانية لونتها الشفقة عليه ، فساهم كل بقليل جمعوه للهارب المستحى وأنه ليكاد يبكى •

واستدعوا من (مونتريه) تليفونيا ضابط شرطة ذو رتبة كبيرة ، وحين مقدمه كتب تقريره الرسمى دون ما صعوبة ، ولم يكن المترجم الذى أتاحته الصدفة بعيدا عن أغوار السيبيرى ولكن أيضا نقص حظ ذلك السيبيرى التام من الثقافة ، وضع حاجزا بين عقله وبين عقل اولئك الغربيين · لقد كان من القليل الذى يعرفه عن نفسه أن اسمه بوريس · أما لقب أسرته فلم يستطع أن يدلى به ، كان يعيش مع زوجته وأبنائه الثلاثة على بعد ثلاثة وثلاثين ميلا من البحيرة العظيمة ، وكانوا عبيدا للأمير متشرسكى (هو يستخدم لفظة العبيد، مع أنه مضى أكثر من نصف قرن على زوال العبودية من روسيا) ·

ثم تلا ذلك مناقشة مصيره ، ووقف هو بين المجادلين بأكتاف متخاذلة ووجه حزين قال بعضهم انه ينبغى أن يرسل الى السفارة الروسية فى (برن) ولكن عارضه آخرون بأن هذا سيؤدى الى أن يساق ثانية الى فرنسا ·

وصرح موظف الشرطة أنه من الصعب تقرير ما اذا كان الروسى يعامل كهارب أو يعتبر ببساطة أجنبيا بلا بطاقة شخصية ، أما الضابط المنوط به حراسة هذه المنطقة ، فكان متأهبا ليوضح معقبا أن هذا الضال ليس له بالتأكيد اى حق فى المطعم والمسكن على نفقة السلطات المحلية · وتدخل رجل فرنسى محتدا ، قال :

– ان حالة هذا الهارب الشقى واضحة للغاية · دعوه يؤدى عملا ما أو أرسلوه ثانية عبر الحدود ·

واحتجت امرأتان بأن الرجل المسكين لم يكن ليلام بسبب مآسيه ، أنها لجريمة أن يختطف الناس من منازلهم ويرسلوا الى أرض أجنبية ·

وأوشكت معارك سياسية أن تقع حتى أعلن سيد دنمركى عن عزمه على أن يعول هذا الغريب مدة الاسبوع التالى الذى تناقش فيه السلطات المحلية الامر مع السفارة الروسية ·

وقد وضع هذا الحل – غير المتوقع – نهاية لحيرة الرسميين ينسون خلافاتهم، وبينما كان الجدل محتدما ، ظلت عيون الهارب فى استحياء مركزة على شفتى مدير الفندق ، اذ أنه الانسان الوحيد فى هذا الخليط الذى باستطاعته ان يعرفه مصيره · وبدأ بهيئته الشاحبة أنه فاهم مدى التعقيدات التى أثارها قدومه · والآن حين خفتت ضوضاء الاصوات ، رفع يديه المشبكتين قبالة وجه مدير الفندق – فى ضراعة – مثل امرأة تركع مصلية أمام صورة قديس · وقد تأثر الجميع من هذه الحركة ، وأكد له المدير مخلصا أن عليه أن يطمئن بالا تماما · ذلك أنه سيسمح له هنا بالبقاء حينا · ولن يؤذيه أحد ، وأنه سيجاب الى طلباته فى مضيفة القرية · وأراد الروسى أن يقبل يد المدير ،ولكن الاخير لم يسمح له بتلك الطريقة غير المألوفة فى التعبير عن الامتنان · وأخذ بيد اللاجىء الى الفندق حيث المأكل والنوم مؤكدا مرارا أن كل شىء يسير على ما يرام وبهزة رأس أخيرة حياه المدير تحية الصديق المودع متخذا طريقه ثانية الى فندقه · حدق الهارب فى رسم المدير وهو يتباعد وقد شحب وجهه مرة أخرى لدى افتقاد الشخص الوحيد الذى يستطيع أن يفهمه وبالرغم من أولئك الذين كانوا يرهبون

سلوكه فى متعة ، فانه ظل يتبع بعينيه المديرحتى اختفى هذا الصديقفى فندق بأعلى الجبل ، والآن لمس واحد من المتفرجين الروس بلطف على ذراعه ثم أشار له الى باب الفندق • دخل الهارب برأس معلقة مقامه المؤقت ، وأرشد الى حجرة الشراب فأراح نفسه على كرسى ، وثبت ، فرحبت به المضيفة وناولتــه كأس (براندى) ، وهنا أنفق بقيــة الصباح مطرقا فى كآبة •

كان أطفال القرية يديمون مسـارقة النظر اليه من خلال النافذة ، يضحكون ويصيحون به من وقت لآخر ، ولكنه لم يلق لهم بالا • نظر العملاء اليــه فى فضول • ولكنه ظل طول الوقت جالسا وعيناه مثبتتان على المائدة فى خجــل وتهيب • وحين أعدطعام الغداء ، امتلأت الحجرة بالناس الذين يتحدثون فى مرح لكن لم يستطع الروسى أن يفهم كلمة واحدة من أحاديثهم • وآلمه أن يدرك أنه غريب بين غرباء ، وأنه عمليا أصم أبكم وسط أناس يستطيعون تبـادل الآراء بطريقة حية • كانت يداه ترتعشانحتى أنه بصعوبة ما تناول حساءه • وسلكت دمعة طريقها فوق خده ، ثم سقطت فى ثقل فوق المائدة • ونظر حواليه بتهيب لحظ الضـيوف الآخرون حزنه ، فران الصمت على الجميع • كان الحيــاء يغمره وأخذ رأسه المشعث يدنو شيئاً فشيئا من المائدة الخشبية الســوداء • ولبث فى حجرة الشراب الى المساء •

جاء أناس وراحوا ، ولكنه لم يكن يعرفهم أو يعرفونه وواصـل جـلوسه محتميا بالمدفأة مريحا يديه على المائدة •

ونسى الجميع وجوده • وعند الغسق نهض فجأة ومضى دون أن يلحظ أحد ذهابه ، ومثلحيوان أبكم صعدفى الجبل متثاقلا شطر الفندق ، وركز نفســه — وبيده الطاقية — خارج الباب الرئيسى ووقف هناك ساعة بطولهــا دون أن يسترعى انتباه أحد •• واخيرا اجتذب هذا الشكل الغريب ، الجامد والاسود ، كجذع الشجرة الضاربة بجذورها أمام مدخل الفندق الساطع الاضواء — انتباه واحد من البوابين ذهب باحثا عن المدير

•• ورفت البهجــة ثانيــة على وجه السيبيرى عند كلماتمدير الفندق الاولى اذ سأله فى حنان :

— ماذا تريد يا بوريس ؟

قال الهارب بتردد :

— معذرة يا سيدى ، كل ما أريد أن أعرفه هو هل يمكننى أن أعود لبلدى أو لا ؟

قال المدير مبتسما :

— طبعا يا بوريس يمكنك أن تذهب الى بلدك •

— غدا ؟

واتخذ المدير سمتا أكثر جدية ، فان الكلمة قيلت بضراعة أزالت البسمة :

— لا يابوريس ، ليس بعد •• حتى تنتهى الحرب •

— هكذا سريعا ؟! •• ومتى تنتهى الحرب ؟

— الله اعلم ، ولا أحد يســتطيع أن يعلم •

— وهل ينبغى أن أنتظر طيلة هــذا الوقت ؟ ألا أستطيع الذهاب سريعا ؟

— لا يابوريس •

ـ هل بلدى بعيد من هنا ؟

ـ نعم

ـ مسيرة أيام كثيرة ؟

ـ أيام كثيرة ٠٠ وكثيرة ٠

ـ ولكننى أستطيع أن أسير هنالك، فأنا رجل قوى ولن أتعب ٠

ـ لا تستطيع ذلك يابوريس ٠ هناك حدود أخرى عليك أن تعبرها قبل الذهاب لبلدك ٠

وبدا متحيرا :

ـ حدود ؟

لم تكن الكلمة ذات معنى عنده ٠ ثم استمر بالحاحه المدهش قائلا :

ـ ولكنى أستطيع أن أعوم خلالها !

وبمشقة كتم المدير إبتسامة لائحة ، ولكنه كان حزينا لمأزق الرجل فقال برقة :

ـ لا يابوريس لن تقدر على أن تفعل ذلك ، فان الحدود معناها دخولك بلد أجنبى ، والناس الذين يعيشون هناك لن يدعوك تمر ٠

ـ ولكننى لن أؤذيهم بشىء . فلقد أطرحت بندقيتى ٠٠ فلماذا يرفضون أن يدعونى أذهب لزوجى حين أستحلفهم لأجل المسيح أن يتركونى أمر ٠

وصار وجه المدير جامدا كئيبا وقال:

ـ لا لن يدعوك تمر يابوريس، ولا حتى من أجل المسيح ، فاننا فى عصر لا يقيمون فيه وزنا لكلمات السيد المسيح ٠

ـ ولكن ماذا على أن أفعل يا سيدى ، لا يمكننى البقاء هنا ، فلا أحد يفهم عنى وأنا لا أفهم عن أحد ٠

ـ ستتعلم الفهم عنهم مع الزمن ٠

هز راسه وقال :

ـ لا ياسيدى لن أستطيع التعلم أبدا أنا أستطيع فقط فلح الأرض ، ولا أكثر ماذا يمكننى أن أفعل هنا ؟ ٠٠ أنا أريد الذهاب الى بلدى ٠ أرنى الطريق ٠

ـ ليس هناك أى طريق يابوريس ٠

ـ ولكن ياسيدى لن يستطيعوا منعى من العودة ثانية لزوجى وأولادى ، فلم أعد بعد جنديا ٠

ـ نعم يابوريس انه يمكنهم أن يمنعوك ٠

ـ ولكن القيصر بكل تاكيد سيساعدنى ٠

كان هذا تفكيرا مفاجئا خفقت له جوانح الهارب بالامل ٠ وفى ذكره لاسم القيصر وضحت نغمة التوقير الزائد ٠

ـ ليس هناك قيصر الآن يابوريس ، فقد عزل ٠

ـ ليس هناك قيصر الآن ؟!

وحدق ببلاهة فى وجه المدير ٠٠ هاقد خبت ومضة الامل الاخير ، وبهت بريق عينيه فقال مكدودا :

ـ وهكذا فلن أستطيع الذهاب لبلدى

ـ ليس الآن ٠٠ ينبغى أن تنتظر يابوريس ٠

ـ وهل هذا سيطول ؟

ـ لا أعرف ٠



وبدا الوجه فى الظلام يزداد قنوطه :

ـ لقد انتظرت طويلا ، كيف انتظر أكثر ، أرنى الطريق وسأحاول .

ـ ليس هنـاك طريق يابوريس ، سيقبضون عليك عند الحدود ، امكث هنا ، وسأجد لك شيئا تعمله .

قال متلعثما :

ـ انهم لايفهموننى هنا وأنا لاأفهمهم .. أنا لا أستطيع العيش هنا . ساعدنى يا سيدى .

ـ لا أستطيع يابوريس .

ـ ساعدنى ياسيدى لاجل المسيح .

ـ لا أستطيع مساعدتك يابوريس ، فان الناس لم يعد بامكانهم بعـد أن يعين أحدهم الآخر .

وظل الاثنان يحدج أحدهمـا الآخر بعينيه .. فتل بوريس طاقيتـه بين أصابعه ثم قال :

ـ لماذا أخذونى بعيدا عن بلدى ؟ لقد قالوا ينبغى أن تحارب من أجل روسيا والقيصر .. ولكن روسيا بعيدة عنى ، والقيصر .. مـاذا قلت أنهم فعـلوا بالقيصر ؟

ـ لقد عزلوه .

أعاد الكلمة بغموض :

ـ عزلوه !

ـ ماذا أفعل يا سيدى ؟ ينبغى أن أذهب لبلدى • ان أولادى يبكون من أجلى • لا أستطيع العيش هنا ، أعنى يا سيدى •• أتوسل اليك أن تساعدنى ساعدنى ، والا فليس لى أمل •

ـ لا استطيع يابوريس •

ـ ألا يستطيع أحد أن يأخذ بيدى ؟

ـ لا أحد الآن •

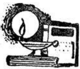
وعلق الروسى برأس ثابتة ـ وقد ازداد هما ـ وفجأة تكلم فى نغمة كئيبة :

ـ أشكرك يا سيدى •

وبعدئذ استدار على عقبيه ومضى •• سار بطيئا الى أسفل الجبل •• وراقبه المدير بينما هو يمضى ، وعجب اذ لم يدخل الفندق•• بل انه مضى فى طريقه أسفل الدرج المفضى الى البحيرة •• زفر المترجم شفيق القلب زفرة ، ثم عاد ثانية لعمله فى الفندق •

وكما شاءت الصدفة أن تكون ذات الصياد عينه الذى أنقذ السيبيرى حيا من البحيرة •• عثر على جثة الغريق العارى فى الصباح •• لقد طوى الهارب بعناية ما استعاره من معطف وسروال ووضعهما مع القبعة على الشاطىء •• ثم انطلق يسير فى الماء ، عاريا كما أخرج منه فى المرة الاولى •

لم يكن الغريب معروفا ليقام على قبره نصب تذكارى ، بل نصب هنالك صليب خشبى بلا اسم •



الجراد والجمبري

بقلم عادل آدم

تطلع من النافذة ، ثم قال ــ الجو ينذر بعاصفه ٠٠

وعاد الى مقعده فارتمى فوقه وهو يزفر ٠٠٠ وتطلعت الى زوجته فاشاحت بوجهها بعيدا عنى ٠٠

واستطرد كمال ــ لن ينقى الجو سوى سقوط الامطار ٠

قلت بقلق وددت رغبة جدية فى النقاش ــ هل تظن ٠٠ ؟

فقال ــ أكيد

وناولنى سيجارة فأشعلتها ٠٠ ونسيت العود فى يدى فترة مشتعلا دون اطفاء ٠٠ أحس بنظرات زوجته منصبة فوقى ٠٠ أحس لسعها كالابر تماما فى جلدى ٠٠

سألنى ــ ما رأيك فى هذه السيجارة٠

لم أفهم ٠٠ سألته ــ ماذا تعنى ؟

ــ ليس هذا النوع ما تفضله ٠٠ انه نوع ردىء لكن لم أجد غيره ٠٠ ألم تلحظ الفارق؟ قلت بدهشة وانا أقلب اللفافة فى يدى بضيق ــ لا ٠

قال بتأكيد ــ هذا حقيقى ٠٠ المهم الا تعرف أن النوع ردىء ٠٠ وستجد أنك تشربه دون أن يتملكك الاشمئزاز ٠٠ بلذة وبشغف ٠٠ هل تعرف سأروى حادثة مرت بى والتفت ناحية زوجته ٠٠ زوجته جميلة ٠٠ رشيقة كأنها عارضة أزياء، وعيناها كبيرتين عميقتين قال :

ــ سلوى ٠٠ اسمعى هذه القصة ، ولكن هل انت متعبة ٠٠

هى متعبه للغاية ٠٠ فى الواقع هى فى غاية التعب ٠٠ ولكنى أيضا متعب ؟ ٠٠ ربما أكثر ٠ متعب بثقل ما أحمله فى صدرى من احساس مختلط متباين ٠

ــ سلوى ٠٠ حبيبتى هل أنت مريضة ٠٠٠

وضع كفه فوق جبهتها بحنو وحب ومال عليها مستفسرا ٠٠

ردت بتردد ــ اننى بخير ٠٠ ليس بى من سوء ٠٠ لاتقلق هكذا اننى بخير ٠٠

ــ ولكنك شاحبة ٠٠ يبدو الارهاق على صفحة وجهك الجميل ٠٠ أنت مريضة ياحبيبتى ٠ وانحنى يقبلها ٠ اختفى وجه صديقى خلف سحابات كثيفة ٠ انحسرت فى دوائر آخذة فى الاتساع ٠٠ تكشفت عن وجه صديقنا رمزى ٠٠ رأيت رمزى يميل عليها مقبلا وهى مرتاحة بين زراعيه فى استسلام وضعف ٠٠ كدت أصرخ ٠٠ غيرى انى سمعت صوت كمال ٠٠

ـ هل أنتمتأكدة أنك بخير ياسلوى؟

قالت ـ بكل خير ياكمال ٠٠ لماذا لاتكمل تلك الحكاية التى كنت ستروبها ٠٠ أنسيت ؟ صاح متذكرا ـ آه ! ٠٠ اسمع القصة ياعباس ٠٠ سوف تفيدك ٠٠

جذب نفسا من السيجارة واضطجع على كرسيه وأخذ يروى القصة ٠٠٠

حين كنت أعمل بالسعودية ٠ ٠أنت تعرف اننا عملنا فترة هناك ٠٠ المهم ٠٠ دعيت ذات مرة الى منزل صديق ٠٠ وقدموا الى بعض المأكولات الخفيفة ٠٠ منها طبقابه نوع من الجمبرى على ماأعتقد ٠٠ قالوا الى هذا جمبرى سعودى ٠٠ كان يشبه زميله المصرى وكان مشويا ٠٠ هل تعرف كان طعمه لذيذا ٠٠ فى الواقع كان لذيذا جدا حتى انى نسيت نفسى وأتيت على كمية كبيرة منه ٠٠

وبعد عدة ايام قابلنى ذلك الصديق ٠٠ وفى معرض حديثنا فاجأنى بقوله ٠٠ أخبرنى هل أعجبك الجمبرى ٠٠ صحت من فورى ٠٠ للغاية ٠٠فقال ٠٠ هل تعرف ٠٠ انه ليس جمبريا ٠٠ هل يمكن أن تخمن ما هو ٠٠ لا تستطيع ٠٠ بالطبع ٠٠ ولن يخطر على بالك مطلقا ٠٠ انه جراد ٠٠ صرخت ٠٠ جراد ٠٠ ياربى ٠٠ جراد ٠٠

قال مؤكدا وهو ينفجر بالضحك ـ جراد ٠٠ مجرد جراد ٠٠ لم يكن سوى جراد ٠

أسرعت يومها الى أقرب دورة مياه وأفرغت مافى جوفى رغم مرور عدةأيام على أكلى ذلك الجراد اللعين ٠٠ ورقدت جسدى ٠٠ وأحس بدبيب أقدام الجراد تسرى فى دمىوتجعل جلدىيقشعر رغما عنى ٠٠ هل تصدق هذه الحكاية ٠٠

وانفجر فى الضحك من نفسه ثم توقف وهو يلهث وقال :

ـ لكن ما الذى ذكرنى بهذه القصة آه انها تلك السيجارة التى لم تكد تعرف نوعها حتى تركتها بعد أن وصلت الى نصفها ٠٠ هل تفهمنى ٠٠ لعلنا فهمنا ٠٠ وقلت دون متابعة جادة لكلامه :

ـ آه ٠ ٠انه رأيك ٠

قال بتأكيد :

ـ دون شك ٠ ٠ واتجه نحو زوجته ومال يستفسر عن صحتها ومزاجها ٠٠٠ ومرة أخرى يغيب وجه كمال عن عينى ويبدو وجه رمزى أمامى ساخرا بشعا كوجه الخطيئة ٠٠ ورفعت بصرى نحو صورة الزفاف المعلقة ٠٠ خيل الى أن رمزى يحتل مكان أحمد وقد أزاحه الى الطرف البعيد من الصورة ٠٠

أحسست بتعب ٠٠ ودوخه ثقيلة تلف رأسى فتطمس المرئيات أمام عينى وثقل تنفسى وشعرت باختناق وضيق وكان الهواء قد ركد وأصبح الجو لا يطاق ٠

نهض كمال وهو يزفر وصاح بتلهف ـ يجب أن تمطر الآن ٠ ٠ لن يعيد للجو نقاءه سوى الامطار ٠٠ الامطار لتمطر الآن وسينتهى كل شىء ٠٠

رميت بنظرى نحوه ٠٠ وهو يتحرك فى نواحى الحجرة ٠٠ وهو يتطلع الى النافذة ٠٠ وهو يميل على زوجته سلوى ٠٠ وهو يهيب ٠٠ بالسماء أن

تمطر ٠٠ ثم حدت ببصرى اليها ٠٠ ونسيت نظراتى مسددة الى وجهها واشتبكت نظراتنا كالاسلاك الشائكة

ولعلها حاولت أن تخلص نظراتها ولم تفلح ٠٠ فانفجرت فى البكاء فجأة وارتفع نشيجها عاليا مختلجا ٠

ارتاع أحمد ٠٠ وهرع نحو

ــ سلوى مالك ياحبيبتى ٠٠٠

بذلت جهدا خارقا لتتمالك نفسها وجففت دموعها بسرعة ٠ ٠ الا أنها لم تستطع أن توقف الرعدة المسيطرة على صوتها وجسدها ٠

ــ لا شيء ٠٠ لا شيء ٠٠ انه بعض الضيق ٠٠ الجو خانق ٠٠

ردد بحيرة وذعر ــ أجل ٠٠ أجل ٠٠ واتجه نحوى٠٠ أدركت٠٠ انها مريضة دون شك ٠٠ أعصابها متعبة للغاية ٠٠

ربما لم يلحظ أثرا لكلماته على وجهى ٠٠ وأشعلت سيجاره من علبتى وناولته واحدة٠٠ فأخذها ثم أعادها وهو يتحرك بقلق ثم مال عليها وصوته يتهدج ــ سلوى ٠٠ ابكى ٠٠ سوف يفيدك البكاء ٠: ابكى ياحبيبتى ٠٠ استمرى فى البكاء ٠٠

فانخرطت فى العويل وشهقاتها المتشنجة تخرق أذنى بحدة ٠٠

ونهضت واقفا واعتذرت طالبا الانصراف ٠٠ فاحتج كمال ٠٠ وصاح فى وجهى ــ هل تنصرف وتتركنى فى مثل هذا الحال ٠٠ ألا ترى أن سلوى مريضة ٠٠ كذلك لم نتحدث عن ذلك الأمر الذى أخبرتنى أنه هام وعاجل ٠٠

قلت بضعف ــ أوه ٠٠ لا أذكر ٠٠

وتحركت الى الباب فصاح محتجا ٠

ــ لكن سلوى مريضة ٠٠

ألقيت بنظرة نحوها وقلت :

ــ لعلها بخير الآن ٠



الضباب

متولى

« رواية مسلسلة »

بقلم : ثروت أباظه

- ٢٧ -

أنهى محمد دراسته فى كلية الطب وعين فى قصر العينى وانقطعت صلته نهائيا بعزيزة دون أن يكون له أولها يد فى هذه القطيعة فقد تدخل بينهما هتلر من ألمانيا وتشرشل من انجلترا ٠ فقطعا الصلة بينهما ٠ توافد الجنود الانجليز وأصبحت عزيزة شخصية مرموقة فى دنيا الليل وتفرغت لهؤلاء الزبائن تجيب طلباتهم وتخلت عن أصدقائها القدامى مرغمة على ذلك ارغاما ٠

وعاد محمد الى نفسه وحيدا ٠٠ رفيقته الجديدة سماعة يعلقها على رقبته فرحا بها يوما وأسبوعا وشهرا ثم أحس بها طوقا حول عنقه يحيط به يوشك أن يخنقه ٠ وعاد ضائعا ، فرح بنفسه وهو يمر بالمرضى كاله صغير يشخص المرض ويصف الدواء ، يوما وأسبوعا وشهرا ثم اكتملت الصورة فى ذهنه ٠٠ انه بهيم يدور فى ساقية والسماعة حول عنقه هى النير على رقبة البهيم ٠ نعم هو بهيم ٠ بهيم منذ أدرك الحياة ٠٠ سحبه أبوه من أنفه حتى التخرج من كلية الطب واليوم يسحبه المرض والمرضى ، مسكين بسماعته يوجهونه بها انى يشاؤون ٠

أريد أنا أن أفعل شيئا ٠٠ أريد أن أفعل شيئا ، وكأنما وجد ضالته فى زوجته فتذكر فجأة انها مازالت زوجته ٠٠ لماذا ؟

ولم يكلفه الامر كثيرا ٠ ورقة الزواج فى يده فما هى الا جلسة عند المأذون الذى تكفل باحضار الشهود حتى كانت زوجته طالقا ٠ ووضع ورقة الطلاق فى خطاب الى أبيه وبات ليلته غير متزوج ٠ فكر لحظة فى ابنه احمد وسرعان ما همست له نفسه : «البركة فى الحاجة» ٠

وانقضى الزواج ٠

وأحس انه صنع شيئا ٠٠ ولكنه ما لبث أن عاد الى السماعة والمرض والمرضى ، وما لبث أن عاد ضائعا ٠

سمع حسين بطلاق أخيه ، فقد كانت أنباء البلدة تأتيه بانتظام من صديقه جدى وعاود حسين الأمل القديم أن يتزوج هنيه ٠

لماذا ؟ لأدرى ؟ كيف هى الآن لا أدرى ؟

أمل قديم طالما كنت أهفو الى تحقيقه ؟ كان الزواج بها مكانة اتطلع اليها ، وكنت أتطلع أيضا الى أن أصبح شيخا ذا عمامة وقور ،وأنا اليوم أحاول أن أنسى العمامة ماوسعنى الجهد ، وكنت أرجو أن يسألنى الناس الفتوى ، فاين أنا اليوم من الفتوى ، وكنت أرجو أن تأتى هنيه هذه بالذات فتقبل طرف الجبة وتسألنى فى شئون دينها فاجيب ، فأين أنا الآن من هذا جميعه ، ولكنى أريد أن أتزوجها •

قد يقبل أبوها ولكن ماذا يقول الحاج والى ؟

وطلب حسين أجازة من المدرسة وقصد الى قريته التى فارقها منذ سنوات بعيدة وتزل اليها •• غريبا نزل •• لم يعرفه أحد ولم يعرف هو أحدا ، الفلاحون وجوههم ليست غريبة عنه وهى غريبة ، يعرف السمات ولا يعرف الأسماء ، ويعرف الرائحة التى تهب عليه مختلطة بأنفاس القرية فتعود الى ذهنه ذكريات يدفعها عن نفسه باذلا غاية الجهد ألا تعود هذه الذكريات •• لا ، لايريد ، لايريد الا هنيـــه ثم يعود الى القاهرة هناك حيث يضيع فى الزحام الكبير ، ويكتب شعرا ويصادق من يجد عندهم نفعا حتى ينتهى هذا النفع فتنتهى الصداقة •

مشى حسين فى القرية يرد عن نفسه الذكريات التى تتواكب عليه من أشجارها من تلالها ، من طرقها ، من بيوتها ، بل من سمائها ، ومن انفـــاسها ، ومن رائحة أعشابها وزرعها •

لم يقصد الى بيت الحاج والى •• لا ولا الى بيت جده وانما قصد الى بيت أبى هنيه •• فما كان يريد الا هنيه •

قال لأبيها :

ـ أتذكرنى يا عم عبد الحميد ؟

وتفرس فيه عبد الحميد لحظات قليلة ثم قال :

ـ الشيخ حسين •• كيف أنت يا شيخ حسين ؟

ـ الله يطيل عمرك •• عرفتنى بعد هذه السنين الطويلة وبعد أن غيرت العمامة بالطربوش •

ـ كيف أنساك يا شيخ حسين وانت من بلدى •• كيف حالك ؟

ـ الحمد لله •

ـ نسمع أغانيك فى الراديو • • كلامك حلو والله ياشيخ حسين ••

ـ الله يكرمك يا عم عبد الحميد •

وصاح عبد الحميد من مكانه :



ـ القهوة يا هنيه ٠

وقال حسين فى تظاهر باللعثمة :

ـ آسفت والله لما حصل من أخى ٠

ـ كل شىء قسمة ونصيب ياسى الشيخ ٠

ـ ياترى ياعم عبد الحميد لو أردت أن أصلح ٠

ـ حد الله بيننا وبين محمد ياشيخ حسين ٠٠ هو الآن دكتور ونفسه كبرت علينا ٠٠ يا ابنى أرأيت عمرك زوجا لايقيم مع زوجته ثم لايكتفى بهذا بل يطلقها أيضا ولا يفكر فى ابنه الصغير ٠٠ لا ٠٠ لا ياشيخ حسين ٠٠ حد الله بيننا وبين محمد ٠

ـ انت لم تفهم قصدى يا عم عبد الحميد ٠

ـ خيرا ٠

أنا أريد أن أخطب هنيه لنفسى ٠٠ انا مدرس ومرتبى ٠٠٠

انتظر يا ابنى ٠٠ أنت تريد أن تتزوج طليقة أخيك ؟ ٠

ـ ما أحله الله لايحرمه العبد ياعم عبد الحميد ٠

وسكت عبد الحميد مطرقا وامعن التفكير ثم قال :

ـ هل سألت الحاج والى يا شيخ حسين ؟

وارتج على حسين فما كان ينتظر هذا السؤال ، ثم قال متلعثما :

ـ أردت أن أسألك أولا ٠

ـ لا ياابنى ٠ فهنيه ما تزال أم ابنهم ، والحاج والى تأثر مما فعله ابنه ، تأثرا كبيرا ، وهو يبر البنية حتى اليوم ويأتى لزيارتها دائما ويسأل عنها ، وانت على كل حال يا شيخ حسين ابنه ، لاينكر المعروف الا ابن الحرام ، انت ابنه ياشيخ حسين

وقال حسين مسرعا :

ـ طبعا ، طبعا يا عم عبد الحميد وهل أستطيع الانكار ٠

ـ اسأله أولا ياابنى ٠٠ اسأله أولا ٠

ودخلت هنيه حاملة القهوة ٠٠ ونظر اليها حسين ٠٠ انها ليست هى ٠٠ لا ، ولا هى التى تصور انه سيراها ٠٠ ولكنه مع ذلك مصمم على الزواج بها ٠٠ لماذا ٠٠

لا يدرى لماذا ؟

***

حين دخل حسين الى البيت الذى تربى فيه ، استقبله البيت ، رائحة الفرن التى لم تتغير ، وبرائحة الذكريات التى ما زالت تطالعه منذ نزل الى القرية ٠ الا أن رائحتها هنا فى هذا البيت كانت أشد عنفا ، كأنما هذا البيت هو المصدر الذى توزعت عنه الذكريات الى القرية جميعا ٠

أحس حسين الخوف يسيطر على قلبه لايدرى لماذا ، ومد يده الى عينه اليسرى يمسح الدمعة المنحدرة ٠ وتوقف فى صحن الدار يقلب النظر يحاول أن يستعيد بعض شجاعته ولكن الخوف كان يهاجمه فى قسوة ٠٠ خوف لايدرى ماتاه ولا أسبابه وانما هو رعشة فى القلب ، وبرودة تتمشى فى أوصاله ، وتنحنح ، وتردد صدى تنحنحه فى البيت جميعا ثم عاد يمسح دمعة لم تكن موجودة وراح يدير عينيه مرة أخرى حواليه ثم خطا خطواته الأولى وصعد السلالم ، ثقيل الخطوات حتى اذا بلغ منتهاها وجد الحاج والى جالسا على أريكته لم يغيرها ولم يغير جلسته عليهـا ، كأنه كان جالسـا ينتظره عائدا من الكتاب ٠ أو كأنه ظل جالسا هذه السنوات الطوال لم يتحرك من مكانه ٠٠

وغير بعيد منه على الارض جلست الحاجة بمبه تلاعب طفلا أدرك من فوره انه احمد بن محمد وان خيل اليه للحظة عابرة انه محمد نفسه ، ونظر الحاج والى ونظرت الحاجة بمبه ودون أن يشعرا ارتسمت ابتسامة مرحبة على شفاهها وهمهما بالفاظ لم يكن حسين يحتاج الى كثير ذكاء ليدرك انه ترحيب يجمع الى الدهشة الصدق والحب وقبل حسين يد الحاج والى ثم ركع على الأرض يقبل يد الحاجة وسحبت يدهـا لتربت ظهره فى حنان ٠٠ وراح الكلام يسيل من شفتيها ٠

ـ أوحشتنى ياحسين ٠٠ اسمع كلامك فى الراديو وأقول لنفسى والله ربيت ونفعت واشتاق اليك ٠

وأسعفت الدمعة من العين اليسرى حسين فلم يمسحها وأحس انه يحتاجها فقد كانت عيناه عاصيتين عن دمعة تأثر ٠

ولم يزد الحاج والى عن قوله :

ـ كيف أنت يا حسين ؟

ـ الحمد لله يابا الحاج ٠

ثم التفت الحاج الى زوجته :

ـ جهزى العشا لحسين ياحاجه ٠

ـ من عينى ٠

وقامت وامسكت احمد من يده وخرجا ولم يكن يخفى على الحاج أن حسين يريد أمرا ولكنه آثر ألا يسأله ، وانما راح يسأله عن عامة شأنه فينقطع الحديث باجابات تقليدية ٠

ـ كيف حال المدرسة ؟

ـ الحمد لله ٠

ويهوم الصمت ٠

ـ أما تزال فى بيتك ؟

ـ لا ، نقلت الى شقة ٠

ـ ويهوم الصمت ٠

ـ أغانيك حلوة يا حسين ٠

ـ الله يبقيك يابا الحاج ٠

ـ اشتريت راديو خصيصا لأسمع أغانيك ٠

ـ الله يبقيك يابا الحاج ٠

ــ ويهوم الصمت .

ويفكر الحاج فيما يمكن أن يكون سبب مجىء حسنين ويفكر حسين فيما يمكن أن يكون فاتحة الحديث الذى يريد أن يسوقه ، ويرتفع صراخ احمد لحظة ، ثم يظلهما الصمت مرة أخرى فتعلو أصوات الضفادع والصراصير والكلاب ويتنحنح محمد ثم يقول فى صوت متسلخ :

ــ أبا الحاج .

ــ نعم يا ابنى .

ويرفع حسين يده الى عينه الدامعة .

ــ أريد أن أعرض عليك أمرا ؟

ــ قل ياحسين .

ــ أريد أن أتزوج .

ــ على بركة الله يا ابنى . ومن العروس

وفى سرعة يقول حسين :

ــ هنيه .

ويعتدل الحاج فى جلسته ويلقى الى حسين نظرة دامشة .

ــ من ؟

ــ هنيه .

ــ امرأة أخيك ؟

ــ طليقته .

ــ لماذا ؟

ــ أريد أن أصلح ما فعله أخى .

ــ هل تحبها ؟

وصمت حسين لحظة وتنحنح وقال :

ــ ماذا ؟

ــ هل تحبها ؟

ــ نعم .

ــ هل تحبها حقيقة يا حسين ؟

ـ نعم .

ـ هل تحب أحدا ياحسين .. هل تحب أحدا على الاطلاق .

ودهش حسين من السؤال فاستغلق عليه الحديث هنيهـــة ثم قال وكأنه لم يسمع :

ـ نعم ؟

ـ أقول هل تحب أحدا على الاطلاق .. هل تعرف الحب ..

نعم أنت شاعر .. تقول الشعر فى الحب والغرام والهيام ولكن هل تعرف الحب يا حسين ؟

ـ يابا الحاج أنا مقصر ولكن معروفك ومعروف الحاجة لا ينسى .

ـ أنا يا ابنى لاأسأل عن المعروف انما أسأل عن الحب هل تعرف الحب يا حسين ؟

وتنبه حسين الى نفسه ، وكأنما جعله السؤال انه انسان ناقص .. ينقصـه الحب ، وأطرق ثم قال :

ـ اذا أمرت ألا أتزوج هنيه فأنا طوع أمرك .

وصمت الحاج وواصل حسين حديثه :

ـ انها شابة وستتزوج وأنا أولى من الغريب .

وأطرق الحاج بعض الوقت ثم قال فى لهجة من يريد أن ينهى موضوعا :

ـ اعمل ما تريد يابنى .. اعمل ما تريد .

ـ كتر خيرك يابا الحاج .

ثم أطرق دون أن يحس فرحا ولا حزنا ومسح الدمعة عن عينه .

وهوم الصمت وارتفع صوت الضفادع والصراصير والكلاب .

- ٢٨ -

أنهى محمد فترة التمرين بقصر العينى وعين طبيبا بالمستشفى الاميرى بالزقازيق

واستقبل أمر تعيينه فى غير رضى ولا فرح فما كان يريد أن يكون قريبا الى يد أبيه التى خطت له مستقبله وما كان يريد أن يكون فى البلدة التى شهدته طفلا وفتى انه يريد أن يبتعد ، يبتعد ليشق لنفسه ما بقى من طريق ، يريد أن يختار أصدقاءه ، ويختار حياته كما يشتهى ، أى موظف أحمق فى وزارة الصحة اختار له هذا المكان .. لا شك انه موظف يبحث عن أيسر الامور سأل من أين محمد فقيل من الشرقية فقال يذهب الى الزقازيق ، وماذا يستطيع محمد أن يقول بعد هذا .. فليرم به الى الزقازيق

وليسارع الضياع مرة أخرى ٠٠ فان استطاع أن يتخلص منه فليرتمي في شبكة أبيه والطريق الذى يريد أن يخطه له دائما ٠

زاره أبوه واستقبله بكل ترحاب ، انه يحبه ، لكنه يريد أن يخط لنفسه طريق نفسه ٠ لعله كان يختار الطب لو ترك له أن يختار ولكنه هو لم يختر فهو يحس أنه مسوق فى طريق لايملك فيه لنفسه مصيرا ، اما كان يكفى أباه أن ينجبه ويختار له اسما ويختار له التعليم منهجا ، أكان لابد أيضا لأبيه أن يختار له الطب ، ويختار له الزوجة ويختار له البيت الذى يعيش فيه ٠ نعم انه طلق زوجته ولكنه مع ذلك يحس أن الخيوط التى تربط حياته خيوطا غريبة عليه ، ليس بينه وبينها آصرة من تعرف ، هى غريبة عن نفسه لا جذور لها فى أنحاء كيانه ، خيوط تمتد اليه من خارجه لا هى نبتت من داخله ، ولا نمت معه ، ولا واكبت حياته ، لا يستطيع أن يتذكر متى فكر فى كلية الطب ولا لماذا اختارها ولم يختر غيرها ، لا ولا يستطيع أن يقول فى نفسه انه قارن بين كلية الطب وغيرها من الكليات ، لقد وجد نفسه فيها كما وجد اسمه محمد وكما وجد زوجته هنية ، طريق دفعته اليه يد أبيه فما استطاع عنه حولا ولا منصرفا ، واليوم يحل موظف الصحة الأحمق محل ابيه فيختار له الزقازيق لايستشيره ولا يحاول أن يتعرف ميله ٠ القلق يساوره منذ جاء الى الزقازيق ٠٠ الخوف ٠٠ لماذا انه لايدرى أهو يخشى أن تلتقى به يد أبيه مرة أخرى ؟ أم هو يخشى أن يغلبه الضياع على أمره ؟ أم يخشى نفسه فقد طالما ساورته الخشية من نفسه ، قلق لايفارق نفسه فان خلا لنفسه بعد ساعات العمل فتكت به نيران القلق فهو يلجأ الى الاصدقاء من الزملاء وهم لايقيمون فى بيت أحد منهم وانما يقصدون الى النادى ، وهم هناك لايقصرون تسليتهم على الحديث وانما يلجأون من ملالتهم الى لعب البوكر ، لعبة سهلة التعليم سريعة الكسب سريعة الخسارة ٠ ولم يستغرق محمد كثير وقت ليصبح من اللاعبين المداومين ٠ وقد كان أجرأ لاعب على المائدة فما كان يخاف شيئا الا الخوف الذى يحس به وهو بعيد عن اللعب ، كان عندما يلعب ينسى كل شىء ولا يعاوده القلق الا وهو بعيد عن اللعب ٠ وبعد فماذا كان يمكن أن يخيفه غير ذلك ، ان قصر المرتب أن يطلب من أبيه عونا ولن يرد أبوه له طلبا فهو من الناحية المالية آمن على نفسه ، ويستغرق فى اللعب ٠ ويعرف أبوه انه اذا أراده يجده فى النادى ويعرف أيضا انه يقامر وتعود سحب الضباب تتكاثف أمام عينيه ٠ لا حول ولا قوة الا بالله ٠٠ أربى اثنين فيصبح الأول زانيا لا يحفل بالمعروف الذى قدمته له حتى ليتزوج طليقة ابنى وأخيه ويصبح الثانى مقامرا ويحتسب الله فى أولاده ويعاوده السؤال القديم : لماذا نصر على أن نأتى بالاولاد ، وتتجمد السحابة من الضباب أمام عينيه والسؤال فى ذهنه ويسعى اليه وهو على المصطبة أمام بيت جاره الحاج مهدى ٠

– ياحاج أتستطيع أن تطلب لنا الدكتور محمد ؟

– نعم ياحاج مهدى ٠٠ فيم تريده ؟

– زوجة ابنى عثمان متعسرة فى الولادة ٠

– اطلبه من تليفون زين العابدين بك ٠

ويقوم الحاج والى الى التليفون ويطلب ابنه وتخف كثافة الضباب أمام عينيه ويهتز السؤال فى ذهنه بعض الشيء ٠

- ٢٩ -

منذ قدمت آمال الى قرية الحميدية وهى ملقاة فى البيت تطالعها من أبيها نظرات حانقة حائرة عاتبة ، ومن أمها صوت دائم التقريع لاتتلون نغمتــه أبدا ٠ وهى بين نظرات أبيها وصوت أمها فى أتون من العذاب لاتجد ما تفعله الا أن تجلس وحيــدة حتى تأتى الى أمها زائرات وتأمن الى أن أمها لن تستطيع أن تسىء اليها فى حضرتهن فهى تأخذ مكانها معهن وتستمع الى الحديث وتشارك فيه ٠ ولم يمض كثير وقت حتى أصبح لها هى زائرات فى مثل سنها وأصبحت حياتها هى أولئك الزائرات وأحاديثهن ولم تكن أحاديثهن الا عن أزواجهن ، والخوافى الخفية من أسرارهن تسعدن بان تلقينها على مسامع آمال فما تجدى الأسرار والأحاديث أن تبدد وحدتها أو تؤنس وحشتها ٠

وكانت زائرات آمال ينقلن اليها فيما ينقلن أحاديث القرية وأحداثها وفى هذه الايام كثر الترديد لاسم الدكتور محمد ، فالقرية تتحدث عن مهارته فى الطب والولادة والقرية تسوق الأمثلة على مهارته حقيقية حينا ومختلفة أحيانا ، والأحاديث تتواكب وتبلغ مسامع آمال فيما يبلغها من أحاديث وتزمع فى نفسها أمرا ٠

فهى تصحو ذات صباح وتجد انها مريضة وتريد أن يراها الدكتور محمد الذى تلهج القرية بمهارته ويدفع حب الاستطلاع أمها أن تستدعى محمدا الذى حملته طفلا رضيعا لترى كيف أصبح بعد أن صار طبيبا ، ولا يرى الأب مانعا ، ويأتى الدكتور محمد ٠ ٠

ويدخل محمد الى الحجرة وتلتقى عيون افترقت منذ سنوات طويلة ٠٠ عيون كانت طفلة لاهية وأصبحت اليوم شابة مرنت على النظر والنقد ، كان محمد مشوقا الى هذا اللقاء هو أيضا ٠٠ كان يريد أن يرى هذه القطعة من طفولته كيف أصبحت حين مسها الشباب ٠

ودامت النظرة لحظات ٠ ٠وبدا أن كلا من الاثنين رضى عن صاحبه ، وابتسمت الأم ، وصحا محمد فجأة ليبدأ الكشف وحين أتمه التفت الى الأم فى أدب :

ــ أتسمحين حضرتك بملعقة لأرى اللوز ٠

ــ حاضر ٠

وخرجت الأم وقالت آمال فى صوت لايخلو من السخرية :

ــ ما للوز وللمغص يادكتور ٠

ــ أنا لاأرى بك شيئا ٠

ــ اذن ٠٠٠

ــ لا أدرى ٠ ٠لعلك كنت تريد أن تكشفى أنت على ٠

وضحكت وقالت :

ـ وانت ٠٠٠ ألم تكن تريد ذلك ؟

ـ نريد أن نرى طفولتنا ٠

ـ وكيف وجدت طفولتك ؟

ـ هى بخير عندك ولكنى لا أظنها بخير عندى ٠

ـ لماذا ٠٠ أنت دكتور قد الدنيا ٠

وضحك ساخرا وهو يقول :

ـ يتهيأ لك ٠٠ أتصدقين كلام الفلاحين ٠

ـ لقد عرفت مرضى ٠

ـ لانه نفس مرضى ٠

وتدخل الأم بالملعقة ويلقى الدكتور نظرة أخيرة على الحنجرة ، ولا يلبث أن يقول فى لهجة جادة :

ـ برد بسيط ، سأكتب لها دواء وأمر غدا ان شاء الله ٠

وتعرف آمال انها وقعت من نفسه حيث تريد أن تقع ويخرج محمد ٠

ولا يمر كثير وقت حتى يذهب محمد الى أبيه ٠

ـ يابا أنا أريد أن أخطب ٠

ـ مين ؟

ـ آمال بنت زين العابدين بك ٠

ـ مين ؟

ـ ماذا يابا هل فى هذا بأس ٠

ـ يا ابنى طلعت فى العالى ٠

ـ أنا يابا طبيبا ولى اسمى ولى مركزى ٠

ـ أخاف أن يرفض ٠٠ انك تزوجت مرة ولك ولد ٠٠ وهم غيرنا يامحمد ٠

ـ لاتخف ٠

ويعود الضباب الى الحاج والى ٠٠ كان لابد لى أن ألاقى الرفض والهزء أيضا ٠٠ مالنا نحن ولزين العابدين بك ٠

ولا يسوف الحاج والى كثيرا بل ينتهز فرصة يخلو فيها الى زين العابدين بك

ويتقدم بمطلبه ، ويدهش الحاج والى ٠٠ لقد رحب به الرجل ٠٠ رحب به ترحيبا أخافه أكثر مما أفرحه ٠٠ ولا يمضى كثير وقت حتى يتم الزواج ولكن الضباب لا يبارح الحاج والى كلما فكر فى شأن هذا الزواج ٠

- ٣٠ -

أتلك هى الحياة التى كنت أصبو اليها ، أهذا هو الفن الذى عشت عمرى أهفو أن أكون واحدا من أهله ، أعيش فى رحابه وأقضى عمرى فى ظل منه ، أهذا هو الشعر الذى كنت أريد أن أنظمه ٠٠ ماذا أصبحت ، كيف جنحت من الحياة الى هذا الجانب المظلم فيها ، وهذا الجانب القاتم الداكن ٠٠ من أنا ، خباز ، يجهز ما يطلب منه ، بلا فن ولا روح ، ولا نوازع ، أين هذه التهويمات التى كانت تتراقص فى داخلى تريد أن تصبح كلاما وتلح فاذا هى متفجرة كالينبوع الأصيل دون حفر أو بحث أو تنقيب ، ماذا أصبحت ٠٠ ياحسين نريد أغنية يكون معناها كذا وكيت ، ياحسين نريد قصيــدة تقول فيها كذا وكيت ٠ هم الذين يقولون وانا أتلقف أوامرهم لأجعل منها نظما لاأجد فيه شيئا من نفسى وانما هو نفوسهم وما يطلبون وهل أستطيع أن أقول لا ٠٠ وكيف أعيش ، منذ تزوجت هنيه وهى لاتترك عاما دون أن تقدم الى فما جديدا يريد أن يعيش ويعيش ، من أعصابى يعيش ، يقتات من دمى ومن كرامة فنى المهدرة ، لم يكن هــذا ما أريد ، كنت أحب الشعر أقوله وأجد فيه نفسى ومشاعرى أنا ٠٠ ، لا مطالب المطربين والمطربات ٠٠ فأين منى هذا الشعر الآن ٠٠ أصبحت كآلة الكتابة ٠ ٠أكتب ما يراد لى أن يكتب بفارق واحد انى أخرجه نظما أمقته ٠٠ أمقته ٠٠ اين هذا من الفن ، ولكن هل يدرى هؤلاء الاطفال فى صرختهم الجائعة بماذا يقتاتون ؟ بأشلاء فنى الذى ودعته بلا أمل فى اللقاء ٠ ٠ ومن أين لى اللقاء ٠٠ ماذا أصبحت ٠٠ مدرس وموظف للأغانى لدى المطربين والمطربات ، وتتسامع مصر بما أقول ولكن ما أبغض ما أقول الى نفسى ، هذا ليس أنا ٠٠ كلما امتدح أحد فى بعض مقطوعاتى أحسست كأنه يمتدح غريما لى أكرهه ٠وأعيش ٠٠ من جثة امالى أعيش ، من دماء أحلامى أعيش ، وهنيه وأولادهـــا يأكلون ٠٠ لايدرون ماذا يأكلون ٠

وانهمرت دمعة على خد حسين وتحسسها بيده ثم نظر الى مائها على يده وأنعم النظر وكأنما يريد أن يعرف عن أى منبع انهمرت هــذه الدمعــة ، أهى الدمعة التى ألفها تنهمر دون أن يدعو اليها داع أم هى صادرة عن نفسه هذه التى يمزقها الألم وتأكلها النيران ٠

ودق جرس التليفون فى البيت ، فقد أرغمه عمله أن يكون فى بيته تليفون ، وأمسك السماعة :

ــ نعم ٠

وجاءه الصوت آمرا أكثر منه راجيا ، ولم يجد ما يقول الا : حاضر ٠

وسأله الصوت فأجاب :

ـ بعد أسبوع ٠

وجاءه الصوت مرة أخرى فأجابه :

ـ حاضر ٠٠ أقل من أسبوع ٠٠ نعم فهمت ما تريد ٠

نعم سيكون كما تريد ٠٠ نعم ٠٠ حاضر ٠٠ نعم ٠٠ حاضر ٠

ووضع السماعة وظل يردد : نعم ٠٠ حاضر ٠٠ نعم ٠٠ حاضر ٠

- ٣١ -

أقام محمد وعروسه بالزقازيق واستطاع أن يخلو لها فى أول حياتهما الزوجية بضعة أسابيع ، ولكن نداء القمار كان عاليا يطن فى أذنيه طنينا متصل الجرس حتى لم يستطع أن يغفله فعاد طريقه الى النادى ومائدة القمار وعادت آمال الى الوحدة ٠

الا أنها فى هذه المرة كانت فى مدينة فما أسرع ماارتبطت أواصر الصداقة بينها وبين جاراتها الساكنات بالدور الأعلى والأخريات المقيمات بالبيوت المقابلة أو الملاصقة، ولكن ما أقل ما تغنى هذه الصداقات فللزيارات أوقات تنتهى عندها وهى أشد ماتكون حاجة الى الصديقة فى الأوقات التى لاتصلح للزيارة ٠٠ هناك فى أعماق الليل حين لا تسمع الا الصمت ولا ترى الا الظلام ٠ ٠فى هذه الأوقات التى تمتد بغير نهاية تريد هى الصديقة ٠٠ تريد من ينسيها انها تزوجت لمجرد الزواج ٠٠ تريد من يجعلها لا تذكر انها تزوجت لانها برمت بالسجن فى القرية ٠٠ تريد زوجها الذى تزوجته عن غير حب ليقول لها انه يحبها ٠٠ أو ليقول لها أى شىء ولينتشلها من هذه الوحدة التى عانت منها الكثير هناك فى القرية لا يحيط بها الا غضب أبيها وتزمت أمها ٠

لم تكن الجارات اذن يعنين شيئا بالنسبة لها ، فقد كانت الفلاحات بالقرية يجئنها فى نفس المواعيد التى تتبادل فيها الزيارات مع جاراتها لم يزد عليها فى بيت زوجها الا أنها أصبحت تزور معه القاهرة من حين الى آخر ٠ وكانت تستطيع هنا أن تزور صديقتها ناهد التى تزوجت هى الاخرى وان كانت ما زالت تسير حياتها كما كانت تسيرها وهى بعد فتاة فى المدرسة ٠ كانت هذه الزيارات الى القاهرة هى المتعة الوحيدة التى أحست آمال بها ٠ولم تكن قد أعدت نفسها لهذا الذى تلاقيه ، فحين لقيته امتلأت نفسها تمردا وحنقا ، حتى محمد بن الحاج والى يتركها ليلعب القمار ، وينفرد بها الليل لماذا تزوجته اذن ٠٠ نعم انها تدرى انها تزوجته لانها لم تتوقع أن تجد غيره ولكن أيكون هذا مصيرها معه ٠٠ وتنظر الى المرآة وتزداد سخطا على محمد وعلى أبيها ، بل انها تسخط ايضا على هذا اليوم الذى عثر فيه أبوها عليها بالسيارة الواقفة بالجزيرة ٠

كانت آمال حاملا فى طفلها الأول وكان موعد وضعها قد اقترب ، ولكن محمدا لم يعبأ كثيرا بهذا فان يكن هذا القادم هو الطفل الاول لآمال فما كان الاول لمحمد فهو لايزيد حين يترك البيت عن أن يسألها فى سرعة :

ـ أتحسين أنا ؟

وتقول : لا٠

فيأخذ سمته الى السلم طريقه الى المائدة التى أصبح لايطيق العيش دونها ٠

وقد كانت فى هذا اليوم تحس الآلام ولكنها وجدت نفسها تقول لا ، فى غير مبالاة وكأنما خيل اليها انها بهذا تعاقبه على اهماله لها ٠ ونزل محمد وازدادت آلام الوضع وحاولت أن تتصل بزوجها بالتليفون ولكنها وجدته معطلا فارسلت خادمتها الى عدلية هانم التى تقطن بالطابق الأعلى وسرعان ما نزلت عدلية ثم نادت زوجها أن يحاول الاتصال بمحمد فى النادى وان يحضر سيارة أجرة لتقلهم الى المستشفى ٠٠ وكانت السيارة الاجرة أسرع من محمد وركبت عدلية وآمال ووقف زوج عدلية المهندس عزت زكى على باب السيارة حائرا ماذا يفعل الى أن صاحت به زوجته :

ـ اركب يا عزت ٠٠ فلا يمكن أن نذهب الى المستشفى بلا رجل معنا ٠

وركب عزت فى حيرة لا يدرى ماذا يفعل ، وتحركت السيارة وحين جاء محمد أخبرته الخادمة أن سيدتها سبقته الى المستشفى مع عدلية هانم وزوجها ٠

وحين وصل محمد الى المستشفى كانت آمال ما تزال تضع بينما كان عزت جالسا فى بهو المستشفى ما يزال حائرا ، وشكر محمد عزت على اهتمامه ولم يجد عزت مناصا أن ينتظر ٠ ولبس محمد ملابس الاطباء واراد أن يدخل الى زوجته ولكن قبل أن يدلف الى الباب كانت الولادة قد تمت ، وجاءت ابنته الأولى الى الحياة دون أن يكون له نصيب فى معاونة أمها ٠٠ ولم تنس آمال هذه الوحدة التى عانتها وهى تواجه الأمومة لأول مرة فى حياتها فابتدرت زوجها وهى تراه بعد الولادة مباشرة :

ـ ألم تنته البرتيتة الا الآن كتر خيرك يامحمد ٠٠ كتر خيرك يادكتور محمد ٠

وأطرق محمد ولم يحاول أن يجيب ، بل ذهب الى السرير الصغير الذى يحمل وليدته وظل يرنو اليها بنظرات فارغة فيها خزى وفيها خجل ، وان كان يحاول أن يجعل فيها شيئا من الأبوة ٠

❋ ❋ ❋

حين عادت آمال الى البيت وجدت فى ابنتها بعض العزاء عن الوحدة ، ولكن ما زال الليل يفترسها منتهزا فرصة وحدتها ، وتجلس الى جوار ابنتها سوسن ولكن الوحدة لاتزول مع سوسن ٠

وفى يوم كانت جالسة فى الشرفة ، ورأت عزت زكى قادما ولم تدر لماذا سارعت الى باب بيتها ففتحته وانتظرت حتى صعد عزت فوجدها واقفة بالباب ، وفكر أن يحييها ويأخذ طريقه الى بيته ولكنها سارعت تقول :

ـ لم أشكرك ياعزت بك على اهتمامك بى ٠

ـ ياستى العفو انا لم أفعل الا الواجب ٠

ـ لا أنت فعلت أكثر من الواجب ٠٠ كتر خيرك ٠٠ تفضل ٠

ـ شكرا ٠

ـ تفضل اشرب شيئا ٠

ـ شكرا ٠٠ ولكنى لمحت عدلية فى الشرفة ، ولعلها تنتظرنى ٠

ـ أهكذا ٠٠

ـ مرة أخرى ان شاء الله ٠

ـ أهلا وسهلا ٠

ـ عن اذنك ٠

ـ تفضل ٠

ـ ٣٢ ـ

صلى الحاج والى الفجر حاضرا وقصد الى الأريكة فى بهو بيته وجلس الى جانب الحاجة بمبه التى كانت تعد له القهوة وصمت قليلا ثم قال :

ـ ما رأيك يا حاجة بمبه ؟

وصمتت الحاجه بمبه وراحت تهز القهوة على النار ثم سكبت بعضا منها فى فنجان وأعادتها الى النار مرة أخرى ولم تقل شيئا وأدرك الحاج والى انها لا تريد أن تجيب فقال لها :

ـ أليس أبو الولد أولى به ؟

وسكتت الحاجة بمبه مرة أخرى واستطرد الحاج والى :

ـ وهو أيضا صغير لا يتحمل الذهاب الى البندر كل يوم فى البرد الشديد ٠٠٠ وانت عارفه برد الصباح المبكر ٠

وقالت الحاجة بمبه :

ـ ألم يكن أبوه يذهب فى البرد ٠٠٠ ماذا جرى له ٠

وأطرق الحاج والى قليلا ثم قال :

ـ لم يكن لمحمد أحد فى البندر أستطيع أن أتركه عنده ٠

ـ وهل تعتقد أن أحمد له أحد الآن ؟

ـ لا حول ولا قوة الا بالله أليس أبوه هذا ؟

وقالت الحاجة فى صوت غاضب :

ـ لا ٠٠ لا ياحاج أباه ٠٠ انت أبوه وانا أمه هل رأيته يسأل عنه ٠ ٠ انه حتى الآن لا يعلم ان كان الموعد قد جاء ليذهب الى مدرسة البندر أم لا ٠٠ لا٠٠ !انه ليس أباه ٠

ـ على مهلك يا حاجة ٠٠٠ انه يعتمد على وعليك ٠

ـ أنا لا أقول يشترى له شيئا ٠٠٠ أنا أقول يسأل ٠٠٠ اسمع يا حاج ٠٠٠ أنا لا أطمئن أن يذهب أحمد ليسكن مع محمد ٠

ـ انه أبوه ٠

ـ أعلم ولكن محمدا ليس عطوفا ٠٠ وأخشى أيضا على الولد من امرأة أبيه ٠ وانت حين ربيت محمد ألم تكونى امرأة أبيه ؟

ـ أنا ياحاج والى أحببت ابنك بل وأحببت ابنة ضرتى ٠٠٠ انا ٠٠٠ انا ؟

ـ نعم انت خطأ فى الطبيعة ٠٠٠ انت استثناء ٠٠٠ انت لا مثيل لك يا حاجة ٠

ـ أخشى على أحمد من امرأة أبيه ٠

ـ اسمعى يا حاجة ٠٠٠ سأوفق بين رأيك ورأيى ٠٠٠ أنا سأذهب الآن الى بيت محمد وأكلم آمال دون علم زوجها وأرى ان كانت ترحب بأحمد أم لا وسأفهم من طريقة اجابتها حقيقة شعورها وتتصرف بناء على هذا ٠

ـ قد ترحب ثم تسىء الى الولد حين يقيم عندها ٠

ـ يا ستى لماذا نقدر البلاء قبل وقوعه ، وعلى كل حال اننا نستطيع دائما أن نسترد احمد ٠٠ أليس كذلك ؟

وسكتت الحاجة وسكت الحاج وأخذ يشرب قهوته فى هدوء ٠

وقالت :

ـ هل ستأخذ أحمد معك ؟

ـ لماذا ؟

ـ لا لزوم ٠

ـ أبدا ٠٠٠ اننى سأسألها فقط ٠

وعاد الصمت الى الزوجين لا يقطعه الا رشفات الحاج والى للقهوة ٠

***

كان الوقت ضحى حين بلغ الحاج والى منزل ابنه ، وهكذا كان واثقا انه لن يجد

محمدا بالمنزل ، وصعد الحاج والى درجات السلم فى هدوء بطىء حتى بلغ الشقة التى يسكن فيها محمد ومد يده يريد أن يدق الجرس ولكنه فوجىء بزجاج الباب المصنفر يكشف له عن منظر أخذ له ٠٠٠

ورأى الحاج والى شبحين يتعانقان أحدهما لرجل وآخر لامرأة شعرها مرسل على كتفيها وطالت القبلة والحاج واقف ذاهلا عن نفسه يده نصف ممتدة الى الجرس وعيناه شاخصتان الى ما يرى وفمه مفتوح من الدهشة ٠ لماذا لم يذهب محمد الى المستشفى حتى الآن ؟ وانتهت القبلة وفتح الباب ٠٠٠ لم يكن محمد فى بيته ٠ كان عزت زكى ٠٠٠ ولم يكن الحاج والى يعرفه ولم يكن هو يعرف الحاج والى ، وقالت آمال فى لعثمة :

ـ أهلا عم الحاج ٠

وظل الحاج صامتا وأدرك عزت الموقف الذى يواجهه فنظر قليلا الى الحاج ثم وثب يعدو درجات السلم فى سرعة مجنونة ٠

وقالت آمال :

ـ تفضل ٠

ودون أن يجيب الحاج والى أخذ سمته الى درجات السلم والضباب يغشى طريقه والذهول يأخذ عليه مسالك تفكيره ٠

ظل الحاج والى سائرا بجانب بحر مويس يغمض عينيه ويفتحها وكأنما يريد أن يمحو ما رأى فتزداد الصورة التصاقا بعينيه وذهنه وكيانه كله ٠٠٠ ماذا يفعل ٠٠ أيخبر ابنه ٠٠ انه اذا فعل فكأنه قتله ٠٠ فان الزوج يظل محتفظا برجولته حتى يعـرف ان زوجته تعبث بشرفه ٠٠ المعـرفة هى الحد الفاصـل بين الشرف وعدم الشرف ٠٠ فكيف يقول لولده وحيده انه بلا شرف ٠٠ أيقول لأبيها وماذا يستطيع أبوها أن يفعل ووثب الى ذهنه فى هذه اللحظة موافقة أبيها السريعة على زواجهـا من محمد وهو من كان زوجا لأخرى قبلها وله منها ولد ٠٠ لا بد أن زين العابدين يعرف عن أخلاق ابنته عوجا ٠٠ ماذا يفعل أيقول له ٠٠ لا ٠٠ وجد نفسه يحنو على ابنه أن يعرف أحد حتى ولو كان أبوها ان شرف ابنه مهين مضاع ٠٠ ماذا يفعل اذن ؟ عاد أدراجه الى بيت ابنه ودق الجرس وفتحت له آمال الباب ودخل الى حجرة الجلوس ودخلت من خلفه وأغلقت الباب وظل ناظرا اليها فترة طويلة ثم قال :

ـ لمـاذا ؟

وصمتت وصمت حينا ثم قال :

ـ ماذا أفعل الآن ٠٠٠ أقول لأبيك ؟

وعاد الى ذهنها ذلك السجن الذى فرض عليها فى القرية فقالت فى سرعة :

ـ لا ٠

ـ اذن ماذا أفعل ٠٠٠ ماذا يمكن أن أفعل ٠٠٠ لو قلت لمحمد قتلته ٠

وأطرقت آمال صامتة لا تدرى ماذا تقول وعادت الى نفسها تلك الوساوس من وحدتها بالقرية فهى تقول دون وعى :

ـ لا تقل لأبى ٠

ـ وأسكت ٠٠٠ أسكت كأنى لم أر شرف ابنى يلطخ على يديك ٠٠٠ أسكت يا ست آمال ؟

وصمتت آمال لحظات ثم قالت :

ـ انها أول مرة ٠

ـ أتظنين ان هذا يهمنى كثيرا ٠٠٠ ان مجرد عزمك على هذا يكفى ٠

وساد الصمت ٠٠٠ وعاد الحاج يقول :

ـ من هو ؟

ـ المهندس الذى يسكن بالطابق الأعلى ٠

وعاد يقول وكأنه لم يسمع الاجابة :

ـ ماذا أفعل ـ ماذا أفعل ؟

وقام عن كرسيه وتركها واقفة وقصد الى الباب الخارجى وأخذ سبيله الى الطريق يمشى بجانب بحر مويس والضباب يغطى طريقه ٠٠٠ ألهذا كنت حريصا على أن يكون لى أولاد ٠٠ ألهذا نجىء بهم ٠٠ ماذا أفعل ٠٠ ماذا أفعل ؟

لم يدر لماذا أراد أن يذهب الى محمد ويراه ٠٠٠ أحس كأنه يريد أن يستوثق أنه لا يعرف عن زوجته شيئا ، أو أحس أن ابنه جريح وانه لا بد أن يكون بجانبه ، لا يدرى أى دافع خالجه وانما أحس أنه يريد أن يرى ابنه ، ووجد قدميه تقودانه الى المستشفى الأميرى التى تقع على بحر مويس ذلك النهر الذى صاحبه منذ دخل فى غمار نكبته ولم يفارقه ، ظل سائرا بجانب النهر حتى وجد نفسه أمام باب المستشفى ومع ظهور الباب طالعه سؤال لم يفكر فيه ٠٠٠ ماذا هو قائل لابنه ، أى سبب سيخلقه ليبرر هذه الزيارة ؟ ولم تطل حيرته ٠٠٠ فسرعان ما قفز أحمد الى ذهنه ٠ ودخل الى المستشفى وسرعان ما استدعى له محمد الذى قبل يد أبيه فى محاولة جادة أن يخفى دهشة من الزيارة ٠ ونظر الأب الى ابنه وهو يقبل يده وأحس نحوه حبا كبيرا ووجد يده تربت ظهره فى حنان وتشبثت يده لحظة بجاكتة محمد فقد خالجت نفسه رغبة ملحة أن يعانق ولده ثم استيقظ من خواجه ٠٠٠ فما تعود أن يعانق ابنه كلما لقيه ٠٠٠ وانفرجت أصابعه عن الجاكتة وأمسك بيد ولده وقاده الى الكرسى وجلسا ٠

ـ كنت فى البندر وخطر لى أن أراك ٠

ولم يكف هذا السبب عند محمد وأحس أن أباه ما زال يخفى سببا آخر فنظر اليه وحب الاستطلاع لا يريد أن يبارح عيناه وقال :

ـ أهلا وسهلا ... شرفت .

ـ وهناك موضوع قلت أكلمك فيه .

ـ أنا تحت أمرك يابا .

ـ أحمد ..

وسكت الأب وسكت محمد وفكر الحاج والى ان أحمد ربما يكون رقيبا على آمال يمنعها ... وقبل ان يسترسل فى تفكيره . نظر الى محمد وكانما خشى أن يكون قد أبصر ما يفكر فيه فقال دون ريث تفكير :

ـ انت تعلم ان موعد دخوله المدرسة الابتدائية قد حل .

ـ نعم .

ـ أخاف عليه من الصباح الباكر وبرده فانا لا أنسى يوما مرضت انت فيه بالالتهاب الرئوى وتعلقت أنفاسنا بأبواب السماء حتى شفاك الله .

ـ أنا تحت أمرك .

ـ يخيل الى انه لو أقام معك لكان هذا أنسب له .

ـ أنا طبعا ...

وقاطعه أبوه .

ـ وطبعا أنا ساقدر زيادة التكاليف عليك .

ـ انت لا تؤخر عنى طلبا .

ـ وهل لى الا أنت يا ابنى .

وأحس سكينا حادة وهو يقول هذا وعاوده الضباب .. أترانى ظلمتك حين جئت بك الى الدنيا ولم ير محمد ما يعانيه أبوه وكان يفكر فيما يريد أن يقول وهوم الصمت على الاثنين لحظات ثم تنحنح محمد وقال :

ـ الحقيقة اننى أطمئن على احمد مع أمى الحاجة أكثر مما لو كان عندى فى البيت .

ونظر الأب مليا الى ولده وأدرك ما يريد ابنه أن يقول ثم قال :

ـ لعلك على حق ... طيب أقوم أنا .

ـ لم تشرب القهوة .

ـ وراءك شغلك ... سلام عليكم .

ـ مع السلامة يابا .

وقبل يده وهو يسلم عليه ... وخرج الحاج والى مرة أخرى الى الطريق وبحر مويس .. لم يعد موضوع احمد يهمه فى ذاته .. وانما كان يريد أن يرى محمدا

وقد رآه ٠٠٠ وسار فى الطريق وعاد الضباب يغشى سبيله ولكنه نوع آخر من الضباب ٠٠ رفع الحاج والى يده الى عينه ومسح الدموع التى تراكمت على أهدابه ٠

- ٣٤ -

دأب الحاج والى منذ ذلك اليوم أن يزور بيت ابنته فى كل وقت من أوقات النهار ٠ ودهش محمد لهذه الزيارات المتكاثرة ولكن آمال عرفت ما يريد الحاج والى أن يفرضه عليها من رقابة ٠

وكان الحاج والى يعتبر نفسه المسئول وحده عما يجرى فى بيت محمد فقد حمل السر وحده لم يبحه لأحد ولا حتى لزوجته حمل السر وحده شر حمل عرفه فى حياته الطويلة ٠٠٠ كان يحس به سرا أشد وطأة من الحياة نفسها ٠٠٠ وكان كلما ضاق بسره قصد الى الزقازيق وداهم بيت محمد ٠٠ وقليلا ما كان يجد محمدا وما كان هذا يعنيه فى شيء ، بل كان حين لا يجده يدخل الى البيت ويظل صامتا لا يتحدث وتحضر له آمال القهوة ويشربها ويظل ناظرا اليها طوال جلسته لا ينطق بل يترك عينيه تقولان وقد كانتا تقولان كثيرا وكانت آمال تستمع الى هذا الحديث الصامت فينصب على قلبها كأنه المدى القاطعة ٠ وتحاول ألا تنظر الى الحاج ولكن عينيه الهادرتين بالحديث ما تلبثان أن تفرضا عليها أن تنظر اليهما لترى وتسمع الحديث الصامت وتواصل المدى عملها فى قلبها بل فى كيانها جميعا ٠

***

ويشرب الحاج والى قهوته ويطلق تنهيدة ينتزعها من أعماق آلامه ويقوم الى الباب لا يسلم ٠ فاذا أقفلت آمال الباب من خلفه تهاوت فى بكاء صاحب ثائر ثورة لا تدرى كيف تنفس عنها ٠

وفى يوم بينما الحاج والى جالس معها وعيناه مثبتتان عليها قالت له فجأة :

ـ عم الحاج ٠

ولم يجب فواصلت الحديث ٠

ـ أتستطيع أن تقتلنى ؟

ولم يجب فواصلت الحديث ٠

ـ كنت قد هددتنى أن تقول لأبى ورجوتك ألا تفعل ٠٠٠ أتراك اذا قلت له تكف عن هذه النظرات ٠٠٠ قل له ٠٠٠ قل له ٠٠ فقط كف عن هذه النظرات ٠

ـ وانخرطت فى البكاء ولم يقل الحاج والى شيئا وانما قام وانصرف شأنه دائما ٠

وفى يوم عرض عليها محمد أن يسافرا الى القاهرة وكأنما أنبتت كلمة القاهرة فكرة فى نفسها لم تكن تخطر لها ٠٠٠

وفى القطار قالت لمحمد :

ـ انت الآن دكتور معروف فى الزقازيق يا محمد ؟

وأحس محمد الزهو وهو يقول :

ـ الحمد لله ٠

ـ صاحبتى ناهد قالت لى انها تعرف زبائن من مصر جاءوا اليك فى الزقازيق لتعالجهم ٠

ـ صحيح ؟

ـ ألم تكن تعرف ؟

ـ أنا لا أسأل الزبائن من أين جاءوا ٠

ـ ناهد قالت لى هذا ٠٠٠ وقد ذكرت لى أسماءهم ولكنى نسيتها ٠

ـ اذن فزوجك رجل مهم ٠

ـ انت طيب ، محمد ليس فيك الا عيب واحد ٠

ـ أعرفه ٠٠٠ انه يسليني يا آمال ٠٠٠ يجعلنى أنسى كل ما ألاقيه أثناء النهار ٠٠

ـ يا ترى يا محمد لو انتقلنا الى مصر ٠

ـ ماذا ؟

ـ ان اسمك كبير الآن ٠٠٠ ستجد زبائن أكثر من زبائن الزقازيق وقد تجد تسلية أخرى ٠

ـ أما الزبائن فلا أعلم ٠٠٠ مصر واسعة وأخشى أن أضيع فيها وسط الزحام ، أما التسلية الأخرى فاشك كثيرا أن أجد شيئا يسليني عن الورق يا آمال ٠

ـ نجرب ٠

ـ ألا تخشين أن تكلفنا التجربة زبائن الزقازيق ولا تعوضنا بزبائن مصر ٠

نحن والحمد لله لا نحتاج للمال انت وحيد أبيك وأنا وحيدة أبى ومرتبك يكفينا ٠٠ فما الضرر أن تجرب ٠

ـ على شرط ٠٠

ـ قل شروطك كلها ٠

ـ أن تفقدى الأمل فى أن أترك لعب الورق ٠

ـ لا بأس ٠٠٠ يكفى أن أكون فى القاهرة وأتنفس ٠

وأطلقت تنهيدة عميقة واحست انها أخيرا تستطيع فعلا أن تتنفس ٠

ـ ٣٥ ـ

حين أبلغ محمد أباه انه نقل الى القاهرة صمت الأب طويلا حتى اضطر محمد آخر الأمر أن يقول :

ـ ماذا يا أبا ... أيغضبك هذا ؟

وظل الحاج والى صامتا فترة أخرى ثم قال فجأة وقد عاوده شعور بالخوف أن يرى ابنه الأفكار التى تدور برأسه .

ـ وما الداعى لهذا النقل ؟

ـ المجال هناك أوسع .

ـ هنا يعرفك الناس .

ـ وسيعرفنى الناس هناك .

ولم يكن الحاج والى يحتاج الى كثير تفكير ليدرك أن آمال هى التى الحت لاتمام هذا النقل ولكنه لم يستطع أن يقول شيئا الا ...

ـ مصر واسعة يا محمد .

ـ والناس فيها كثيرون .

ـ أخشى أن تضيع هناك بين الأطباء بعد أن أصبحت هنا معروفا .

ـ ألا تثق فى ياأبا .

وصمت الحاج والى قليلا ثم قال :

ـ بل انى أثق فيك كل الثقة .

وعاد الى الصمت وهوم السكون عليهما لحظات ثم قال :

ـ يا محمد خذ بالك من ...

ولم يكمل .

وقال محمد :

ـ ممن يا أبى ؟

وتنهد الأب ثم قال :

ـ من صحتك يا ابنى .

وفهم محمد ما يقصد أبوه أو خيل اليه انه فهم فأطرق فى استخذاء فقال الأب :

ـ انك تسهر كثيرا ولا تراعى ...

وصمت محمد وأكمل بعد تنهيدة عميقة :

ـ صحتك .

وعاد الصمت مرة أخرى يحلق على الأب وابنه ثم قال الحاج والى :

ـ انك تحتاج لفلوس للنقل ولانشاء عيادة .

وسكت محمد وقال الأب :

ـ خذ ... معى الآن مائة جنيه وان احتجت لزيادة ارسل لى .

ـ أطال الله عمرك يا أبا ٠٠٠

وانصرف محمد وظل الأب وحيدا وحين قدمت اليه الحاجة بمبه وجدته ساهما مفكرا ولم تحاول أن تسأله عما به ، بل تركت الغرفة وعاد هو الى وحدته وان كان لم يفارقها ٠٠٠ لماذا تفعلين هذا بنا يا آمال ٠٠٠ لماذا تفعلين هذا بنا ٠٠ ؟

* * *

سرعان ما استعاد محمد صلاته بأصدقاء الكلية فقد كان يتصل بهم كلما جاء الى القاهرة فحين نقل اليها كان على علم بمكان أصدقائه جميعا ٠ وفى مقدمتهم مجدى عبد العزيز الذى أصبح طبيبا بمستشفى الملك حيث نقل محمد وهكذا التام الصديقان مرة أخرى تجمع بينهما الذكريات القديمة والزمالة فى المستشفى ٠

وما أن استقر المقام بمحمد وآمال وسوسن فى القاهرة حتى أخذ محمد يبحث عن طلبتين ٠ الطلبة الأولى رفقة يشاركونه اللعب والطلبة الثانية شقة تصلح عيادة له ٠ وقد حقق له مجدى الطلبتين كلتيهما ٠ فان يكن مجدى غير هاو للعب القمار الا انه يجلس مع اللاعبين كل ليلة فى نادى القاهرة قانعا بالمشاهدة عن الاشتراك فى اللعب وسرعان ما انضم محمد الى هؤلاء اللاعبين واثقا أن ليس بينهم نصاب يغش فى اللعب ٠

كما استطاع مجدى بما له من صلات ممتدة فى القاهرة أن يعثر لمحمد على شقة مناسبة فى ميدان الأزهار لتكون عيادة له ٠

أما آمال فانها قبل أن يستقر بها المقام فى القاهرة كلمت صديقتها ناهد وما أسرع ما تم بينهما اللقاء ٠

ـ أخيرا يا آمال ٠٠٠ أخيرا عدت الى مصر ٠

ـ انت لا تعرفين كم كنت أشتاق الى مصر واليك ٠

ـ حدثينى عن أيامك فى الزقازيق ٠

ـ أيام سوداء ٠٠٠ لا أراك الله مثلها ٠

ساعوضك عنها أياما بيضاء مشرقة ٠

ـ أحتاج الى سنين طويلة لأعوض ما شفته من عذاب ٠

ـ هل كان لك أصدقاء فى الزقازيق ؟

ـ زوجات من الموظفين ٠

ـ لا ، أنا أقصد أصدقاء لا صديقات ٠

ـ اسكتى ٠

ـ وراء اسكتى حكاية ٠

وقصت آمال قصتها مع صديقها الوحيد عزت وما فعله معها الحاج والى ٠ وحين انتهت قالت ناهد :

ـ عبيطة ٠

ـ وماذا كنت أفعل ؟

ـ لماذا يكون هذا فى بيتك ؟

ـ وأين يمكن أن يكون ؟

ـ انت عبيطة ٠

ـ هل لك أصدقاء ؟

ـ عدد شعر رأسى ٠

ـ وزوجك ؟

ـ يسهر فى الخارج وأسهر فى الخارج ٠٠٠ ألا يسهر زوجك ؟

ـ يسهر ٠

ـ ساعوضك عن أيام الزقازيق ٠

ـ سنرى ٠

ـ ٣٦ ـ

ذهب محمد الى نادى القاهرة فى الساعة التاسعة وكان مجدى هناك وتناولا العشاء معا وقاما ينتظران اللاعبين فى حجرة اللعب وجاء أحد اللاعبين وقال لمحمد :

ـ يظهر انه لا يمكن عمل برتيتة الليلة ٠

ـ لماذا ؟

ـ يسرى وحمدى سافرا يعزيان زميلا لهما فى المنصورة وقال مجدى لمحمد :

ـ تأخذ أجازة ليلة ٠

وقال محمد فى ضيق :

وماذا نفعل ؟

وقال مجدى فجأة :

ـ عندى فكرة ٠٠٠ ألا تحب أن ترى بعض الذكريات ٠

ـ الحقيقة يا مجدى ألا شىء عندى يسليني مثل اللعب ٠

ـ بل عندى أنا ما يسليك أكثر من اللعب ٠

ـ يا شيخ ٠٠

ـ اسمع كلامى ٠



ـ ماذا ؟

ـ أتعرف عزيزة ؟

ـ الله يرحم أيامها ٠

ـ انها الآن فى عزها ٠

ـ ماذا ؟

ـ لها بيت يجتمع فيه السيدات من الطبقة الراقية ليلتقوا بآخرين ٠٠٠ الليلة هناك ليلة من ألف ليلة ٠٠٠ مرح وضحك وسرور ٠٠٠ لو ذهبت مرة نسيت القمار الى الأبد ٠

ـ يا عم أنا متزوج وليس لى فى النسوان ٠

ـ وأنا أيضا متزوج ٠٠٠ اننا سنجلس فقط نضحك ونلهو ثم نروح ٠

ـ وماذا تستفيد منا اذا كنا لن ندفع شيئا ؟

ـ ليس من الضرورى أن يدفع جميع من يذهب اليها ۰۰۰ فان القلة التى تدفع تعوضها عن جميع الآخرين ۰۰۰ هيه ماذا قلت ؟

ـ ما ترى ۰

وفى غير حماسة رافق محمد صديقه مجدى الى بيت عزيزة ۰۰۰ وكانت الساعة قد جاوزت العاشرة بقليل حين دق مجدى جرس البيت وفتح الباب عن ضجيج صاخب ودخل مجدى وهو يجر محمدا جرا ۰۰

وحين بلغا أول الردهة رأيا مصادر الضجيج نساء عاريات الصدر يطلقن الضحكات المعربدة وقد التفت حول صدورهن أيدى رجال تراوحت أعمارهم بين الشباب والكهولة والشيخوخة ۰ وقال مجدى لصديقه :

ـ انتظر لحظة حتى أنادى عزيزة ۰

وتركه وحيدا ودلف داخل الشقة ولم يجد محمد ما يفعله الا أن يطالع الوجوه فراح يمر بها ۰ وفجأة تسمرت عيناه على زوجته آمال بين يدى رجل من هؤلاء ۰۰۰ لم يصدق ۰۰ وتفرس ۰۰ انها هى ۰۰ وقد رآته وانتفضت من بين ذراع رفيقها وأرادت أن تفعل شيئا ، لم تكن تدرى ماتريد أن تفعل ولا درى هو وانما فى لحظة حزم أمره على شىء واندفع نحو باب الخروج لاهثا ۰۰۰ وخرج الى الطريق ۰۰۰ أيقتلها ۰۰ زوجة داعرة وزوج قاتل وتحل الجناية على سوسن وأحمد ۰۰۰ حبيبى أحمد ۰۰۰ ماذا يفعل ۰۰۰ وجد نفسه يركب سيارة أجرة ويأمر السائق أن ينطلق الى المنيرة ۰۰ ماذا يفعل فى البيت۰۰۰نزل من السيارة وطرق باب البواب وخرج اليه البواب نصف نائم ۰۰۰ وسأله محمد :

ـ أتعرف مكان المأذون هنا ؟

وقال البواب :

ـ نعم ۰

وقال محمد فى حزم :

ـ تعالى معى ۰

وطرق باب المأذون طرقا ملحا حتى فتح ودخل محمد والبواب وسائق السيارة الأجرة ۰ وبعد دقائق كانت آمال طالقا ۰

وعاد محمد الى البيت وفتح الباب وجد « آمال » بالبهو وقامت تجرى اليه ۰

ـ محمد ۰۰

ـ أنت طالق وهذه ورقتك ۰

ورمى الورقة على الأرض وأمسكت آمال يده ۰

ـ أرجوك ۰ أبوس يدك ۰

ونتر محمد يدها وجرى الى السلم ٠ ووجد سائق السيارة الأجرة ما زال واقفا فسأله :

ــ أتذهب الى الزقازيق ؟

ــ الآن ؟

ــ نعم ٠

ــ أذهب ٠

وفى الساعة الثالثة من صباح اليوم التالى كان محمد يطرق باب أبيه وفتحت الحاجة بمبه الباب وارتاعت حين رأت محمدا زائغ النظرات حائرا ملتاعا ودخل محمد ٠

ــ أين أبى ؟

وقال الحاج والى وهو يقف على باب حجرته :

ــ أهلا محمد ٠٠ خير يا ابنى ؟ ٠

ــ أبا ٠٠٠ أبا

واقترب الحاج والى من ابنه واحتضنه بذراعه اليمين وسار به الى الأريكة وجلسا ٠

ــ مالك يا محمد ؟

وانفجر محمد ٠

ــ طلقتها يا ابا ٠٠٠ طلقتها ٠٠٠ طلقتها ٠

وأطرق الحاج والى قليلا وراح الضباب يتصاعد أمام عينيه ولم يجد شيئا يقوله الا :

ــ خيرا ان شاء الله ٠٠٠ خيرا ان شاء الله ٠

❋ ❋ ❋

لم ينم محمد ليلته وانما راح يتقلب فى فراشه حتى آذن الفجر بشروق وقام الى البهو وجلس به وحيدا فلم تطل وحدته فقد قام أبوه الى صلاة الفجر ٠٠٠ وانتظر محمد حتى ختم أبوه الصلاة فقال له :

ــ أبا ٠٠٠ أريد أحمد معى ٠

ــ انت تسهر فى الخارج واحمد سيكون وحده ولن تراقبه ٠

ــ أريد أحمد معى يا ابا ولن أسهر ٠٠٠ سأعيش له يا أبا ٠

ــ ماشئت يا بنى ٠٠٠ ما شئت ٠

وصحب الحاج والى ابنه وحفيده الى القطار فركباه وحين عاد وحيدا الى طريق القرية لم يتصاعد الضباب أمام عينيه ٠٠٠ أحس كأن الضباب قد ركب القطار مع ولده وحفيده ٠٠ لقد آن لمحمد أن يحمل العبء الذى حملت ٠٠ وتدور الحياة ٠

الخبر المثير

قصة

بقلم : محمد القرش

في لهفة تناولت الجريدة من بائع الصحف .. أسرعت بالقاء نظرة على العنوان الاحمر الضخم المثير .. كان أملي كبيرا في أن أجد العنوان الذي أبغيه .. سابقتني عيناي على بقية عناوين الصفحة الأولى .. الأمل الذي يملأ جوانحي يتسرب قطرة فقطرة وأنا أكاد أصل لآخر الصفحة .. مع ذلك لا يزال قلبي يخفق ببقية من أمل .. خطر لي أن الخبر منشور في الداخل .. وفي صفحة كاملة على الأقل .. هدأ روعي بعض الشيء .. لقد قضيت الليل بطوله أتخيل تبويب هذه الصفحة .. كدت أقلب الصفحة الأولى حينما وقعت أنظاري على الخبر .. في آخر العمود الأخير .. بحروف صغيرة وفي سطور قلائل .. مع ذلك لمعت عيناي وأسرعت نبضاتي .. نظراتي تجري على السطور مسرعة .. أمل خفيف يراودني أن أجد بقية الخبر منشورا في الداخل .. احتضر أملي وأنا أصل لآخر كلمة .. دهشة شديدة استولت علي وانتابتني خيبة أمل مريرة .. هذا الحدث الذي توقعت له صفحة كاملة .. لا يحظى الا بهذه السطور التافهة والفرصة التي انتظرتها سنوات طويلة من عمري ما اتيحت لي حتى تعمدوا أن يتجاهلوني كأي شخص نكرة وكأني لم أفعل شيئا يشار اليه ببنان الفخر .. كنت دائما أحلم بعمل بطولي يرغم الناس على تقديري وألمع في عيونهم نظرات الاعجاب .. في صباي طالما تمنيت أن تشتعل النيران في منزلنا .. وتتأجج اللهب عنيفا مزمجرا .. ويعجز رجال الاطفاء عن اقتحامه .. وكل أهالي الحي متجمعون يراقبون النيران .. ثم أندفع من بينهم كأحد أبطال الأساطير وأقتحم الأتون المشتعل .. لأنقذها .. بنت الجيران .. وأحملها بين أحضاني وأعود بها .. ويحملني القوم على أكتافهم وهتافات الجماهير تشق عنان السماء.. وظل نفس الحلم يراودني أعواما عديدة وان اتخذ صورا أخرى..

وحققت حلمي..والفرحة التي رتعت بين جوانحي لا توصف .. ولكنها والأسفاه لم تكتمل .. وأنتم السبب.. في شبه اجماع خفي بينكم أجمعتم على أن تحرموني من اكليل المجد لأنكم قساة ظلمة .. هل تتعجبون من اتهامي لكم ؟ .. أتظنون بي الجنون لأنني أتهمكم دون معرفة ؟ .. انني أعرفكم واحدا واحدا وان كنتم لا تعرفونني .. وسأثبت لكم صحة اتهامي وخطأ ظنونكم .. والآن لعل بكم فضولا لأن تعرفوا

ما حدث ٠٠ حسنا سأرويه لكم ٠٠وان كان شعورى بالغيظ منكم لنكران الجميل يطغى على مشاعرى الأخرى ٠٠ حتى زهوى بما حدث ٠

سيارة الأتوبيس رقم ٢٣ منطلقة بأقصى سرعتها كالعادة مزدحمة تماما بالركاب ٠٠ فجأة صاح أحد ركاب الدرجة الأولى بفزع : السائق مات ٠

وقنبلة من الذعر انفجرت بين الركاب ٠٠ بلا وعى اندفع ركاب الدرجة الأولى فى جنون متكأكأين على المنفذ الموصل بين الدرجتين ٠٠ كنت فى هذه اللحظة أهم باعطاء أحد الركاب بقية نقوده حينما هرع الراكب فى هلع ثم دفعنى فى عنف دون أن ينتظر الباقى منفلتا صوب آخر العربة ٠٠ ولولا أن جلست مكانه بسرعة لجرفنى تيار الراكبين الفارين من مقدمة العربة ٠٠ دلفت الى الدرجة الأولى ٠٠ كانت المقاعد خالية تماما ٠٠ وقعت أنظارى على الأسطى «بشاى» وقد انكفأت رأسه على عجلة القيادة وتهدلت ذراعه اليمنى بجواره متأرجحة مع حركة العربة ٠٠والسيارة تهدر كوحش انفلت من عقاله وأضواء الطريق تلمع ٠٠ وأمامنا وبجوارنا العربات منطلقة كسيل جارف ٠٠ من بعيد لمحت اشارة المرور الخضراء تتحول الى اللون الأصفر وتوشك أن تصبح حمراء ٠٠ والعربات أمامنا تتمهل لتقف ٠٠ الاصطدام الرهيب على وشك أن يحدث حتما ٠٠ ماذا أفعل ؟ ٠٠ اننى لا أعرف القيادة ولا فائدة من الاستنجاد بأحد الركاب فلو كان أحدهم يعرف القيادة لما انتظر حتى الآن ٠٠ خطر لى أن أقفز من السيارة ٠٠ نفضت عن خواطرى بسرعة ٠٠ ودون ماتفكير كنت بجوار الاسطى بشاى ٠٠دفعته بجسدى ناحية اليسار ويداى على عجلة القيادة واحتللت مكانه ٠٠ وكانت أول مرة فى حياتى أجلس على مقعد قيادة سيارة سائرة ٠٠٠ لا تسألونى كيف تمكنت من ايقافها ٠٠ وعلى بعد سنتيمترات قلائل من مؤخرات العربات الواقفة أمام الاشارة الحمراء ٠٠ أنا نفسى لا أعلم ٠٠ كانت قطرات العرق الباردة تنبع من كل مسام جسدى ٠٠ شعور بالانبهار والدهشة يسيطران على ٠٠ كيف أمكننى ذلك ؟ ٠٠ لعل لحظات الفراغ التى أختلسها وأقف فيها بجوار السائق لأحتسى قدحا من الشاى أو أدخن سيجارة أو لأثرثر معه ٠٠ والتى كنتم تضيقون بها وتنظرون لنا شذرا ٠٠ هى السبب ٠٠ كنت أرقب ما يفعله بلا وعى منى ٠٠ وفعلت ما يفعله بلا وعى أيضا ٠٠ ربما كنت أفضل أن أكون سائقا ٠٠ المهم ٠٠ ما انتظمت أنفاسى وهدأ روعى ٠٠ حتى انتظرت فى زهو وشموخ ٠٠ قلائد المديح والثناء التى ستطوق عنقى ٠٠ مضت لحظات ولم يحدث ما أتوقعه ٠٠ سوى نفير العربات خلفى تعوى فى جنون لأفسح لها الطريق ٠٠ وكان هذا آخر ما أفعله فى حياتى ٠٠ واذا بسائق عربة أجرة يقف أمام باب العربة وينهال على بسبابه كالمعهود من كل سائق سيارة ٠٠ تخليت عن مقعدى وأشرت الى جسد الاسطى بشاى باصبعى ولم أنبس ببنت شفه ٠٠ والتفت نحو داخل العربة ٠٠ كان الجميع مشغولين عنى بأنفسهم ٠٠ بكاء ونشيج وضحكات وقهقهات هستيرية ٠٠ ورجال وسيدات وأطفال يتعانقون ٠٠ ومن حضر منهم بدافع

الفضول كانت وجوههم الشاحبة التى زادها ضوء العربة اصفرارا تعود اليها الدماء بالتدريج ٠٠ ورغم مختلف التعليقات عما حدث فقد نسونى جميعا ٠٠ ومع ذلك كنت سعيدا بنفسى ٠٠ فى داخلى فرحة تغمرنى ٠٠ فقد كنت صاحب المعجزة التى حدثت ٠٠ أنا وحدى الذى أنقذت كل هؤلاء ٠٠ غمرت عينى غشاوة من الدمع وأنا أرقب كل هذه الانفعالات ٠٠ أحسست أننى شىء ما ٠٠ لأننى حققت حلم عمرى وأصبحت بطلا ٠٠ وهؤلاء الذين نسونى لان كلا منهم كان مشغولا بنفسه ٠٠٠ لم ألمهم والتمست لهم العذر ٠٠ ان الصدمة أفقدتهم الرشد فلم ينتبهوا لايفائى حقى من الشكر ٠٠ وحتما سأنال حقى من تقدير الصحافة ٠٠ ستتحدث الجرائد عنى بما يشبعنى ٠٠ سأصبح شهيرا فى ساعات ٠٠ صورتى منشورة فى الصفحة الأولى ٠٠ هل أخطأت فى أمنيتى ؟ ٠٠ هل تلوموننى لأننى أبحث عن التقدير ؟ ٠٠

كل منا فى حاجة ملحة الى التقدير ولست وحدى ٠٠ فى أعماقنا رغبة دفينة وظمأ دائم يلح علينا منذ طفولتنا حتى كهولتنا ٠٠ فى كل أعمالنا نبحث عن الاهتمام بشىء ٠٠

وقضيت ليلتى مع أحلامى الذهبية فى انتظار الصباح ٠٠ وكما تعرفون ٠٠ لم يحدث شىء ٠٠ وكأن الجميع قد اتفقوا على ذلك ٠ حتى اسمى أغفلوه وذكروا فقط اسم المرحوم الاسطى بشاى ٠٠ أجمعت كل الصحف على تجاهل ٠٠ عشرات الركاب ٠٠ النساء والأطفال ٠٠ الصبية والكهول ٠٠ كلهم نسونى ٠٠ لم يشد على يدى أحد منهم ٠٠ لم تدغدغ أذنى كلمة شكر من احدهم ٠٠ والتمست لهم العذر ٠٠ ولكن رجال الصحافة ٠٠ والصحف التى أهملت الخبر المثير ٠٠ ما عذرهم ؟ ٠٠ لماذا تجاهلوننى ؟ ٠٠ هل يوجد أشد اثارة مما حدث ؟ ٠٠ أكانوا ينتظرون حدوث مذبحة مروعة ؟ ٠٠ لتكتب أقلامهم عن عشرات القتلى والمصابين ٠٠ ممن تهشمت عظامهم وبترت أعضاؤهم ؟

هل هذا هو الخبر الذى ينتظرونه ؟ ٠٠ حتى يملأوا أعمدتهم بما تهلع له القلوب وتنكوى به النفوس ٠

لماذا نهتم بالموت فقط ولا نهتم بالحياة ؟ ٠٠ الحياة الحلوة التى كتبت للعشرات ٠٠ ولكل منهم قصة ٠٠ ولعل فيهم من سيذكره التاريخ ٠٠ وربما كان منهم أحد العباقرة الذى تفيد أبحاثه البشرية ٠٠ ولكنه فى نظرهم شىء لا يثير الاهتمام ٠٠ لو تصادف وحدث أن انزلقت قدم أحد الركاب والسيارة تتحرك ٠٠ أو حدث احتكاك مع راكب ما ٠٠ لقامت القيامة ٠٠ الصحف والاذاعة ٠٠ والكل يسلقوننى بألسنة حداد ٠٠ ولأصبحت عدو الشعب رقم واحد ٠

وساءلت نفسى ما السر ؟ ٠٠ أهو الزحام البغيض الذى تلاقون منه العناء كل يوم فى ذهابكم وعودتكم مرتين أو أكثر يوميا؟ فهذه الدقائق التى تقضونها فى الركوب تثير أعصابكم وتجعلها سريعة الالتهاب ٠٠ فما بالكم بى وأنا أقضى ساعات طويلة كل يوم ٠٠ بل عمرى بأكمله فى هذا الزحام ٠٠ شاقا طريقى من مقدمة العربة لمؤخرتها ٠٠ أغلبكم لا يقدم لى الا ورقات مالية ٠٠

واذا ما أمهلت أحدكم حتى يتجمع لى بقية نقوده ·· ما تمضى لحظات حتى يعلو صوته صارخا مطالبا بالباقى ولو كان باقيا الكثير على محطة نزوله ·· ويجدها البعض فرصة مواتية يتحدث فيها مع من حوله عن تحايلى وسعة ذمتى وبراعتى فى الاغتصاب ·· وحكايات تروى وكأنى أرسين لوبين·· وسيف الاتهام معلق فوق رأسى دائما·· نداؤكم لى اصطبغت نبراته برنة الاستخفاف ·· أغلب ألفاظكم الموجهة لى حادة ·· وفى استفزاز ·· لأقل التباس تتجهم الوجوه وتلتهب الكلمات ·· ونسيتم اننى بشر مثلكم ·· وان أعصابى تفلت منى ايضا ·· اننى لن أدعى أننى ملاك معصوم من الخطأ ·· اننى أحيانا أستحق هذه المعاملة منكم ·· ولكننى غالبا أكون الضحية ·· الكثير منكم لا يرى سوى يدى الممتدة لتعطيه التذاكر أو تتناول منه النقود·· وان ألقى أحدكم نظرة على فبلا اكتراث وفى شرود ·· فقط تتفحصوننى بأبصاركم وترمقوننى بنظرات الغضب والنفور اذا حدث شيء مما تألفون ·· ومع أننى حاولت ولم أكف عن المحاولة أبدا فى أن أتقرب اليكم ·· ابتسامتى بلا انقطاع ·· ألفاظى رقيقة غالبا ·· سريع التجاوب مع من يحب المداعبة منكم ·· وأول من يضحك ولو كنت الهدف ·· وحينما نشترك فى الضحك جميعا ·· حينئذ أشعر أننى واحد منكم ·· وأحبكم جميعا وأود لو تبادلوننى مشاعرى ·· ولكن أعصابكم المرهفة وسرعة غضبكم ·· وذلك الحاجز الخفى القائم بيننا ·· هو الحائل الذى يجعل التفاهم بيننا عسيرا ·· هل تعرفون ذلك الحاجز الخفى ؟ اننى أراهن بمرتب شهر على أن الغالبية العظمى منكم لن تعرفه ·· فقط قلة منكم ، أعرفهم من نظرة فاهمة فى عيونهم،، من رقةألفاظهم ولن ألوم من لايعرفه منكم ·· فأنا نفسى مع أننى قضيت أعواما طويلة فى هذه المهنة لم أعرف السر ، هذه الحادثة هى التى ألقت الضوء عليه وكانت السبب فى أننى عرفت ·· السر فى تضامنكم جميعا ضدى ·· تعاطفكم مع أى واحد منكم ولو كان مخطئا، وحتى الذى يضيق بالخطأ لا يفعل شيئا سوى السكوت ·· مع أن الساكت عن الحق شيطان أخرس ويشجعكم على أنكم لا تخشون اللوم فمن يلومكم ؟ ·· وهو حق اكتسبته الجماعة ·· وتشعرون بنفس اللذة التى يشعر بها أطفالنا حينما يقسون على صغير منهم ويضطهدونه بلا سبب .

وسيول من الخواطر تدفقت داخل رأسى ·· الى أن استرجعت الفترة التى كنت فيها واحدا منكم ·· حينما كنت أحد الركاب ، طبعا كنت واحدا منكم فى يوم ما ·· أم لعلكم تظنون اننى ولدت كمساريا وهذا اللقب الذى امتهنته ألسنتكم ·· السكة الحديد هى السبب فيه .. استوردته مع قاطراتها .. ودخل ضمن مفردات لغتنا ·· ومن كوميسير الى كمسارى .. وأصلها مأمور ·· مأمور شرطة ·· مأمور قطار وأعود بكم لتلك الحقبة من حياتى حينما كنت طالبا بالمدارس .. كانت سيارات الاتوبيس والترام ملك لشركات أجنبية ووجدت التبرير لان أتغافل عن دفع ثمن تذكرتى·· ألست رجلا وطنيا ·· وكان هذا رأى طالب زميل يكبرنى عمرا ، وفى بعض الاحيان لم تكن النية متوفرة لدى



فثمن التذكرة فى يدى ، ولكن المحصل لانهماكه فى عمله يغفل عنى ·· ولكن لا أنسى أبدا الحرج الذى كنت أحسه والقلق الذى يسيطر على طيلة ركوبى ، والخوف من الافتضاح ·· وكان السبب فى ذلك العناء الذى يكبد أعصابى الكثير هو الكمسارى ·· خشيتى من كلمة سخيفة منه ·· من نظرة احتقار فى عينيه أحيانا يحدث هذا الراكب بجوارى ·· ولم أغفر له ·· وكان السبب فى أننى كرهت الكمسارى وقتذاك ·· ولماذا كرهته ؟ لأننى كنت أخشاه ·· أن يكشف حيلتى ·· أن يفهم دناءتى ·· فى سبيل قرش واحد كنت أدفع هذا الثمن الباهظ من كرامتى ·· ونقمت عليه ·· ولكن كيف أرد لنفسى اعتبارها ؟ ·· كيف أنتقم منه ؟ ووجدت الفرصة مواتية لان أنكل به مع الجميع فى أى خطاء يقع فيه ·· وحتى اذا كان الخطأ من الراكب ·· يكفى أن يصطدم بأحدنا ·· حتى يجمعنا كلنا نحن الركاب شعور خفى بالتعاطف مع زميلنا لاننا نفس الرجل، وأظن أن أغلبنا حدث له هذا من فترة من عمره ·· ونجدها مناسبة لان نمارس الشعور بالاستعلاء على الكمسارى واحتقاره ··

وعرفت السر فى استعلائكم على واحتقاركم اياى ·· وضحكت لاننى لست أنا من تحتقرون ·· انكم تسخطون على أنفسكم ولا تعترفون بهذا ·· وانا الضحية الذى احمل عنكم خطاياكم الصغيرة · ورجال الصحف الذين تجاهلوننى ·· أليسوا هم أيضا منكم ؟ من العجيب أن غيظى منكم وحقدى عليكم وضيقى بمعاملتكم كل هذه المشاعر تلاشت من نفسى ·· وأفسحت السبيل لحب كبير لكم ·· وألم للمشاعر الخاطئة التى تجرفكم ، والآن هل أثبت لكم صحة اتهامى، اننى لا أقصد اتهامكم ·· ولكن كل ما أبغيه أن يزول الحاجز الخفى الذى بيننا

الفانتازيا الفاجعة
من ناب عزرائيل الى أرض النفاق

بقلم : غالى شكرى

كلمة فى المقدمة

كان من الممكن أن أقول ان يوسف السباعى فنان ظلمه المنصب ! ولكنى رأيت يوسف السباعى واحدا فى صف طويل من أدبائنا الذين أجرم النقد فى حقهم وفى حق الأدب حين اتخذ منهم موقف الصمت التام ٠٠ !

وأحسست أنه من واجب الحركة النقدية فى بلادنا أن تقدم نقدا ذاتيا طويلا ، تشرح لنا فيه كيف تمت جريمة الصمت باحكام غريب يدعو الى التساؤل : فمما لاريب فيه ان انتاج السباعى وعبد القدوس وعبد الحليم عبد الله وثروت أباظه وأمين يوسف غراب وصوفى عبد الله وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ ، هو الانتاج الأدبى الرئيسى ابان الربع قرن الأخير ٠٠ ومهما كان حكمنا على هذا الانتاج ، فليس لدينا انتاج غيره ، ومن ناحية أخرى فان انتاج بعض هؤلاء الأدباء كان يشكل ظاهرة اجتماعية واضحة ٠ فأرقام التوزيع التى رافقت انتاج السباعى واحسان ـ على وجه الخصوص ـ كانت تحمل فى ثناياها دلالة اجتماعية على جانب كبير من الأهمية ، مما كان يحتم على كل باحث جاد أن يتناول هذه الظاهرة بالتحليل العميق ٠

ولو أن النقد المصرى الحديث أدى دوره كاملا ، لاستطاع أن يخفف من وطأة الظواهر الأدبية الرديئة ٠٠ ولكن احساس الأديب بالتحرر من كافة قيود النقد يفقده الرؤية الموضوعية لانتاجه ، فلا يصيبه التطور الا بالجهود الذاتية وحدها ، وهى بطبيعة الحال لا تكفى ٠

وأنا لا أشك لحظة بأن اهتمام النقد بنجيب محفوظ وتوفيق الحكيم له ما يبرره ولكنى لا أفهم كيف يمكن للنقد أن يحظى بتصور متكامل للحركة الأدبية ما لم يتجه

بتقييمه الى بقية انتاج الأدباء الآخرين • ان تكوين « صورة للأدب المعاصر » من أولى واجبات الناقد مهما ضايقته بعض خطوط الصورة أو ظلالها •• فهو المتلقى الوحيد الذى من واجبه أن يتجاوز أهواءه الذاتية الى مستوى موضوعى شامل يتيح له الرؤية الصادقة •

واذا كنت قد حاولت وأحاول ـ بمجهودى الشخصى المتواضع ـ أن ألتقط صورة نقدية شاملة للانتاج المعاصر ، فان هذا لا يعنى مطلقا أننى راض كل الرضا عن هذه الصورة • وسوف يلحظ القارىء فى البحث المطول الذى أكتبه لمجلة القصة حول (معنى المأساة فى الرواية المصرية) أننى أختلف مع معظم الروائيين المعاصرين اختلافات جوهرية عميقة حول العديد من القضايا الرئيسية التى تشغل بال حضارتنا الفنية المعاصرة • ولكن هذا الاختلاف لا يعنى سوى أننا نؤمن بالصراع الفكرى الحر الذى يخصب هذه الحضارة بمختلف الألوان والتيارات والاتجاهات •• فالتنوع والتعدد يفضى بالضرورة الى الاختلاف ، ولكنه يفضى فى النهاية الى الخصوبة والثراء •

والجريمة الكبرى للنقد الأولى فى مصر أنه يحول بيننا وبين هذه النهاية الرائعة . مهما كانت الاختلافات بيننا تحتد أحيانا ، ما دام الاحترام والثقة المتبادلين هما «المناخ» الذى يظلل كلا من الخلاف والصراع •

اننى فى هذا البحث أختلف اختلافا جوهرية عميقة مع أغلب كتاب الرواية المصرية المعاصرة ، ولكن هذا الخلاف لا يلغى بحال ايمانى الكامل بأن هؤلاء هم الذين بنوا بصوابهم وأخطائهم صرح الرواية العربية ، وأن تجاهل النقد للكثيرين منهم ، هو الذى أسهم فى ترجيح كفة الأخطاء ، وتقليل الانتصارات •

ولعل النقد الذاتى الايجابى الوحيد ، الذى يمكن للحركة النقدية أن تقوم به ، هو أن تعوض مافاتنا وفاتها ، وتلحق بركب الحركة الأدبية بالتقييم الصادق الأمين

لا أعلم ما اذا كانت قراءات يوسف السباعي في تلك الفترة الباكرة من حياته الأدبية ، هي التي أوحت اليه بذلك القالب الفانتازي «الخيالي» الذي ترتديه من رواياته الأولى « نائب عزرائيل » و « أرض النفاق » ، أم أن المناخ « الديموقراطي ! » فيما قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ كان من البشاعة حقا بحيث لا يتيح للكاتب أن يواجه الواقع مواجهة حرة مباشرة ، ولهذا يلجأ الى « الحيل » الفنية التي تقيه شر الاصطدام – بالسلطة أو المجتمع على حد سواء – وفي قمة تلك الحيل ما يدعوه النقد الأدبي بالفانتازيا ، وهي الاطار الفني الذي يسمح بكل ما هو خارق للعادة والمألوف في مزيج من الفكاهة والدهشة .

الحق أن يوسف السباعي كان رائدا لهذا الاتجاه الذي لم نعثر له على جذور واضحة في أدبنا العربي ، وان كان معروفا ومتداولا بل وتقليديا في الآداب الغربية كما أننا لا نعثر له على امتدادات حية في أدبنا المعاصر بالرغم من أوجه التشابه التي يمكن أن تقوم بين هذا الاتجاه ، واتجاه الرواية الأسطورية المتمثل في « أولاد حارتنا » . ولعله من المفيد أن نفرق بين اتجاه يوسف السباعي الذي اعتقد – في صورة احتمالية مرجحة – انه أخذه عن القصص العلمية التي شاعت في أوروبا ، وبين اتجاه نجيب محفوظ المأخوذ عن البناء الأسطوري المعروف في آداب العالم منذ فجر تاريخها . فالسباعي لم يأخذ من القصص العلمية الا اطارها الذي يجمع بين المبالغة في تضخيم الواقع ، وما يحتويه هذا التضخيم من « النبوءة » التي تبشر بمستقبل أفضل . وقد ظهر القصص العلمي الأوروبي انعكاسا للانتصارات العلمية الباهرة التي أحرزتها أوروبا آنذاك ، فأتاحت للفنان أن يكون نبيا ومبشرا ، كما أفسحت له المجال لأن ينتقد الواقع الذي يعيشه انتقادا مبنيا على أساس ما يضمره المستقبل من أعاجيب . ومن ثم جاء تصويره للواقع الراهن بمثابة رد الفعل لذلك المستقبل المرتجى . وتتميز ردود الأفعال دائما بالتضخيم والمبالغة .

في هذه النقط – على وجه التحديد – يختلف يوسف السباعي عن أدباء أوروبا المتأثرين بالانتصارات العلمية كويلز ، كما يختلف عن أولئك المتقولبين في البناء الأسطوري كسويفت . فهو لا يعكس صدى أية انتصارات علمية ولا يلجأ الى أية أبنية أسطورية ، وانما يحرث أرض الواقع المصري فيما قبل الثورة ، ويقلب التربة جيدا ، فيعرض ما بها من آفات وحشرات لأشعة الشمس والهواء . ان يوسف السباعي لايفعل أكثر مما قال به ستاندال وهو يصف الرواية بأنها مجرد مرآة تسير في الشوارع . هكذا حاول يوسف في عامي ١٩٤٧ ، ١٩٤٩ أن يصوغ لنا ذلك الكابوس الرهيب الذي سيطر على المجتمع المصري في أعقاب الحرب الثانية من ناحية ، وفي أعقاب مأساة فلسطين من ناحية أخرى . هذان هما المصدران الحقيقيان لتلك الفانتازيا الفاجعة التي تتمدد في حواسنا كلما توغلنا في قراءة « نائب عزرائيل » و « أرض النفاق » . فبالرغم من كافة « الخوارق » التي تملأ هاتين الروايتين ، فاننا نستشعر وطأة الواقع الحرفي تكاد تزهق نفوسنا لهول ما يطابق هذا الواقع ما كانت عليه بلادنا في ذلك الوقت على النحو الذي صوره نجيب محفوظ في اطاره الواقعي بروايته « زقاق المدق » – كذلك فبالرغم من الابتسامات التي تلاحق وجوهنا الى أن تتطور الى قهقهات عبر

معايشتنا لأحداث الروايتين ، فان « المرارة » التى فى طعم العلقم لا تزايل أفواهنا وقلوبنا ونفوسنا لحظة واحدة • أى أن القالب الخيالى الذى آثره السباعى لم يكن الا مرآة مصقولة لواقع حقيقى ، كما لم تكن الفكاهة التى أشاعها قلمه بين الصفحات برشاقة ممتعة الا غلالة رقيقة لا تخفى الدموع التى تذرفها الأحداث والمواقف والشخصيات والمؤلف أيضا •

وقد يكون غريبا أن يتوحد مصدر المأساة عند السباعى ومحفوظ ، ومع ذلك يفترقان فى الطابع العام والألوان التفصيلية على السواء • وهنا ـ بالضبط ـ نضع كلتا يدينا على تفرد الفنان وتميزه • فلربما كان الرداء القاتم الذى يلبسه نجيب لمآسيه هو التعويض أو المقابل النفسى لما تتسم به شخصيته الانسانية من ميل حاد الى الفكاهة • ولقد أكد أكثر من مرة أنه بدأ يكتب روايته « بداية ونهاية » وفى ذهنه تخطيط لرواية كوميدية ، ولكنه فوجىء فى التنفيذ أنها تسير فى خطوط تراجيدية صارمة • ولربما كانت الابتسامات التى ينثرها السباعى بمهارة بين الصفحات مجرد تعويض لنفسية تميل بطبعها الى الحزن ، ولكنها تميل فى نفس الوقت الى تغليف هذا الحزن بما يحجبه عن الآخرين بدافع من الكبرياء أو الرغبة الدفينة فى الحيلولة دون ايلام الآخرين •

غير أن هذه التفسيرات السيكلوجية كلها لا تضىء سوى « العامل الذاتى » فى عملية الخلق الفنى ، ولكنها لا تكشف عن الحقيقة الموضوعية للعمل الأدبى • ومن هنا أعود الى بداية البحث حين تساءلت عما اذا كانت قراءات يوسف السباعى للأدب الغربى هى التى أملت عليه هذا القالب الفانتازى أم أن « الضغط » الديموقراطى فيما قبل الثورة بلغ حدا مذهلا من البشاعة جعل من غير المستطاع أن يواجه الفنان واقعه مواجهة حرة مباشرة •• ومن ثم راح نجيب محفوظ يصور مأساة البرجوازية الصغيرة ، وراح عبد الحليم عبد الله يصور المأساة العاطفية ، وراح احسان عبد القدوس يصور مأساة الجنس ، وراح يوسف السباعى يصور القاسم المشترك الأعظم بين جميع هذه المآسى •• ولكن فى صورة خيالية تبعد قليلا عن الواقع الفوتوغرافى ، لتمنح نفسها الفرصة كاملة فى رؤية الواقع الموضوعى الذى يتستر خلف أقنعة المفارقات والخوارق•

حقا ، كان هذا الجيل هو جيل المأساة ، عبر كل عنها بما يتفق وتكوينه الذاتى وقدراته الموضوعية • ولهذا السبب الهام لم تجىء الفانتازيا فى أدب يوسف السباعى شيئا قريبا من الفودفيل ، كما لم تجىء المأساة الكامنة خلف هذا الستار الرهيف شيئا من قبيل الميلودراما • وانما جاءت الفانتازيا الفاجعة فى أدب هذا الفنان ، تجسيدا حيا عميقا لما يمكن تسميته بالرؤية الرومانسية للمأساة • وهى الرؤية التى قام عبد الحليم عبد الله بالمساهمة فى بنائها بـ « غصن الزيتون » ونجيب محفوظ فى « خان الخليلى » وغيرها من أبناء جيل المأساة •

والرؤية الرومانسية ليست وليدة الظروف الذاتية وحدها ، كما سبق أن قلت، انها وليدة التفاعل الايجابى الخلاق بين العوامل الذاتية والعناصر الموضوعية ، وتكتسب

هذه الرؤية رومانسيتها من طبيعة المأساة نفسها ، فهي مأساة رومانسية في مجتمع رومانسي يحيا بين جدرانه الانسان الرومانسي • ولا شك أن هذه التعميمات تحتاج الى تفصيل • تفصيل عام من واقع تاريخنا الأدبي وتفصيل خاص من واقع أدب يوسف السباعي في هذه المرحلة التي نتناولها بالبحث ••

يقول تاريخنا الأدبي ان المرحلة الواقعة بين ثلاثينات وخمسينات هذا القرن كانت ــ في صميمها ــ مرحلة رومانسية في الأدب المصري • ولعل «الشعر» كان أكثر الفنون الأدبية تعبيرا عن هذه المرحلة ، كما كانت الترجمات الروائية عن الأدب الغربي ، أكثر تحقيقا لروح العصر الخاص بنا • فقد كان الشعر بقيادة جماعة أبوللو شعرا رومانسيا في خامته الفنية وطريقته بنائه على حد سواء ، وكانت المأساة تفوح رائحتها من بين قصائد الملاح التائه وابراهيم ناجي ، المأساة بمعناها الفردي العميق ، كما كانت الطبيعة بنخيلها وأكواخها تطل علينا بلوعة صاحب « أغاني الكوخ » ومرارة سؤاله الهارب « أين المفر » • كان الشعر بطبيعته الفنية الخاصة أقدر فنوننا على تلبية هذه الروح التي جاشت في صدور المصريين آنذاك ، وهم في غمرة الكفاح المضني ضد الاستعمار والاستبداد • فلم تكن ثمة هزيمة أو انتصار هناك ، وانما كانت الرؤية الضبابية تظلل الطريق الى النصر بالغيوم والسحب • ولذلك كانت الحيرة ، وكان القلق ، وكان ذلك الشعور المتوتر بمأساة الشد والجذب في حياتنا الروحية لا في حياتنا الاقتصادية والاجتماعية فحسب • فقد كانت حياتنا الروحية نهبا لانفعالات الحماس نحو الحضارة الغربية يشوبها الانفعال المتحمس لماضينا وتراثنا • كنا نرى من ينادون بالشخصية المصرية والحضارة المصرية هم أنفسهم الذين يقومون بالدعاية للثقافة الأوروبية • وهكذا اختلط ماضينا بحاضرنا بمستقبلنا في بوتقة رؤية غائمة تستشعر الحزن والأسى على الماضي جنبا الى جنب مع امكانيات الفرح في المستقبل • وقد عبرت الرواية منذ هيكل الى محفوظ في شكلها ومحتواها عن ذلك الصراع ، وتلك الرؤية ، على النحو الذي ذكرناه مفصلا في غير هذا المكان • وما أريد أن أؤكده بتكرار هذه المعاني نقطتين هما : أن مأساتنا في ذاتها كانت مأساة رومانسية وأن هذه الرومانسية كانت ثورية في حينها • ومعنى ذلك أن الطبيعة الرومانسية للمأساة هي التي أسهمت بشكل فعال في اضفاء اللون الرومانسي على عدسة بعض أدبائنا ان لم يكن معظمهم (منهم من هرب الى الريف أو الأحياء الشعبية ، ومنهم من هرب الى أجواء الفرد وأهوائه ، ومنهم من هرب الى الماضي وآثاره وأمجاده) • ومعنى ذلك أيضا أن هذه الرومانسية بالرغم من مأساويتها كانت ثورة التناقض بين القيم القديمة والعلاقات الاجتماعية الجديدة •

وعندما صعد يوسف السباعي الى السماء في « نائب عزرائيل » كان هاربا على نحو من الأنحاء ، ولكنه عندما هبط الى الأرض في نفس الرواية كان شهيدا • وبين الهروب والاستشهاد تكمن ثورية هذا الروائي الفنان في تلك المرحلة الباكرة من حياته الأدبية • فلا ينبغي أن نستدل على ثورية السباعي بما كتبه بعد الثورة عن قضايا

« ثورية بطبيعتها » ، وانما يجب أن نستشف موقفه الفكرى ـ ان كان ثوريا ـ من أعماله الأولى •

والقراءة السريعة لكل من « نائب عزرائيل » و « أرض النفاق » تقول ان صاحبها كاتب ثورى • والثورية فى مجال الأدب لها نوعية خاصة مستقلة عن مدلولها السياسى أو الاجتماعى • على أن استقلالها هنا لا يعنى العزلة ، بل التمايز • فثورية الفنان هنا تعود بنا الى الحديث عن طبيعة « الرؤية الرومانسية » التى أوضحنا جذورها فى تاريخنا الأدبى من ناحية ، وها نحن ذا بصدد امتداداتهافىأدب الفنان موضوع البحث• أى أن ثورة يوسف السباعى تستمد أصولها من المأساة الرومانسية الثائرة فى تاريخنا الحضارى (على وجهيه المادى والفكرى) • وتنعكس هـــذه الثورة بدورها على بنائه الروائى وخاماته وعناصره وتفاعلاته وصراعاته وآثاره الايجابية والسلبية •

ولعل « الفانتازيا الفاجعة » هى المصطلح النقدى الموفق ـ فيما أرجو ـ الذى يصوغ « نائب عزرائيل » و « أرض النفاق » ضمن اطار الثورة الرومانسية فى أدبنا الحديث • فهى ثورة تجاوزت المدلول الحضارى العام الى المدلول الفنى الخاص ، ومن ثم أصبحت ثورة فى البناء اللغوى والتركيب النفسى والهيكل الفكرى والمحتوى العاطفى •• الى بقية المضامين والدلالات والأشكال والقوالب ، التى تشترك مجتمعه فى « خلق » العمل الفنى • وهى ثورة لأنها عملية تجاوز وتخط لما كانت عليه الرواية المصرية عند ظهورها وفترة مراهقتها • وهى لذلك تحمل الكثير من صفات الماضى والحاضر وتومىء الى المستقبل • فسوف نلتقى فى هاتين الروايتين بمشكلات العامية والفصحى ، والمباشرة والتقريرية ، والفوضى والحرية ، والفرد والمجتمع ، والتخطيط والعشوائية ، والمادية والمثالية •• وهذه المجموعة الهائلة من المزدوجات هى التى مهدت لقولنا ان هاتين الروايتين يخضعان لتعبير « الفانتازيا الفاجعة » ، ذلك أن هذا التعبير المزدوج يلخص ما تحفل به كلاهما من تناقضات •

ولنبدأ ب « نائب عزرائيل » حيث تبدأ ازدواجيتها من العنوان • فالنائب المحترم من بني البشر ، وعزرائيل من الملائكة • أى أن المؤلف شـــاء أن يجمع بين الســماء والأرض فى محاولة تفسير هذه الحياة ، واتخاذ موقف منها • فالقصة تبدأ فى السماء حين اكتشف الراوى أن روحه قد صعدت خطأ ، فقد كان المطلوب شخصا آخر يشبهه فى الاسم • وعندما يعلم عزرائيل بما حدث يعلن هذه الروح ضرورة عودتها الى الأرض فى الوقت الذى يعلن فيه صاحبها رغبته فى البقاء اذ أنه أحس فى تحرره من الأرض والجسد بدبيب حياة جديدة أفضل كثيرا من حياته الأولى • ولكن عزرائيل يصر على اعادته ليأخذ الروح الأصلية بدلا منه • وفى هذه الأثناء يتذكر عزرائيل أن عليه أداء بعض الأمور فى نفس الوقت الذى ينبغى اعادة الروح الى مكانها • وحينئذ يعرض عليه صاحب الروح أن يقوم بهذه الأعباء التى لم تكن فى واقع الأمر سوى قبض مجموعة من الأرواح • وهكذا يتاح لعزرائيل أن يذهب الى موعد غرامى مع حبيبته ، ويأخذ منه صاحب الروح كشفا بأسماء الأرواح المطلوب قبضها • ويبدأ فى التو عمله الجـديد

كنائب لعزرائيل • غير أنه يتذكر فجأة أن الموت فى الحياة الدنيا يتم بصورة عشوائية وبغير تخطيط ، فيموت من يجب أن يعيش ، ويعيش من يستحق الموت • وهنا يتفتق ذهنه عن فكرة خطيرة هى أن ينقذ الأسماء المكتوبة فى الكشف من الموت ، ثم يتولى قبض الأرواح التى يجب أن تموت بدلا منها ، الأرواح التى تتسبب فى فساد العالم ودماره ، أرواح القادة والزعماء والساسة • الا أنه ما أن يبدأ مشروعه بانقاذ الأرواح المطلوبة لدى عزرائيل حتى يعود عزرائيل الى الأرض ويتولى العملية بنفسه • ويحاول نائب عزرائيل أن يرافق عزرائيل فى عودته الى السماء ، ولكن هذا يصر على اعادته الى جسده فى القبر • ويظن أن عودته الى الأرض حيا من جديد من شأنها أن تعيد الفرحة الى القلوب الحزينة من أهله ، غير أنه يكتشف أن الأهل مشغولون عنه بالميراث ، وأنهم يوسعونه سبا وشتما مع كل صلاة ، فيرجو عزرائيل أن يحشره فى أول كشف لقبض الأرواح • وينفذ له عزرائيل هذا الرجاء بعد أن يمنحه يومين غادر فيهما مضجعه ليغيث الملهوف ويعطى المحتاج ويواسى الحزين ، ثم صعد الى السماء طاهر الذيل وضامن جنة • وأحس فى هذه المرة أنه أخف من المرة السابقة وأكثر انشراحا ، وشعر بفيض من السعادة يغمره فقد عاش يومين فى آخر العمر خيرا من طيلة العمر •

ونتبين على الفور معالم الفكرة الأخلاقية التى يطرحها المؤلف على صعيد البحث• فهو يرى أن الأزمة العالمية فى جوهرها هى أزمة أخلاق ، ذلك أن المطامع ليست الا شهوات رخيصة تتأجج فى صدور قادة العالم فيتناحرون على المغانم مهما كان الغرم فادحا ومن نصيب الملايين • والفنان بذلك يشير الى مأساة الانسانية فى الحربين العالميتين • وهى نفس نقطة الانطلاق التى بدا منها نجيب محفوظ فى روايته « زقاق المدق » ، فاذا علمنا أن تاريخ نشر الروايتين هو عام ١٩٤٧ أيقنا مدى ما كانت عليه هذه المأساة من ثقل بالغ العنف على ضمير ووجدان الفنان المصرى • الا أن نجيب محفوظ يطرح القضية فى مستواها الاجتماعى الجزئى والنسبى وفى اطار المنهج الواقعى الذى ينشغل بالجذور الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للمأساة ، بينما يتجه يوسف السباعى الى طرح القضية فى مستواها المثالى ، الكلى والمطلق ، وفى اطار المنهج الأخلاقى الذى ينشغل بالانعكاسات الروحية للمأساة • والفرق بين الاتجاهين أن منهج نجيب محفوظ يبحث فى الأصول الغائرة ليفسر المظاهر القائمة ، أى أنه ينطلق فى رؤيته من المجتمع ، أما منهج يوسف السباعى فيبحث فى الأصداء الراهنة ليحدس الأحوال القادمة ، أى أنه ينطلق فى رؤيته من الفرد • ومن هنا أقول ان منهج السباعى هو الرؤية الأخلاقية المثالية •

والرؤية الأخلاقية المثالية تتناسب تماما مع وجهة النظر « الفردية » التى يؤمن بها السباعى •• فاذا تطهر الفرد من الأدران العالقة بضميره استطاع أن يحقق الخير للمجتمع الأرضى،واستطاع أن يضمن الجنة فى السماء••واذا استطعنا أن نتخلص من بضعة « أفراد » يقودون العالم الى الهاوية ، تمكنا من الحفاظ على السلام العالمى • هذه الرؤية الأخلاقية المثالية الفردية ، هى فى صميمها رؤية رومانسية للمأساة • اذ من شأنها تضخيم الانفعالات والمبالغة فى تجسيمها من ناحية ، وتصوير دور الفرد فى التاريخ

تصويرا أقرب الى الخيال الكاريكاتورى ٠٠ ولهذه الأسباب مجتمعة كان السباعى صادقا كل الصدق فى اختيار « الفانتازيا الفاجعة » شكلا ومضمونا للمأساة الرومانسية بطبيعتها ، والأخلاقية الفردية حسبما تمليه الرؤية التى يقدمها الفنان ٠

ومعنى ذلك أننا نستطيع القول بشكل عام أن ثمة وحدة عضوية بين الشكل والمضمون فى قصة « نائب عزرائيل » فالمضمون الأخلاقى الفردى يتناسب مع الاطار الفانتازى الخيالى ٠ الا أننا لا نغفل فى نفس الوقت ، الصعاب الكثيرة التى واجهت الرواية المصرية فى تلك المرحلة ٠ وقد كان السباعى أمينا فى عكسه لتلك الصعاب على صفحات روايته مما يعطيها مذاق الصدق الفنى مهما شاب هذا الصدق من عثرات الطريق ٠٠كان يحتاج المؤلف الى اقحام محفوظاته من تراثنا العربى على السياق الروائى ليستشهد بقول مأثور فى تأييد ما يقول ٠ أو أنه يلجأ الى طريقة غريبة فى النقد الاجتماعى هى طريقة المقارنة بين الارض والسماء ٠ أو هو يفتعل حوارا طويلا بينه وبين عزرائيل ليحكى له عن خصال أهل الحياة الدنيا ٠ أو هو يستخدم الركائز الواهية للوصل بين مراحل السياق الفنى ، وتكون هذه الركائز من الوهن بحيث يصبح خروجه عن الموضوع الأصلى مبررا بمثل هذه العبارات : « وتذكرت أننى » ، « وخطر لى » ٠ وينعكس هذا الخروج على عنصر التشبيه ، فلكى يصف احدى الفتيات على أنها معجزة جمالية خارقة يضطر الى قوله « ٠٠ وخيل الى أنها لو وجدت فى عصر موسى لأغنته عن عصاه وعن معجزاته ، اذ كان يكفيه أن يقدمها للكافرين حتى يؤمنوا بالله وقدرته » ٠ فالتشبيه هنا لا يخدم الصورة الفنية بحال ، وانما يقطع تسلسل خطوط هذه الصورة فى مخيلة القارىء ٠ كذلك يتفتت الحدث الروائى الى مجموعة من الأقاصيص حين يقول على سبيل المثال « واذكر كيف ذهبت لزيارة جدتى وأنا طفل فى السابعة ٠٠٠ الخ» أو «٠٠ وتذكرت فى ذلك الوقت أن أحد ملوك فرنسا ٠٠ الخ»٠ حتى الفنان نفسه يعترف بذلك فى صراحة وجرأة حين يقول « هذه أقاصيص لم يكن من سردها بد حتى أعلل ذلك الضعف ٠٠ الخ » ، وحين يقول « ولكن مالنا ولتلك الذكريات الآن ٠٠ لكأننى سأخرج عن الموضوع ٠٠ لأكتب حياة قلبى كما كتب الصاوى حياة قلبه » ٠ وكثيرا ما يتدخل ليشرح لنا ما لاسبيل الى غموضه كان يقول « ولا بد أن تتنوع أسباب الموت حتى تكون فجيعة الناس أوقع » أو « انى لأعرف صاحبا لى كان ينتقد آخر لأنه يتحدث فى التليفون مع صاحبته فترة طويلة ، وكان يعجب منه ويتساءل : كيف يطيق الكلام كل هذه المدة ؟ ومرت الأيام وأحب صاحبى فاذا به يجلس الى التليفون ليشغله كل يوم ما يقرب من الساعة ، ونسى سابق عجبه وانتقاده » ٠

ولولا الأسلوب الحى الذى يتمتع به السباعى ، لتعرض بناءه الروائى لأعاصير خطيرة ٠ فدقة البناء المحكم هى التعويض الرمزى عن الجو الفانتازى الذى يتيح للفنان ــ داخل البناء ــ كل شىء ٠ وقد كانت العيوب التى ذكرتها منذ قليل ، بمثابة الهزات التى توالت على البناء ٠ ولكن شجاعة يوسف السباعى ــ التى يشاركه فيها احسان عبد القدوس ــ هى التى أسهمت فى اذابة الثلوج اللغوية التى كانت ترهق

أدبنا الحديث بضغوط لا قبل له على احتمالها • فقد استطاع هذان الفنانان أن يستفيدا الى أبعد حد من اللغة الفنية التى استحدثها توفيق الحكيم ، فاستبعدا الألفاظ المعلبة والتعبيرات المحفوظة وطوعا البناء الروائى للغة الحديث • فقد زاوج السباعى بين الفصحى والعامية على عدة مستويات : أولها كان يضع العامية بين أقواس ، وثانيها كان يستخدمها فى الحوار ، وثالثها كان يضع العامية الى جانب الفصحى فى السرد القصصى دون أقواس أو حواجز • وكأنه أراد أن يضحى بالمفهوم التقليدى للتجانس اللغوى بأن يجعل من قصته رواية تجريبية تصطرع بين صفحاتها كافة القضايا الفنية والفكرية التى يموج بها مجتمعه الأدبى ، وكان من نتيجة ذلك أن يوسف السباعى استطاع أن يضفى على أسلوبه ـ من الناحية اللفظية ـ حيوية خارقة سواء بنقل « الحالة النفسية » للشخصيات ، أو « الاطار العاطفى » للأحداث ، أو « الشحنة الفكرية » للمواقف •• أسهمت فى خلقها جميعا تلك اللغة الحية المتطورة التى تعكس أمانة الفنان فى صياغة عصره •

ولكن هذا المستوى اللفظى المتقدم للأسلوب ، لم ينقذ الرواية من كونها تحددت فى ذلك المزيج من القصة ـ الخبر ، والقصة ـ المقال ، تلك التى تخلق لنا ما ندعوه عادة بالرواية ـ اللوحة • أى أن الفانتازيا الفاجعة فى أدب يوسف السباعى هى مجموعة من اللوحات التى يدعونا الفنان الى رحلة وصفية معها • وهى بذلك تختلف اختلافا كيفيا عن الرواية المركبة ، أو الرواية ـ المحور التى ينطلق بناؤها على أساس درامى هو نمو الأحداث وتطورها ضمن خيط واحد يربط بينها الى نهاية يحددها المنطق الداخلى لصراع العناصر الفنية المختلفة داخل العمل الأدبى أثناء عملية النمو والتطور • أما الرواية اللوحة ، فهى الرواية البعيدة عن التركيب ، وفى بساطتها يكمن ثباتية مراحلها ، وسكونية شخصياتها • ولهذا تشترك « نائب عزرائيل » مع « أرض النفاق » فى تلك السمة البارزة : فى الأولى « يستعرض » النائب « مناظر » من الأرض وأحوالها أثناء تجواله لانقاذ ضحايا عزرائيل من الموت ، وفى الأخرى « يستعرض » المصاب بالشجاعة والمروءة « مناظر » الأرض وأحوالها أثناء ممارسته للشجاعة والمروءة • وكلتا الروايتين تبدأ وتنتهى دون أن تنمو الشخصيات والأحداث والمواقف أو تتطور ، انها قد تنقلب من النقيض الى النقيض ، ولكنه ـ حينذاك ـ يكون انقلابا ستاتيكيا ، لا تغيرا ديناميا • وأرانى هنا أعود الى القول بأن السباعى كان صادقا كل الصدق فى اختيار موقف فكرى وفنى موحد ومتكامل • فالرؤية الأخلاقية والمنهج المثالى والنظرة الفردية ، تؤدى جميعها ـ على الصعيد الفنى ـ الى اقامة العلاقات داخل العمل الفنى على أساس منطقى من السكونية والثبات • فاذا مزجنا الفن بالفكر وصفنا رؤية السباعى بأنها الرؤية الرومانسية للمأساة • ان المأساة الانسانية تبدو له من صنع نوع معين من المجانين الأشرار « هؤلاء هم المجانين العالميون » ، كذلك فالأنانية الفردية لها ما يعادلها على مستوى الوطن ، هى ما ندعوها بالوطنية ، وكما أنه لا بد من قبض أرواح الزعماء لتخليص العالم من الشر ، لا بد من نزع الروح الوطنية لنغرس بدلا منها الاخاء الانسانى • والعلاج اذن هو « الاحسان الى فقير أو مواساة مريض أو تعليم جاهل » • وتكمن مصيبة هذا البلد فى قادته وزعمائه ومشاريعه

المغرضة المرتجلة » فما من عمل قيم الا كان المقصود به غير حقيقته . وما من مشروع الا كان أساسه الخداع والتهريج » •

هذه هي ثورة يوسف السباعى فى « نائب عزرائيل » تفيض حزنا وأسى على أوضاع خليقة بالثورة عليها ، ولكن الرؤية الرمانسية للمأساة ـ بالرغم من ثوريتها ـ هى رؤية ترتكز على قاعدتين هما العام والمطلق • فثورة السباعى ـ فى رومانسيتها ـ ثورة عامة على الانسان أينما كان ومن جميع الطبقات ، ثورة على الجوانب السلبية الهابطة فى النفس البشرية • وهى ثورة مطلقة لا تعترف بالنسب ولا تقيم الحواجز بين مرحلة وأخرى • فالكل سواء : جميع الأحزاب ، جميع القادة ، جميع الأنظمة ، جميع الأمم • وهى لذلك ثورة تشبه الحلم • فهى نتاج رؤية كابوسية مزعجة أوحت بها أصداء الحرب والاستعمار ، وانعكاسات الفوضى والاستبداد • ولم ينظر السباعى الى المصادر والأصول فى غمرة « الرعب » الذى هاله من وجوه الأشياء ومظهرها • وهكذا تركزت رؤيته فى السلوك الفردى وانحصرت حلوله فى الأفراد والأخلاق ، بمعزل عن الجذور الاجتماعية والأساسات المادية • وتأتى « أرض النفاق » لتزيدنا شرحا وايضاحا •

ومن عنوان « أرض النفاق » أيضا ، نتعرف من جديد على المفهوم الاخلاقى عند يوسف السباعى • فالقصة تبدأ مع الراوى حين يفاجأ بتاجر « للأخلاق » يقيم فى مكان ناء تسوقه اليه قدماه ، ويلاحظ ـ مع دهشته وذهوله ـ أن أشولة الأخلاق من صراحة وصدق واخلاص ومرونة وشجاعة قد أصبحت مع الايام بضاعة بائرة ، وبالرغم من نصائح صاحب الدكان له ألا يشترى شيئا من بضاعة الكساد الا أنه يجازف بشراء جرعة شجاعة تكفيه لان يكون شجاعا لمدة عشرة أيام •

وفى يوم واحد ـ هو اليوم الاول من الايام العشرة ـ تسببت شجاعته فى اتهام الوزير له بالجنون مطالبا بايداعه احدى المستشفيات العقلية ، كما تسببت فى أن يقضى بعض الوقت فى أسفلت أحد أقسام الشرطة ، وتسببت كذلك فى ثورة حماته عليه ٠٠ لا لشىء الا لانه أصبح شجاعا يدلى رأيه بصراحة فى كل شىء ، ويقرن القول بالعمل ، فيتدخل لاصلاح كل ما أفسده الجبن •

وكانت النتيجة انه عاد الى صاحب حانوت الأخلاق فى مساء نفس اليوم ، مثخنا بالجراح ، يطالبه بجرعة جبن تقيه من شر الشجاعة وأهوالها ، الا أن الرجل يصارحه بأن الجبن ومختلف الرذائل لم يعد لديه منها شىء فقد تخاطفها البشر منذ بعيد وقد أضحت الأكياس فارغة منها تماما ، ولا يرى له من حل سوى أن يتناول جرعة من صنف أخلاقى آخر يحل محل الشجاعة ويبدل مفعولها ، وعندئذ يختار «المروءة» فيشرب احدى جرعاتها التى تكفى الأيا م‍التسعة الباقين •

غير أن يوما واحدا من هذه الايام التسعة ، يجعل أهل بيته هذه المرة ـ لا الوزير فحسب ! ـ يتهمونه بالجنون ، فقد أمسى يمارس مروءته للدرجة التى اصر فيها أن

يخلع عنه بدلته لأحد أقربائه ويرتدى عوضا عنها قميصا نسائيا خرج به الى الشارع وركب التاكسى وعاد الى البيت ، ليحملق فيه الجميع بدهشة واستنكار وأسف على عقله الذى ضاع ، وكانوا قد أوشكوا على اتهـامه بشىء آخر على أساس القميص «الحريمى» ولكنهم عادوا فانكروا الاتهام الأخلاقى ليستبدلوا به اتهاما أكثر بشاعة ، ومرة ثانية يعود الى تاجر الاخلاق مدمى الروح والجسد ، يطلب حـلا جديدا للأيام الثمانية ٠

وقبل أن ننتقل الى المرحلة الجديدة من الرواية ، نذكر أن الرجل شاهد فى هذين اليومين بعدستى الشجاعة والمروءة عدة «مناظر» لاسبيل الى تجاهلها : شاهد الفتاة التى أضنت لياليه بالسهاد مجرد دمية تزينها المساحيق اذ هى عن قرب لا تساوى شيئا ، وشـاهد مجمع الشحاذين الذى يصـنع العاهات باشراف الحاجة نودق وتحت رقابة الشركة المساهمة من الشحاذين ٠ وشاهد (مناظر) أخرى كثيرة ، جميعها تقول شيئا واحد ، ان هذا العالم يأكل زيفا ،ويشرب زيفا ، ويتنفس زيفا وان «النفاق» هو مظهر هذه الارض وجوهرها ، ومن هنا لايرى من حل سوى سرقة كيس (الاخلاق المركزة) أو (روح الاخلاق) الذى يخفيه التاجر عن الابصار ، ويرمى به فى النهر ليشرب الجميع مياه الاخلاق الفاضلة ، ويصاب الكل بالصفات الحميدة من شجاعة وصدق وأمانة واخلاص ومروءة الخ ٠٠ وهكذا لايعود مجنونا بين عقـلاء أو عاقلا وسط مجانين ، بل يصبح أهل الارض جميعا خالين من النفاق ، وسرعان ما ينفذ الفكرة بعد معركة قصيرة بينه وبين التاجر ، ثم يغادران المتجر برفقة فأر يدعى شولح استضافه الرجل منذ زمن بعد أن تناول من بضاعة المحل ما حال بينه وبين القدرة على الحياة مع الآدميين فى الشوارع والبيوت ٠

و «يستعرض» أمامنا الراوى عدة مناظر منها جنازة رئيسه فى العمل وكيف بدأت قبل أن يشرب الناس مياه الاخلاق ، ثم كيف انتهت بعد أن شربوا منها ، وينتقل بنا الى حفلة انتخابية فنستمع الى الخطباء والمرشح قبل وصول المياه الى أفواههم ٠٠ وبعد أن تصل ٠

وهكذا نشهد عملية مقارنة صارخة بين أرض النفاق ، والارض بلا نفاق ، ولكنا نشهد فى نفس الوقت شيئا آخر هو الكوارث التى لاحقت الناس من هول مارأوا فى أنفسهم وفى الآخرين ، عراة من أى زيف يستر نواياهم وحقيقتهم ، ويساق الراوى وصاحب المتجر الى المحاكمة ، وينتهى القاضى الى أن الاعدام لايجدى معهما بل لا بد أن يعيشا حتى يظل عقابهما مستمرا هو رؤية الكوارث المتلاحقة على الارض التى بلا نفاق ٠

على أن الناس تتزاحم على متجر الأخلاق ، وتتخاطف البضاعة الكاسدة حتى يفرغ منها المحل تماما ، فاذا تجمهروا فى الايام التالية خرج اليهم صاحب الدكان ليقول لهم « هذه كلها أشياء موجودة فى نفوسكم » كيف ذلك ؟ « هو أن تتبعـوا

باخلاص قول القائل : « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » ، « ان الدين عند الله المعاملة » ٠

ولا ينهى المؤلف قصته النهاية التقليدية لقصص الاحلام كان يستيقظ من سباته العميق على احدى الأرائك ، ولكنه يقول : (يا أهل النفاق تلك هى أرضكم ، وذلك هو غرسكم ٠٠ ما فعلت سوى أن طفت بها وعرضت على سبيل العينة بعض ما بها ، فان رأيتموه قبيحا مشوها فلا تلومونى ، بل لوموا أنفسكم ، لوموا الأصل ولا تلوموا المرآة ٠أيها المنافقون !هذه قصتكم ، ومن كان منكم بلا نفاق فليرجمنى بحجر» ،وتنتهى القصة ٠ تنتهى ولا تنتهى ، فهى تستمر فى وجداننا تحمل هذا التساؤل : ألم تعلن هذه الرواية ميلاد دون كيخوته المصرى الذى يتهمه الجميع بالجنون لانه العـاقل الوحيد ، والذى يصاب بمختلف الشرور لانه لا يستهدف سوى الخير ؟ أليست هذه الرواية التى صدرت عام ١٩٤٩ هى لقاء جديد بين أبناء جيل المأساة ، حين نرى فى مجمع الشحاذين والحاجة نودق شيئا قريبا من زيطة صانع العاهات والدكتور بوشى فى «زقاق المدق»؟ ان هذا التشابه يؤكد أمرا هاما هو وحدة الاحساس التراجيدى عند أبناء الجيل الواحد ، حتى أن خاتمتهم الفنية قد تصبح واحدة ، مهما اختلف كل منهم فى طرق علاجها ، أجل ، فبينما تصبح قصة زيطة فى الزقاق خيطا متشابكا مع بقية الخطوط الصانعة للمأساة ، يأتى مجمع الشحاذين فى أرض النفاق «عينة» أو احدى العينات – كما يقول المؤلف – التى طاف بها الفنان ليرينا أنفسـنا فى المـرآة ٠ والاختلاف بين الأديبين اذن هو اختلاف طرق الأداء الفنى ، واختلاف وجهـات النظر الفكرية ٠٠

ان « الفانتازيا الفاجعة » فى أرض النفاق أكثر نضجا وعمقا من أبعاد « نائب عزرائيل » فهى على الرغم من أنها تخضع بشكل عام لاطار الرواية – اللوحة التى يحشوها المؤلف بالعديد من المقالات التقريرية المباشرة حول الاخلاق الفاضلة ، الا أنها تحمل فى ثناياها عوامل أخرى تخفف من وطأة هذه الظاهرة ، فنحن لو تركنـا الحواشى بالذيول والاستشهادات التى قد تتصل بالموضوع – فكريا – ولكنها تقطع أوصال السياق الفنى ، لو فعلنا ذلك لاستطعنا ان نتوقف عند مجموعة أخرى من العوامل التى خففت من سيطرة هذه الظاهرة ، لتفصح عن ظواهر أخرى ٠

١ – تعود ثورة السباعى الى الظهور فى هذه الرواية فى رؤيتهـا الرومانسية ومنطقها الفـردى ، فيقول « هـذه اللعبـة ، لعبة الحكم والحكام ، وما يتبع ذلك من انتخـابات وبرلمانات وأحـزاب وسـياسة ، هى شر ما ابتليت به مصر » أما الشعب المصرى فهو « شعب هليهلى يحب التفاريح ، ثم يحين وقت الانتخابات فيجريها رجال الادارة بمعرفتهم ٠٠ بصـرف النظر عن رغبة الجماهير » ، « هو شـعب طيب سهل الخداع ، سريع النسيان ، حائر بين هذا وذاك ٠٠ لان هذا شهاب الدين وذاك أخوه»٠ وينطلق الفنان فيجسد هذه الأقوال التقريرية فى صورة حية تؤكد نقطتين : الاولى انه يرى فى ملايين التعسـاء والأشقياء « العمـد التى أقيم عليهـا صرح الفقـر والمرض

والجهل » ، وأنه يجاهد فى البحث عن « حل » ، وأن هذا الحل يستمد قيمه الأخلاقية من التراث الذى يستشهد به والظروف التى يستعرضها ، وأن هذا الحل كامن فى « الفرد » فهو المريض دائما ، وهو الطبيب كما ينبغى أن يكون . النقطة الأولى التى أناقشها هنا هى « الوحدة الفكرية » التى تتسم بها أعمال السباعى فى تلك المرحلة . تتضح لنا هذه الوحدة بجلاء اذا علمنا أن مجموعته القصصية « يا أمة ضحكت » تدور حول هذا المحور الفكرى ـ وقد صدرت عام ١٩٤٨ أى أنها تالية لنائب عزرائيل وسابقة على أرض النفاق مباشرة ـ فى دائرة زمنية واحدة . بل ان مسرحيته ذات الرداء الفانتازى « البحث عن جسد » تجسد لنا الشق الآخر من هذا المحور ، وهو الايمان المثالى المطلق بالفرد كصانع للتاريخ . كان يوسف السباعى على وعى كامل بأن ثمة مأساة حقيقية تشكل كيان هذا المجتمع . وأنه لا بد من حدوث « شىء ما » ينقذ أمتنا من الوهدة التى تتردى فيها . ولهذا كله كانت تلك الأعمال جميعها تحمل طابع النبوءة فى بنيانها الفنى ومحتواها الفكرى على السواء . كانت الفانتازيا هى الرداء المناسب لنائب عزرائيل ودون كيشوت المصرى والروح التى تبحث لها عن جسد والأمة التى ضحكت من جهلها الأمم . هـذا الرداء الذى يتيح للفنان فرصـة مواتية لتجسيم بشاعة الواقع المر فى جزئيات كاريكاتورية لا تخضع للنسب الحرفية التى عليهـا فى الواقع . كما يتيح هـذا الرداء فرصة التنبـؤ بما ينبغى أن يكون عليـه المستقبل . وفى المستوى الفكرى تتناسب الفانتازيا مع الاطلاق والتعميم والفـردية المثالية الأخلاقية ، فثورة الفنان تنصب على الحكام والمظلومين على السواء ، لأنه يعتقد أن الشعب مسئول عما دعاه بفن القذارة حينا ، والسلبية حينا آخر ، والاسـتمتاع بالجانب الهزلى من حياته حينا ثالثا . كذلك فالأخلاق الضائعة ليست مجموعة من المعادلات الاقتصادية والخطوط الاجتماعية ، انها مجموعة من القيم التى لا يفيد معها الميزان المادى المحدد . وهكذا يصبح دون كيخوته ـ الفرد ـ هو النبى المبشر بمـا يضمره المستقبل ، وهو أيضا « المنقذ » أو المخلص المنتظر فى المستقبل . والفانتازيا ـ بطبيعتها ـ تسمح لهذه التعميمات التى تسوى بين الحاكم والمحكوم ، وتعزل الأزمة الروحية عن أية قواعد مادية ، وتتصور الفرد نبيا ومخلصا ، تسمح لهذه التعميمات أن تتحرك فى صور حية تعيش على الخوارق والمفارقات ، تجذب الدموع من مآقينا تحجبها البسمات فى عيوننا ، فى وقت واحد .

٢ ـ النقطة الثانية : هل نحاسب الفنان ، أو كيف نحاسبه على وجه أدق ، حين ترد فى عباراته صفات « الرعاع » و « الحوش » و « القذارة » يلصقها بجماهير الشعب ؟ . الحق أننا نظلمه حين نقـول « يلصـقها » لأنها تأتى على لسـان احدى الشخصيات ، أو بمناسبة أحد الأحداث والمواقف . ومن ثم ينبغى أن نحكم أو أن نقيم مثل هذه العبارات ضمن الأثر العام للعمل الفنى ككل لا بمعزل عن بقية البناء الروائى . لقد واجهت هذه القضية نقاد شكسبير الواقعيين ، اذ وردت كلمة « رعاع فى أعماله مرارا ، فهل كان شكسبير ـ حقا ـ يحتقر الشعب ؟ .

يجيب هؤلاء النقاد أنفسهم ـ فى الاتحاد السوفيتى ـ أن هذه العبارات المتناثرة لا تضع شكسبير قطعا فى الصفوف المعادية للشعب ، لأن أدب شكسبير فى جوهره ليس أدبا ارستقراطيا ·"ولربما نعثر على أديب يخلو أدبه من هذه العبارات تمــاما ، ولكن الأثر العام لأعماله الأدبية هو « الاحتقار العظيم » للشعب ·

ونحن ، على ضوء هذا المنهج فى التفكير نقول ان ثورة يوسف السباعى الأخلاقية ما كانت لتهمل جماهير الشعب المصرى فيما يتصف به من سلبية وهبوط · وهــو حقا ، لم ينشغل بالجذور العميقة لظواهر السلبية والهبوط ، ولكنه فى الاطار المثالى لمنهجه فى الفكر ، ما كان يستطيع الا أن يتأمل هذه الظواهر بمعزل عن جذورها ·

على أن ذلك لا يعفينا من تقييم ثورة هذا الفنان الصادق الأمين ، الا بأنها ثورة ايجابية فى حدود ذلك المعنى الذى فصلته منذ قليل ، أى فى حدود الرؤية الرومانسية للمأساة · فقد وصل مجتمعنا ـ ما قبل ١٩٥٢ ـ الى درجة بشعة من الانحطاط · ولهذا جاءت أعمال السباعى صرخة احتجاج دامية تطرق أبواب أحلامنا بعنف · ذلك أن هذه الصرخة العميقة المدوية أقبلت فى تلك اللحظات الباردة السابقة على الانفجار· أى أنها ـ ببساطة ـ كانت نذيرا بهذا الذى حدث فيما بعد ، كانت ارهاصا لــما آلت اليه حياتنا بعد قليل ·

ولكن الفانتازيا الفاجعة لم تكن الا احدى مراحل الفنان فى حياته الأدبية ، بل هى المرحلة الباكرة فى تاريخه الفنى · ولذلك فقد انتهت عند هــذه الحدود ، ولم يعاود السباعى كتابة أعماله التالية فى نفس الاطار · لا لأن المجتمع كان قد تغــير فحسب ، أو أنه آذن بالتغير ، بل لأن الفنان نفسه كان يتطور · وقد بدت ارهاصات هذا التطور قبلما يعلن المجتمع بداية تغيره · ففى عام ١٩٥٠ أصدر يوسف السباعى قصته الطويلة « انى راحلة » وكانت اعلانا حاسما بأن الفنان هجر الفانتازيا الفاجعة الى شكل جديد من أشكال المأساة · المأساة الرومانسية هى هى لم تتغير ، والرؤية الرومانسية للمأساة هى هى لم تتغير ، ومع هذا فقد تغير كل شىء !! تغيرت الخامة الفنية والعناصر النفسية والاجتماعية والذهنية الخالقة للعمل الأدبى · هكذا تركزت الأضواء على الجانب العاطفى أو المشكلة العاطفية أو مآسى الحب ، أو كما نشــاء من تسميات · ولم يكن اختيار هذا اللون المأساوى الحاد عبثا ، ولنستمع الى ما تقــوله « انى راحلة » ·

الحريق

بقلم : فخرى فايد

.. وتوجعت الأبواب الخشبية متفتحة لتندفع من ورائها اجساد نحيلة تجرى ملهوفة تجاه الصوت الحاد المستغيث ، تستعيذ بالله ، وتضرع اليه سبحانه ان يسترها . وتتساءل عن المسكين الذى حاقت به الكارثة ، لكن سرعان ما تتجمع همهماتها فى نداء يحث على الاسراع .

وتستجيب السوق فتوسع من انفراجها ، وتلتقى الجموع أمام المنزل المحترق ، ويزدحم الدرب بالعيون المستطلعة لحظات . ثم يلفظها لأعلى فتطفو فوق اسطح الدور تحيط بالنار ولا يتبقى بالدرب سوى عينين تبرقان متلصصتين فى ظل أحد الاركان ترقب اللهب فى تلذذ وشماتة ثم تنحدران لاسفل فتجدا اذرع الرجال ترتفع وتهبط بالعصى ساحقة الشرر المتطاير بينما انفردت أكمام النسوة محتضنة الجرار تفرغ ما بجوفها من مياه حول النار . فتضيق العينان حنقا ،وتستحيل نظراتها مقتا رهيبا تنهشان به الأجساد المتقدمة فى اصرار لتحصر الحريق .

وتتماوج نسمةرطبة فتلسع العينين وتجعلهما تطرفان ، وحينما ترتفع جفونهما تكشفان عن بريق كله تمن راحت تلاحق بهالنسمة المدبرة : ما هذا؟ لم تراك واقفا هكذا ؟ ..

وتجزع العينان فتسرعان بالاختفاء ، لا تلبثان ان تطلافى توجس يزيحه صوت أجش انطلق من قرب : لقد ذهبت .. وانا عائد لتوى من هناك بعدما وجدت شيخ الخفر لم يزل ينادى على المركز كى يرسلها .

حسنا .. رح ثانية لترى ما تم ، ولتتعجل اتمام الاعمال اذ يبدوأن الريح موشكة على الهبوب .

وتتألق العينانبالرجاء حتى لتوشكان أن تنطقا : ياليت ، ويحتج ذو الصوت الأجش : ولم لا تذهب انت ؟ اتراك أعلى منزلة منى . أم ترانى حمار سباخ فلا عمل لى الا المشورة بينما انتم تحاولون اطفاء الحريق ؟ .

لوح الرجل الواقف على حافة السطح

بذراعه وصاح فى قنوط : عمك ما رحت .. اطلع . اهى دارى ؟ .

واستدار مبتعدا ، وبقى ذو الصوت الأجش واقفا فى تردد انعكس قلقـــا فوق صفحة العينين، لكن سرعان ماتحول القلق الى ارتياح لما تحرك ذو الصـــوت الأجش الى داخل الدار مهمهما ، وهل تراها دارى أنا ؟ .

وهبت نسمة .. فأخرى اعنف من سابقتها . ثم تتابعت النسمات متصلة وبدأت النيران التى كانت أخـــذة فى الانكماش تنفرد مســـتعيدة قواها . ويستفسر صـــوت قلق : ما بال رجال الاطفاء لم يجيئوا يا اخوان ؟

لكن الصوت يضيع وســـط فحيح النيران ، والانفجارات المكتومة أحيـــانا كالآهات، المدوية احيانا أخرى كالصراخ التى تطلقها كيزان الذرة المدفونة تحت حزم الحطب وحباتها تندفع لأعلى متوهجة لتتناثر هشيما اسود فوق الجموع التى ازداد صـــخبها . وكثرت نداءاتهـــا . وترتسم الراحة فوق العينين وهما تريان الهلع الذى دب وسط صفوف المقاومة فتخبطت متضاربة بعضـــــها ببعض ، وترتفعان مع امتداد أعمدة اللهب التى استطالت تتماوج عملاقة .. رهيبة ، تكاد تلامس وجه الســـــماء المـــكفهر بالسحب فتمتـــلىء العينـــــان رهبة . وتغضان الطرف متلاهيتين بالتحديق فى الزقاق الحالى .

ويعود الصوت القلق يلح : يا اخوان يجب أن يجىء رجال الاطفاء .

ولا من مجيب فالزقاق خاو والجميع منهمكون فى الصراخ واصـــدار الاوامر

وتتقدم العينان الى الامام قليـــلا .. ثم تعودان ثانية للانزواء فى الظل وقد خبا بريقهما وفاضـــتا بانقبـــاض قاتم ، يا اخوان اننـــا اعجز من أن نقف أمام هذا الحريق . انه يلتهم كل شىء فالنيران جذورها عميقة وقد تمتد لتحرق البلدة كلها .

وتجفل العينـــــان ، ثم تمرقان خارج نطاق الظل تشقان الزقاق هلعة فـــلا تتوقفان الا وقد ثبتتا فوق شيخ الخفر وقد جلس يتنهد منهارا فى بوق الهاتف فى الطريق .. انهم فى الطريق .. اذن سيحضرون .. اكد عليهم فالحريق كبير انا اقول الحريق لا الفـــاعل .. فاعل ماذا ؟ .. نعم .. نعم مجهـــول .. مجهول .

ويعلق شـــيخ الخفر سماعة الهاتف ويزفر فاردا ظهره فيصطدم بصره بالجسد المقرور وقد اطلت منه نظرات كلها لهفة وتساؤل فيزوم : هـ ...م ماذا ترد يا ولد صاحى ؟.. والمحروقة ؟.. انها فى الطريق كان المفروض أن تكون قد وصلت منذ زمن .ولكنها ضلت الطريق وذهبت كالعادة الى قرية المراقبة . وكأنه لا تكون حرائق فى الدنيا الا والمراقبة مصدرها . المصيبة انهم يستفسرون فى قلق عن الفاعل لا عن الخسائر .

ويضرب شيخ الخفر كفا بكف وهـــو يعجب للأمر ، مصيبة والله مصيبة ؟ . لكنه سرعان ما يتحول ليعجب من امر الولد الحمار الذى جرى وتركه يحادث نفسه طوال تلك المدة .

وقف الصاحى وســـط الرجال يزف البشرى مؤكدا ان رجال الاطفاء سيصلون

بعد لحظات ، لكنهم لم يأبهوا به فلقد راحوا يتراجعون فى استسلام امام وهج النيران المستمرة ، ويؤكد الصاحى : وكتاب الله لقد سمعت شيخ الخفر وهو يقول انه سيسرع لينتظرهم عند مدخل البلدة •

ويصرخ صوت آمر : اخلوا الاسطح المجاورة مما عليها من حطب ، هذه الدار قد حكم عليها بالدمار وعلينا ان نؤمن الدور المجاورة من شرها •

وتلفح أنفاس لاهثة وجه الصاحى : فقط لو نعرف الفاعل لمزقناه شر ممزق•

ويتوسل الصاحى ، يا اخوان يجب أن نصمد •• لحظات ويجيئون •

ويعوى صوت غاضب : ماذا نفيد من مجيئهم وصنابير الاطفاء غير صالحة ؟
ويرد الصاحى فى رجاء : سيتصرفون انه عملهم وحتما سيجدون اكثر من حل •

والاجساد تتراجع •• والصاحى كاد ان يصبح وحيدا فوق السطح الملتهب• فاندفع يختطف عصا من يد تتراجع ، وتقدم ينهال بها فوق النار ، يا رجال يجب أن نصمد ، كل ماعلينا أن نصمد تقدم يا أخ •• ساعد يا زميل هناك •

وهناك انهار رجل • رمقه الصاحى واستدار ، لكنه لم يبرح مخيلته ، بقى، يهمس معاتبا : اهكذا تفعلها ياصاحى• امن اجل خلاف بينك وبين عبد الغفار تحرق رزقه ورزق عياله ، ثم هناك ستحرق البلدة كلها ؟! ومن خلال اللهب أطل وجه عبد الغفار حزينا يائسا ، تنطق ملامحه بالضياع ، ومن حوله التف عياله يتعلقون بجلبابه ويصرخون فى رعب • وتشتد ضربات الصاحى فى خبل ، فيهتز بدنه المحموم ، وتتناثر دموعه منسالة فوق وجهه غاسلة مايلطخه من سواد ، سامحنى يا عبد الغفار •• سامحنى • لقد كنت أخطأت فى حقك • لقد كنت دائما احقد عليك وانا اساس الخطأ بالرغم من انك ظهرت بمظهر المخطىء • فلقد تعمدت ان أقسو على بقرتك بالضرب ، فكنت أضربها فى اماكن تجعلها تسقط جنينها ، لانى كنت غيرانا منها ، لذا رحت انتظر الفرصة حتى اطفىء نار غلى ، فما ان شاهدتها تخطو فتنثنى عن الطريق مندفعة الى زرعى حتى كان ما كان • مع انه كثيرا ما تخطىء دوابنا الطريق فنردها اليه دون ان نعاملها بمثل تلك القسوة •• لكن حسدى أعمانى فسامحنى •• سامحنى يا عبد الغفار •

ويود عبد الغفار لو يسامحه ، لكن وجوها كثيرة تبرز من وسط اللهب ، ملتفة حوله ، تكتم فمه محتجةفى غضب لا تغفر له •• لا تغفر له •• احرقه •• احرقه •

ويزداد حقدها ، ويتمدد : احرقه •• احرقه •• احرقه •

حتى ليشمل كل شىء : احرقه •• احرقه •

ويقترب وجه عبد الغفار من الصاحى وقد مسخه غل اسود تنفثه كل خلية من خلاياه فيحيط بالصاحى ثقيلا •• ثقيلا يكاد يخمد انفاثه : احرقه ••• احرقه •

وتجذب الصاحى قوة جبارة،فتخرجه من نطاق الحقد فيشهق لاهثا : لا ••

لا ٠٠ دعنى ٠٠ دعنى لن أخف ٠٠ يجب ان يخمد الحريق ٠٠ يجب ٠

وراح يجاهد حتى استطاع الافلات من اليد التى جذبته بعيدا عن الجزء الملتهب من السطح ، والذى ما لبث أن انهار فحصر النيران اسفل بين الجدران ٠

وافاق الصاحى ليجد نفســه وقد تصلبت ساقاه وانتصب جسده على حافة هاوية قرارها سعير ٠ فاستدار يجرى الى الجانب المطل على الطريق صارخا فى فــرح : يجب ان نحصر النــيران فى الداخل يا رجال ٠

ثم قفز من فوق السطح الى الأرض واذهلت قفزته الجميع فتابعوه بنظراتهم ثم تبعوه باجسادهم ، وقد دب فيهـا حماس دافق ٠ وتساءل رجل وهــو ينحنى : من هذا الشجاع ؟ ٠

فتفحصه جاره ، فلما تبينه ٠ رد فى عصبية ، الا تعرفه ياعبد الغفار ٠٠ انه من ضربت من أجل دفاعه عن زراعته !

وتسلل شعور الى اعماق عبد الغفار بأنه منبوذ ، وزادت حدته لما استرجع صورته وقد وقف منذ لحظات وســط الرجال مستفسرا عن مكان الصاحى ، مقسما انه لو رآه فسيرمى به الى النار ، وخيل لعبد الغفار ان جميع الوجوه قد استدارت من داخل الدار وتطلعت اليه فى شماتة وكراهية ، فامتلأ بالغضب وود لو يصرخ فيهم : ايها المخدوعون انه هو من اشعل الحريق ٠

لكنه قام من سقطته ، وانزوى يرتجف فى ركن قبالة داره ٠ وابصرت عيناه من خلال الدخان الصاحى يقود الرجال الذين ضيقوا الخناق على الجمر ، وتمنى لــو تستطيل ذراعاه فيقذف به فوق الاتون : ياله من مخادع قذر ٠

انتفض رجل ٠ فلوى رأسه وتطلع الى عبد الغفار فى امتعاض ٠ كان صاحب الوجه الذى سأله عمن يكون الشجاع ٠ والتقت عيون اربع فتجهم الوجه وظهر عليه القرف فتكورت منه الشفتان وبصق تجاه عبد الغفار واشاح ٠

وازداد غيظ عبد الغفــار وصرخت اعماقه فى صاحب الوجه : انك حمار لاتعرف شيئا ، فليس هناك احد غيره اشعل الحريق ٠

وخيل الى عبد الغفار ان الوجه قد عاد يلتفت اليه من جديد ٠ وفى هذه المرة لم يتكلم ايضا ٠ وان استنكرت العينان فتحدثته : لا ياشيخ ٠٠ ومن اذن الذى بدا بالعدوان ٠٠ اهى بقرتك وقد افلتت من مربطها ، أم انت الذى اطلقتها من مربطها لتتلف زرع الصاحى لغيرتك من نضرته ؟

ولم تتحول العينان عن عبد الغفار ، وظلت تغرس نظراتها المتحدية فى عينيه فلم يملك سوى الاستسلام فاطرق ٠

وخفت سرعة الريح ثم تحولت نسمات واهنة ، وانكمش عبد الغفار فى وقفته فالتصق مختفيا فى ظل الحائطين ، بينما شــدد الرجال من حملتهم ٠ فقست ضرباتهم ، وزاد تقدمهم حتى لم يعــد يبدو للجمر من أثر ، فليس هناك سوى رماد ودخان ٠

وتلصصت نظرات عبد الغفار منتقلة بين الاجساد المتلاصقة ، حتى استقرت على الصــــاحى فغاضت بود واسف : يا ربى لكم ظلمتك يا صاحى ٠٠ فقط

لو تلتفت وتشير الى أن أقبل ٠ اذن لارتميت فوق قـــدميك واعترفت لك بخطئى ، فأنا المتسبب فى الحريق وليس غيرى ٠

وتمايل الصاحى فكاد جســـده ان ينطرح ، لكنه استند الى الســـلم الذى يتوســـط الدار فيصل بين الداخـــل والسطح ، وفزعت العينـــان ، واسرع عبد الغفار يشق طريقه وسط الجموع، واحتضن الصاحى فحال بينه والسقوط ثم حمله واستدار خارجا ٠

فى الخارج كانت السماء صافيـــة ٠ والنجوم تتألق ، والسحب قد استحالت تتفا سرعان ماتبـددت ، بينمـا تلاشى الدخان المتصاعد من السطح تماما ٠

الى طوب جدار أسند عبد الغفارجسد الصاحى ٠ وراح ينادى عليه ليفيق من اغمائه ، بعد حين فتح الصاحى عينيـه فالتقت بعينى عبد الغفار وتحركت‌شفاه أربع فى تناسق أخرج كلمات واحـــدة تطلب السماح ٠

ومن بعد بعيد كان ينساب صـــوت أجراس عربات المطافىء فى رنين واهن غطته زغرودة اطلقتها امرأة وتهليل فرح ارتفعت به عقيرة الرجال ٠



أنا الشعب

للأستاذ
محمد فريد أبو حديد

بقلم فتحي الأبياري

من أشق الموضوعات الفنية على الفنان القصاص ، أن يتناول فى عمله الفنى موضوعا وطنيا • والسبب فى ذلك أن المادة الوطنية تحتاج الى يقظة تامة من الفنان عند صياغتها فى قالب فنى أصيل ، بحيث لا يخرج الينا النص الادبى وخاصة القصة عبارة عن مواقف وعظ وارشاد مملة ، أو أحداث لا تتمشى مع أصول المنطق ، والأساليب الفنية فى القصة • وبالرغم من تلك العوائق ، **اتخذ الاستاذ محمد فريد أبو حديد الفائز بجائزة الدولة التقديرية هذا العام ، موضوع قصته الطويلة «انا الشعب»** من أعماق القاعدة السفلى •• والطبقة المتوسطة • وطبقة الاستقراطية المنقرضة •واتخذ رمزا للطبقة المكافحة هو « سيد افندى زهير » وهو بطل القصة

فكيف استطاع الاديب الكبير أن يفلت من مصيدة البعد عن واقعية العمل الفنى فى القصة الوطنية ، والى أى حد كان موفقا •

وتعتبر هذه القصة بالذات من أحب الاعمال القصصية لدى الاستاذ ابو حديد ، ويرجع السبب فى ذلك كما يقول « اننى كتبتها قبل الثورة فى سنة ١٩٥١ على التحديد ، ثم نشرت هذه الروايه فى ظل الثورة ، وقرأها الناس • فأحسست أننى شاركت فى حركة « الضمير » العامة • وضعت حجرا فى البناء الذى كنا نحلم بأن يوجد •• **التفاف الشعب حول الزعيم** » اذن فقد كانت القصة **ارهاصا بالثورة** •• ولكن ، ما هو الاسلوب الذى انتهجه الاستاذ محمد فريد أبو حديد فى البناء الفنى لقصة « أنا لشعب » •

وضع لنا المؤلف شخصية « سيد زهير » ليحكى لنا أحداث القصة بطريقة الترجمة الذاتية فى أربعة وثلاثين فصلا • ومن خلال الفصول العشرة الأولى قدم لنا «سيد زهير» نفسه ، وأحداث طفولته • فقد توفى والده عندما كان على وشك دخول امتحان شهادة الثقافة العامة • وأثرت حادثة وفاة الاب على الاسرة ، مما دفع سيد الى أن يبحث عن أى عمل ليساعد أمه • ويحتك «سيد» بالحياة العامة ،وتكتشف له معادن الناس •• وخبايا المجتمع • فعندما أراد أن يلتحق بوظيفة فى مجلس المديرية ، كان عليه أن يدفع خمسة جنيهات كرشوة • فلم يستطع • وعندئذ ذهبت به أمه الى أسرة «السيد احمد جلال» صاحب المحلج ، والذى كان جارا لأسرة سيد فى يوم ما • وألحقه السيد جلال • بالعمل عنده فى المحلج ، ليزن بالات القطن ، ويكتب الارقام عليها •

وشخصية « سيد زهير » من الشخصيات النامية ، وهى الشخصية الوحيدة الرئيسية التى حشد لها الاستاذ محمد فريد أبو حديد كل الاحداث والشخصيات

الثانوية المسطحة لكى تلقى الاضـواء على تلك الشخصية التى ترمز الى الشعب • « وسيد زهير » مر بمراحل ثلاث خـلال فصول القصة ، المرحلة الاولى •• مرحلة الطفولة والصبا ، والثانية تبدأ عندما ترك دمنهور وسافر الى القـاهرة ليشترك فى مقاومة الاوضاع المقلوبة ، ومساندة الحركات الشعبية المطـالبة ، بتذويب الفوارق الاجتماعية ، واعادة الحقوق المغتصبة من الشعب الكادح ـ والمرحلة الثالثة تبدأ منذ دخوله السجن ، وصراعه ونضاله بعد الافراج عنه فى سبيل المبدأ الذى اعتنقه •

ففى المرحلة الاولى وفق الكاتب ، فى ابراز كل النواحى النفسية والاجتماعية لشخصية «سيد زهير» ، فهو مكافح ، طموح ، له نزعة أدبية ، فقد كتب مقالة ونشرها فى جريدة «النبراس» بدمنهور ، وألف مسرحية لتمثلها فرقة الرفاق ، ولكنها فشلت بسببه ، واستطاعت بعض الشخصيات الفرعية المسطحة مثل شخصية «حمادة الاصفر» الصبى الشرير ، وصديقه عبد الحميد وأمه تلك الشخصية السلبية التى لم تقم بدور ايجابى تأثيرى على «سيد» أما « السيد أحمد جلال » • فهى الشخصية التى كان لها أثر عميق فى نفسية سيد الصافية • فقد الحقه بمحلجه • وكان يرسله الى بيته حيث التقى «سيد» «بمنى» ابنة السيد جلال ، فاحبها ، لكن خشى أن يبوح لها بحبه طوال القصة ، بسبب الرواسب الطبقية فى أعمـاق نفسه ، كيف يمكن له ، وهو الذى يعمل وزانا عند الاب فى المحلج ، أن يتطاول ويسـمح لنفسه أن يطلب يد « منى » ابنة الاسياد !!!

وكانت شخصية «مصطفى عجوة» المنافقة الدساسة سببا فى فصل « سيد » من عمله فى المحلج • وتألم « سيد (لأنه طرد ظلما بسبب الخسة والنفاق ، ولم يحزن على شىء حزنه على فراقه «لمنى » وعدم رؤيتها بعد ذلك لأنه قطع علاقته بوالدها ، ثم اتجه سيد الى ميدان التجارة ، ونجح فيه •

وحل موسم الانتخابات ، فكرس «سيد» وقته وماله هو وصديقه «عبد الحميد» لنصرة « العجمى » الذى كان زميلا له أيام الدراسة والذى رشح نفسه ضد « السيد جلال » الانتهازى ، والباشا محمد خلف ولكن القوى الاستقراطية اكتسحت المعركة ، بأموالها ، ونفوذها ، وباستغلالها لنواحى الضعف فى نفوس الطبقة الكادحة • فقد تمكن السيد جلال من ازاحة «سيد» من ميدان المعركة بأن استغل نفوذه لدى الشرطة ، وتم القبض على « سيد » بتهمة العيب فى الذات الملكية ، تلك التهمة التى كانت السوط القاسى فى يد الطبقة الارستقراطية ، والمتمسحين فى أعقابهم ، لضرب أى فرد يتشدق بالكرامة ، وبحقوق الشعب • وتمت خطبة «منى» لابن محمد باشا خلف الذى تنازل عن الترشيح لصهره الجديد « السـيد أحمد جـلال » • والانتصار الثالث هو تنازل «العجمى» عن الترشيح لقاء تعويض كبير دفعه اليه السيد جلال •

كل هذا كان بالنسبة « لسيد » صدمة كبيرة ، وخاصة عنـدما علم أن الذى تسبب فى اعتقاله ، والافراج عنه كان السيد جلال •• وقد أخبره صديقه عبد الحميد بكل ذلك • مما جعل «سيد» يحدث نفسه بصوت عال قائلا ص ١٦٨ **«انها مخزاة ان نعيش فى مجتمع كهذا • الرجال عبيد يساقون بالسياط أو يشترون بالمال ، والنساء**

أيضا يعرضون فى أسواق الرقيق كما كانت الجوارى تشترى • الذهب هو المعبود ، ومن أجل الذهب يبيع الجميع كل ما عندهم حتى الحرية ، والكرامة ، وحتى الحب •• هى معركة أكبر خطرا ولا تتسع لها دمنهور » •

وعندئذ سلم عبد الحميد خطابا الى (سيد) من صديقه « على مختار » رئيس تحرير جريدة «بريد الاحرار» فى القاهرة • وجاء فى الخطاب تعيين «سيد» محررا فى « بريد الأحرار » بمرتب شهرى •• (عشرون جنيها !!!) عدا أجر القصص ، والقصة الواحدة بخمسة جنيهات •

والذى يؤخذ على المرحلة الاولى من شخصية « سيد » هو الحشو الذى لاطائل له فى كثير من المواقف والاحداث وأن المؤلف لم يكن موفقا فى المجال القصصى وخاصة عندما أراد أن ينقل « سيد » الى عالم الصحافة • فليس من المعقول أبدا أن تطلب جريدة تصدر فى القاهرة تعيين شاب من دمنهور مثلا يعمل محررا فيها لأنه قد نشر فيها قصة • خاصة وأن « سيد زهير » لم يحصل الا على الشهادة التوجيهية • ويكفى أن يعرف المؤلف أن صحافتنا الآن بما وصلت اليه من تطور وازدهار ، لاتعين المتخرجين فى قسم الصحافة والذين يحملون مؤهلا عاليا الا بعد مرور ستة أشهر تحت التمرين مجانا • ثم بمكافأة قدرها خمسة جنيهات • واذا تم تعيينهم ، فان الجريدة تدفع لهم مرتبا لايزيد عن العشرين جنيها حسب القانون الجديد الذى لم يظهر الا فى العام الماضى فقط !!!

والشىء الآخر أن أية جريدة ، لا تدفع لمحرر عندها ثمنا لقصة نشرها فيهـــا ، وانما تستكتب بعض الكتاب المشهورين لكى تضمن قراء جددا يشترون الجريدة • ونقطة أخرى هامة ، أن المؤلف نسى أن الصحفى الذى يكتب بابا ، أو ركنا يوميا فى أية جريدة ، لابد أن يكون قد مضى عليه فى الصحافة أعواما طويلة ، بحيث تفرد له الجريدة مساحة معينة ، ليعبر فيها عن رأيه ، وعن رأى الجريدة • خاصة وأن جريدة مثل « بريد الاحرار » تلقى معارضة شديدة ، وحربا شعواء من الطبقة الارستقراطية ، وأصـــحاب الاستغلال • فلم يكن معقولا « لعلى مختار رئيس التحرير •• أن يعهد « لسيد زهير » كما جاء فى القصة تحرير باب ثابت ، أدى فى نهاية الامر الى مصادرة الجريدة ، واعتقال « على مختار وسيد زهير » •

وقد تعرضت لهذه النقطة بالذات ، لأنها تعتبر المرحلة الثانية الهـــــامة فى شخصية « سيد » وبالتالى •• فى شخصية الشعب المهضوم الحـــقوق • فقد أراد الكاتب أن يعبر عن الثورة ، وعن الغليان فى صدور الشعب المسكين•• بتلك الطريقة ، التى يكشف عنها فى الحوار الذى دار بين سيد وصديقه عبد الحميد ، عن فلســفة الثورة •• التى يجب غرسها فى الصدور عن طريق الادب والكتابة ، والتعبير عن كل هذا بالكلمة •

« فيقول له صاحبه » :

ـ كأنك تريد الثورة •

فقلت فى غيظ : أتريد أن ترعبنى بهذا السؤال ؟ نعم اريد الثورة ولا شيء غير الثورة ٠

فهز رأسه قائلا : أنا أخالفك هنا ٠٠ الثورة الشعبية تدمر ولا تفكر ولو فرضنا أن الثورة نجحت فانها لن تجد الشعب الذى يحسن الاستفادة منها ٠ قد نرضى عن الثورة التى تدمر اذا جنينا من ورائها خيرا ، ولكن الثورة التى لايستفاد منها لاتكون الا شرا محضا ٠

فقلت فى عنـاد وماذا يمنع من أن نستفيد من الثـورة ؟ لقد قرأت كثيرا عن ثورات التاريخ وتعلمت من ذلك حقيقة واحدة خالدة نحن جميعا من البشر وفينا جميعا عناصر الخير والشر ، وفينا عناصر القوة والضعف ٠ فى نفوسنا الانانية والتضحية ، وفينا الشجاعة والجبن ، وفينا العدل والطغيـان ، نحن ننطوى فى الوقت عينه على السماحة واللؤم وعلى السمو والاسفاف ٠ من الممكن أن تتغلب علينا عناصر الخير ٠٠ العبرة بالقوة التى تثير هذه العناصر أو تلك ٠

فقال فى هدوء : عظيم ياسيدى ٠ ولكن هل نسيت أنك تجعل كل الامور متوقفة على شرط غير موجود ؟ أين هذا المحرك الذى يبعث عناصر الخير ؟ ٠٠ هـــذا المحرك لاوجود له الا فى داخلنا ، وعلينا أن نخلقه فى الناس بالادب والتربية ٠

فقلت فى عناد : المسالة مثل الحلقة المفرغة ٠ لن نستطيع أن نصلح داخلنا ما دامت السيادة فى أيدى الانذال والاشرار والسفلة ٠ ولانستطيع أن نصلح أمورنا الا اذا أصلحنا داخلنا ، حلقة مفرغة لانعرف أين طرفاها ٠٠

ليس أمامنا الا أن نثور على هؤلاء السادة المفسدين لنخلع عنا نيرهم ونحل فى محلهم من يثير فى الناس عناصر الخير ٠ نحن الشعب ٠٠ نحن العبيد المحطمون ٠ علينا ان نثور اذا شئنا أن ننجى أنفسنا من العار ، ونحمى ظهورنا من ضرب السياط ٠ الثورة ٠٠ ولاشيء غير الثورة !!!

وشيء آخر يدل على الافتعال ، وهو كيف يمنح على مختار «سيد زهير» مبلغ مائة جنيه ليشترى بها بدلة ولوازمها لحضور حفلة السـادة المفسدين ليكتب عنها تحقيقا ان هذا لم ولن يحدث فى عالم الصحافة !!!

***

تلك كانت بعض المآخذ على المرحلة الاولى من شخصية «سيد زهير» ٠ أما المرحلة الثانية ، فقد بدأها فى العمل فى جريدة «بريد الاحرار» كاشفا فساد الطبقة المستغلة التى تمتص دماء الشـــعب ، لتنعم هى بالرفاهية واللذة الماجنة ٠ وذلك فى كتاباته وتحقيقاته المستمرة ٠ ولكن كيف يصبح «سيد زهير» كاتبا صحفيا معروفا ، يعطيه «علىمختار» مائة جنيه ليشـــترى بها بذلة ٠ ثم يعيش فى غرفة فوق السطح بمنزل ببولاق ، حيث كانت تخدمه بنت صاحب المنزل «فطومه» ويستطرد المؤلف فى بعض مشاهد ومواقف بين «فطومة» و «سيد» لا تؤثر علىمجرى الاحداث فى شيء ٠ ولو حذفنا

الى تلك المشاهد والمواقف ، لما اعتز بناء القصة فيد شعره • ولكنه استطراد وحشو، يلحظه أى ناقد على الفور عند قراءته للقصة •

ويتعاون • على مختار مع سيد ، فى كشف النقاب عن عفونة خبايا المجتمع اللاهى، ولكن سرعان ، ماتصادر الجهات المسئولة أعداد الجريدة وتعتقل سيد و «رئيس التحرير • وفى تلك الأثناء يموت السيد جلال ، متأثرا بصدمة نفسية أصابته بسبب الفضيحة • فقد كان يعاشر احدى الساقطات فى دمنهور معاشرة سرية بعقد زواج عرفى ، وقد ولدت منه ولدا • ثم استغل حمادة الاصفر هذا السر فى ابتزاز الاموال من السيد جلال الذى لم يحتمل أثر الصدمة • وعندما يعلم «سيد زهير» بتلك القصة تتملكه الشهامة ويشترى قسيمة الزواج العرفى بمبلغ مائة جنيه لينقذ شرف السيد جلال بعد وفاته • وقد فعل كل ذلك بسبب حبه الدفين لمنى •

وانتهى نضال «سيد» وكفاحه المستمر فى الجريدة الى السجن، حيث قاسى مرارته ثم خرج منه • ليواصل النضال • ولكنه فوجىء بفتور عزيمة «على مختار» لان اليأس تسرب الى قلبه ، ويسأل «على مختار سيد» عن سبب مواصلة النضال ، فيجيبه الآخر قائلا •

– من أجل من ؟ •• من أجل أنفسنا من أجلك ومن أجلى ومن أجل كل من يعيش ويتألم •• من أجل أبنائنا الذين سوف يتألمون (ص٣٤٨)

ولكن «على مختار» يصر على مغادرة البلد ، لانه لا يستطيع مواجهة كل القوى الطاغية التى استطاعت أن تعتقلهما وتذيقهما الوان العذاب ، ولكن «سيد» يقول له :

– بل ماذا تصنع فى غير هنا ؟ •• هنا بلادنا ولا مفر لنا من أن تكون هى بلادنا اى بلد تقبلك كأحد أبنائه ؟ ••

أتقبلك انجلترا أو فرنسا •• أو أمريكا أو غيرها لتكون ابنا من ابنائها ؟ •• لن تكون هناك الا نزيلا غريبا تقضى أيامك فى فراغ • أم تريد أن تذهب الى بلد شرقى يمكن أن يكون أقرب اليك ؟أين ؟ : تعيش فى تركيا ؟ فى سوريا ؟ العراق ؟ •• فى السودان ؟ تعيش هناك على هامش الحياة وأهل تلك البلاد يجاهدون كما نجاهد نحن؟ هل ترضى ان تكون غريبا بين قوم يجاهدون من أجل أنفسهم وانت ساكن ؟ •• أم تريد أن تشارك هؤلاء فى جهادهم وتتخلى عن الجهاد هنا ؟
وبعد مناقشات جدلية ، تتدخل فيها الاحداث فى البلد ، ينفعل «على مختار» ويعاود الكفاح مرة أخرى • وقد رمز المؤلف بعلى مختار ، تلك الفئة من الشعب التى تملكها اليأس ، واستكانت بعد أن رأت بطش الطبقة الفاسدة •

ووقعت المفاجأة ، فقد فوجىء الناس بأن القاهرة تحترق ، ثم اشتراك سيد فى جمعية «شبان الفداء» ، وهى رمز يخيل الى أنه كان ارهاصا ، بجماعة الضباط الاحرار ثم ظهرت حوادث الاسلحة الفاسدة ، وسقوط الحكومات فى أسابيع قليلة • وتساءل الشعب أو بمعنى أصح تساءل «سيد زهير» **أين تنتهى هذه المهازل التى يمثلها صغار فى أسماء منفوخة •الى أين نصير ؟ ولم يكن لهذا السؤال الا رد واحد •• ثورة أخرى مثل التى وقعت فى ٢٦ يناير • ولم لا ؟ •• غير انى كنت أعود دائما فاقول •• وماذا**

تجنى من مثل تلك الثورة ؟ ٠٠ وماذا يجنى الجسم العليل الذى تسممت دماؤه من انفجار جلده بالقروح ذات الصديد ؟ ٠٠

وعندئذ يكشـــف المؤلف عن نفسه ، فاختلط على الامر ، هل الذى كتب تلك القصة هو «سيد زهير» ٠٠ أم محمد فريد أبو حديد اذ كتب يقول :

« والآن تقترب نهاية القصة على فجاة كما تنتهى القصص الرديئة ، وان كنت أعتذر عن هذه النهاية المفاجئة بأننى لم أتعمدها لأن المقادير هى التى جعلتها تنتهى فجاة ٠٠٠

فقد اتفق وقوع حادثين فى وقت واحد ، بل فى ساعة واحدة ، كانت فيها نهاية القصة ٠ فأما الحادث الاول فهو اننى كنت جالسا الى جانب المذياع استمع الى القرآن الكريم والى أخبار اليوم الجديد ، فاذا صوت ينطلق معلنا قيام ثورة فى الجيش٠ وأما الحادث الثانى فانى ما كدت أعود الى شقتى المتواضعة فى باب الخلق ، حتى وجدت برقية بنتظرنى « تم الاتفاق وفى انتظارك اليوم حسب الاتفاق «منى» ٠

***

لقد كانت حبكة القصــة ، فى الجودة والاتقان بحيث تجعل **القارىء فى أعماق الأحداث والمواقف** ٠ ولكن بعض الاستطرادات والمواقف الجانبية التى يمكن بسهولة أن نستغنى عنها ، **أضعفت من روعة التماسك الفنى للقصة ككل ٠ أما الحوار ، فجاء على لسان الشخصيات سلسا ، رائقا ٠ وابتعد عن الألفاظ المتقعرة ، بل لقد أورد المؤلف بعض عبارات فى الحوار تبدو للوهلة الاولى عامية ، ولكنها فى حقيقة الامر من اللغة الفصحى القريبة من العامية ، وقـــد استعمل ذلك الحوار عن لســان « أم سيد » و«فطومة» و«حمادة الاصفر» ٠٠٠**

وتعتبر قصة « أنا الشعب » من معالم أدبنا الارهاصى بالثورة ٠ صور فيهـــا الكاتب ، جميع نواحى المجتمع المتعفن من رشوة ، وفساد فى الحكم ، واضطهاد للرأى الحر ، واستغلال للسلطة وضياع الكرامة ، والشخصية فى سبيل الذهب ٠ من الحقير مثل «حمادة الاصفر» الى السيد جلال ٠ هذا يبيع نفسه من أجل القرش ، وذاك يبيع ابنته ليكسب معركة انتخابية ٠ ونجح الكاتب فى التعبير بصدق عن المواقف والمشاهد التى احتوتها القصة ٠ لتتبلور أخيرا ٠٠ فى الصرخة المدوية التى أطلقها «سيد زهير» وهو فى السجن ٠٠ « أنا الشعب » ٠٠ ٠٠ «أنا الشعب » ٠

الكتاب

تأليف : نورمورات سارنجانوف

ترجمة : رمزى يسى

ارسلنى معهد الآداب التابع لأكاديمية العلوم للبحث عن المخطوطات والكتب القديمة ، فطوح بى القدر الى صميم صحراء كاراكوم . ووصلت فى أحد الأيام الى مزرعة لتربية الأغنام تقع فى بقعة منخفضة بين الرمال . وقد أثار وصولى الى ذلك المكان الفضول المعتاد فى مثل هذه الأحوال . وحاول كل من هناك أن يعرف من أنا ، ومن أين أتيت ، وسبب مجيئى الى مزرعتهم فأوضحت لهم كل ذلك .

وقال لى رئيس المزرعة الذى استضافنى ان جاره العجوز فلمورات ـ أغا يملك كتابا من الكتب القديمة التى جئت للبحث عنها ، فهو كتاب نادر يستحق أن يسعى المرء الى الحصول عليه والاحتفاظ به فى صندوق من الذهب .

ووجدت فلمورات ـ أغا فى بيته ، وهو رجل مسن ذو لحية ملفتة للنظر تغطى كل صدره ، فرحب بى ترحيبا رقيقا ، ولكن عينيه الحادتين ، عينى صياد السهوب ظلتا تحدقان فى طوال الوقت ، وأخيرا قال لى برقة :

ـ اقترب من النار أيها الشاب الطيب » ثم لم يلبث أن انهال على بالاسئلة :

ـ من أين أنت ؟

فاجبته عن سؤاله

ـ أين ولدت ؟ أين تقيم قبيلتك ؟ وماذا تعمل ؟

ورويت له قصة حياتى فى ايجاز ، وأخبرته أن معهدا من معاهد البحوث ارسلنى للبحث عن الكتب النادرة .

فقال : « آه ، هذا شىء عظيم »

وأخذ يمشط لحيته الطويلة وهو يتفرس بامعان فى وجهى مرة أخرى ، ثم التفت الى زوجته وقال :

ـ ناولينى الكتاب .

ونهضت المرأة العجوز وأخرجت من كيس مصنوع من السجاد معلق على أحد قوائم الخيمة ، مجلدا ضخما ملفوفا بقماش حريرى ذى ألوان زاهية ، وقدمته لزوجها فى وقار كأنه ذخيرة مقدسة . وتفرس فلمورات ـ أغا فى وجهى مرة اخرى ثم بدأ حديثه قائلا : « ان كانت مهنتك حقيقة كما ذكرتها فانك ستعرف قيمة هذا الكتاب على التو .

كان الكتاب ... المجلد الضخم الثقيل مربوطا بقماش بال لايزال يحمل

بقايا رسوم لأزهار قرمزية اللون • وعلى كل صفحة من صفحاته نحـــو عشرين سطرا مكتوبة بمـــداد أحمر فى لون الكرز ، من الخطوط العربيـــة المنمقة الواضحة ، ويبدو أن الكاتب الذى نسخ الكتاب يعرف خبايا مهنته على الوجه الأكمل ، فقد كانت الحروف على أبعاد متســـاوية ومتسعة كبذور النبات فى جرابها • كما يبدو واضحا أن الكتاب قد تداولته أيد كثيرة لأن أوراقه ناحلة وعليها آثار أصابع لا حصر لها ، تركت بصماتها السوداء على هوامش الكتاب •

وقلبت أوراق المخطوط وأمعنت النظر فى كثير من اللهفة بين سطوره ••• انه من ذلك الطراز الذى قضى أصـــحاب مهنتى ليالى ســـاهرة فى البحث عنه ، وتنقلوا من مزرعة الى مزرعـة يطرقون آلاف الأبواب • وربما أكون قد زرت مئات من القرى فلم أعثر على مخطوط آخر مثل هذه النسخة ، ولكنى حاولت اخفاء اعجابى بهـــا ما وسعنى ذلك • وسرعان ما أدركت أن فلمورات ـ أغا يعرف قدر الكنز الذى يحتفظ به ، اذ قال لى : « ان كل كلمة من هذا الكتاب تســـاوى ناقة » • ولكى أختبره قرأت فقرات منه بصوت مرتفع ، فاذا به يذكر مايليها من سطور ، من الذاكرة ودون تلعثـــم • ثم أضـــاف : « والآن هل توافقنى على أن هذا الكتاب يستحق أن يوضع فى صندوق من الذهب كما قلت لك ؟ » •

ثم مضى يتغنى بقصـــيدة يظهر أنها كانت من القصائد المحببة الى نفسه ، ثم قال فى زهو : « ما رأيك فى هذه ؟ انك كلما أمعنت فيهـــا انشادا كلما استحوذت على وجدانك » •

لقد كان محقا تماما • ومع ذلك فقد تحيرت كيف أستطيع الحصول على هذا الكتاب ، وكان من الواضح أنه لن يبيعه أبدا ، كما كانت زوجته وتابعه يقدران الكتاب قدرا عاليا مثله تماما • وقررت أن أتظاهر بعدم الاكتراث ،وغيرت مجرى الحديث فسألته عما اذا كان قومه عازمين حقا على الانتقال الى « أمو داريا » حيث يستقرون هناك فى بقعـــة زراعية » ، فأجاب الرجل العجـــوز عن سؤالى ثم سرعان ماتحول الى موضوع الكتاب الذى كان يفخر بملكيته ، وحرصـــه عليه • وعندئذ تركته الى رئيس المزرعة انتصح برأيه ، قلت :

ـ « قل لى كيـــف أستطيع التحايل عليه ؟ لأننى أخشى ألا يسمح لى بنسخ صورة منه فضلا عن بيعه لى ؟ ! »

ـ « ان كنت شـــديد الرغبـة فى الحصول على الكتاب فما عليـــك الا أن تتحايل عليه أنت بنفسك حتى تنجح ، أما أنا فأملى قليـــل فى نجاحك ، ولا أستطيع معاونتك » •

فى ذلـك المســـــاء ذهبت لزيارة فلمورات ـ أغا مرة أخـرى فرحب بى ترحيبا كبيرا ثم قال :

ـ « اننى واثق أن من يرى كتـــابى مرة ، فانه لابد أن يعود الى ••• انك لست أول من فعـــل ذلك ولن تكـون الاخير • » ثم ناولنى الكتاب وهو يقول:

«ها هو ذا الكتاب ، اقرأه ان شئت»

وكان لابد لى من الاشارة الى الغرض من زيارتى على الأقل ، فبدأت حديثى وأنا أتحسس طريقـــى الى اقنـــاعه ، فقلت :

ـ « هل تحتفظ بهذا الكتاب منذ أمد طويل ؟ » ٠

ـ « أربعون عاما ٠٠٠ نعم يا بنى »

ـ آه ، وهـــذا هو السبب فى أنك تحفظ بعض أشعاره عن ظهر قلب !! ٠

فصحح عبارتى قائلا :

ـ «لا ، ليس بعض أشعاره وحسب، بل كل أشـــعاره كلمة كلمـــة ، فأنا أستطيع أن أتلو جميع أغانيه بترتيب كتابتها من الغـــلاف الى الغلاف ، لأن كلماتها منقوشة فى ذاكرتى » ٠

وتســــمرت عينــا فلمورات ـ أغا ناحيتى ، وشـــعرت بارتباك شديد ، وحاولت الســـيطرة على اهتزاز صوتى وأنا أقول له : «اطلب أى ثمن تريد فى مقابل هذا الكتاب ! » ٠

واعترى الرجل العجوز تغير طفيف ، فقد اتسعت عيناه ولمعتا لمعانا غريبا ، وامتقع وجهـــه وكســـاه الاصفرار ٠ وانزعجت زوجته ، وخطف فلمورات ـ أغا الكتـــاب من يدى وناوله لها وهو يقول فى حزم : « أبعديه من هنا !! »

ثم تفرس فى وجهى مرة أخرى وقال بصوت رقيق : « أيها الشاب الطيب ، الم تخبرك زوجتى وأنا ، أن هذا الكتاب لن يفلت من بين أيدينا ؟ انك ضيفى وانصحك من أعمـــاق قلبى ألا تطلب الكتاب ، فان وافقتـــك أنا ، فسترفض زوجتى ، وان رضيت هى فلن أرضى أنا وكذلك لن يوافق أحد من رجال المزرعة ٠٠٠ حتى فى أثناء المجاعة لم يساورنا أى تفكير فى بيع الكتاب ، حين لم يكن فى بيتنا كسرة خبز ٠

وتريث قليـــلا ثم تابع حديثه كأنه يكلم نفسه :

« هل أروى لك كيف حصلت عليه ؟ اننى لم أذكر ذلك لأحد من قبل ، ولن تجد أحدا يعرف هذه القصة سواى أنا وزوجتى » ٠

وأخذ يروى قصته ، فقال :

« اننى فى الخامسة والستين ، أى أن هذا الكتاب فى حوزتى منذ أربعين عاما ، وكنت آنئذ راعيـــا للأغنام كما كنت دائمـــا ، ولم أكن قـــد رأيت كتابا فى حيـــاتى ٠٠٠ ومهـــما كان الأمر فقد تزوجت وأقمت خيمة لعائلتى واشتريت ناقة ٠ ولما كنت مقبلا على مواجهة الحياة فقد قررت قضاء الشتاء فى مخزن غلال، وحملت ناقتى صوفا وفحما ورحلت الى « أركاتش » وهى فى الجزء الجنوبى من تركمانيا ٠ ولما كنت لا أعـــرف أحدا هناك فقد قضيت ليلتى فى بيت الرجل الذى اشترى منى الصوف والفحم ، وكان موسرا مشهورا بين قومه ٠ وامتلأ بيت الرجل فى المساء بالضيوف القادمين من المزرعة ٠٠٠ شـــباب وشـــيوخ ، وقد اجتذب أحدهم انتباهى بأناقة ملبســـه ووجهه الأحمر المكتنز ولحيته العريضة٠ وقال له المجتمعون : أيها « الملا الموقر » نلتمس منك أن تقرأ لنا شيئا وناولوه كتابا ، ولكن (الملا) رفض رجاءهم ، وقال ان مؤلف هذا الكتاب رجل مجنون وغير أمين ، امتلأ رأسه بأفكار دنيوية ، وكتابه هذا يعلم الشر والرذيلة ، وخير لكم أن اقرأ عليكم من كتابى هذا ٠٠٠ »

وأخـــرج مخطوطا من تحت ردائه ، وتبرع أحدهم للملا بهدية فأذعن لطلبهم ولكن الضيوف رفضـــوا ذلك بعناد ،

وظل يقرأ حتى جاوز منتصف الليل بساعات عدة · واستمعت اليه فى رهبة ونسيت كل شىء تحت الشمس ، ولم اعرف ماذا دهانى ، فكيف يمكن لرجل يجلس هنـــاك وينظر فى صفحات من الورق كأنها تحمل قصة حياته ؟ ولكنى عندما أصغيت عن قـــرب تبين لى أنها أشبه ماتكون بقصة حياتى أنا ، مست الكلمات البسيطة أعماق قلبى ، ولم أك أتخيل قط أن كتابا ما يبلغ هذا الحد من الاثارة أو يستطيع أن يتحدث عن الحياة بكل هذه الحكمة فيجعلك تشعر بكل شىء وتفهمه · ولقد فكرت كما تفكر أنت اليوم ، فى أن مثل هذه الأشياء لا تشترى أو تباع ، ولا يمكن أن تحدد لها قيمة أو ثمن على الاطلاق · وكان قلبى يتحرق شوقا · وقلت فى نفسى ، اذا كان لهذا الكتاب ثمن أستطيع أن أدفعه ، فلابد لى من شرائه ·

وفى صباح اليوم التالى سألت مضيفى عما اذا كان الكتاب الذى قــرأه علينا (الملا) بالأمس باهظ الثمن · فأجابنى وهو يضحك : « ان هذا الكتاب ليس له ثمن محدد ، فهو ليس منديل سيدة أو كيس فحم ··· انه شىء يتعذر تقدير ثمنه » ·

فالححت عليه أن يحاول بكل وسيلة تقدير ثمنه ، فتبادل مضـيفى النظرات مع رجل آخر كان بالغـــرفة ثم ضحك وقال : « ان ثمنه يساوى ناقة ··· ناقة جيدة » ·

ولعله كان يمـــزح ، ولكنى تمسكت بكلمته وشعرت بالابتهاج ، وقررت دون تردد ، التنازل عن ناقتى التى حملتنى الى « أركاتش » فى مقـــابل الكتاب ، وقلت :

« خذ ناقتى · وهى ناقة لطيفة · ومعها صغيرها ، واعطنى الكتاب » ·

فوافق على ذلك قائلا : « حسن جدا ··· اترك ناقتك وخذ الكتاب واذهب فى رعاية الله » ·

وهكذا ألقيت آخر نظرة على ناقتى ، ووضعت الكتاب بين طيات ثيابى وسرت على الأقدام ثلاثة أيام وثلاث ليال حتى وصلت الى موطنى مهدود الجسم متورم القدمين حيث قابلتنى زوجتى عند الباب بصيحة عالية :

« أين ناقتنا ؟ ماذا فعلت بها ؟ » ·

فاجبتها : « انتظرى ، خير لك أن تبتهجى لا أن تبكى ··· لقد قدمت لنا ناقتنا خيرا كثـــيرا ··· لقد منحتنا هذا ··· » وأريتهـــا الكتاب قائلا : « انظرى ··· ان كل كلمة فيه تساوى ناقة ·

ـ وتفرســـت زوجتى فى الكتـــاب وتحسسته بجبينها ومسحته معتقدة أنها أمام شىء مقدس ، ثم تفحصته فى شىء من الارتباك والحيرة دون أن تعرف هل تضحك أم تبكى ! وعرفت أنها لابد كانت تذكر الناقة ، فقد كنا فقيرين ، وكانت الناقة قـوام حياتنا وأملنا الوحيد فى الحياة ·

ورويت لها قصة تلك الليلة حين كان يقرأ لنا « الملا » الكتاب ، وكيف كنا نصغى اليه جميعا حتى أننى لم أستقر فى مكانى لحظة لشدة انفعالى · وتلوت عليها كلمات مما علق فى ذهنى ، فامتلأت عيناها بالدموع وهى تقول :

ـ « لقد بعت الناقة دون مقابل ، وذهب أملنا الوحيد » ·

ـ وشعرت فجاة بالحزن لشرائى الكتاب ، فماذا أفعل ؟ لقد اقترح على شخص ما أن ألجأ الى رجل كنا نعتبره حكيما وسالته أن يدلنى على من يستطيع قراءته ، فسألنى فى دهشة : « ولكن كيف وصل الى يدك هذا الكتاب ؟ » .

قلت : « لقد اشتريته ، ولكن بثمن بخس » .

فابتسم لى وهز رأسه فى شىء من الاشفاق وقال : « حتى لو كنت أخذته دون مقابل ، فأية فائدة ترجوها منه ، ومن سيقرأ لك هذا الكتاب » .

ـ وسارت الأمور من سىء الى أسوأ ، واستطلعت رأى غيرى من الرجال فى المزارع المجاورة ، فكانت الاجابة التى لم تتغير هى « أنك راع فقير ، فاى عبث هذا الذى تحمله فى رأسك !! وعدت الى بيتى حيث كانت زوجتى دائمة البكاء والثرثرة ، فتناولت كنزى ووضعته فى كيس ، ودفعته تحت كومة من الأشياء الأخرى. وقلت فى نفسى : « لعل العين لا تقع عليه هنا ، ولعلنى أستريح من القلق ! .

وهكذا ظل الكتاب فى مكانه عاما .. عامين .. سبعة أعوام وظلت زوجتى تندب ناقتنا طوال هذا الزمن : « آه ، كم كانت ناقتنا لطيفة ... ناقة ولود لو بقيت لكان لدينا منها ثلاثة ابل ولأصبحنا الآن أثرياء فلا نقيم لهموم الدنيا وزنا » .

وقالت زوجتى يوما بينما كنا نشرب الشاى : « ان الملا ، أو الايشان هو الذى يستطيع القراءة ، فمن الخير أن نرسل ابننا « موراتجان » الى واحد منهما يعلمه حتى يستطيع القراءة. ويقال ان أكتشى ـ ايشان أكثر الناس علما ، فلنرسل اليه ابننا ليتقن القراءة والكتابة فى خمس سنوات ، وبذلك نحل مشكلتنا فى داخل بيتنا دون ما حاجة الى التماس العون من الخارج .

لقد ابتهجت لكلمات زوجتى ، بل أنا نفسى كنت راغبا فى تعلم القراءة والكتابة مهما كلفنى ذلك ، وصحبت الصبى الى أكتشى ـ ايشان ، وكان الصبى آنئذ فى الثامنة من عمره .

وقلت له : « قدمت اليك من بلد بعيد ، ولى عندك رجاء متواضع ... هل أستطيع أن أعهد اليك بتعليم ابنى القراءة والكتابة ؟ ومادام عندك ، فليكن كما يقول المثل ، جسمه لك وعظمه لى ، فاضربه ان احتاج الأمر ، وليعمل ماتريده أن يعمل ، ولا أريد الا أن تعلمه وحسب » .

وشجعنى الايشان بقوله :

ـ « لقد أحسنت باحضار ابنك الى ، فمن أكل من ملحى لابد أن ينشأ رجلا ذا اعتبار ، وسترى ماذا سأصنع منه ... انك لن تعرفه حين تعود بعد أربع سنوات .

وصدقت الايشان ، وعدت الى موطنى على أجنحة الأمل ، وقلت لزوجتى :

ـ « لا تحزنى ، فستنقضى أربع سنوات كيفما تكون ، ثم سترين هل كنت مخطئا أم لا ؟ »

ـ ومضت ثلاث سنوات وبضعة شهور ، وظننت موراتجيان قد تعلم شيئا ، فسافرت اليه فماذا رأيت ؟ رأيت ابنى يعمل من الفجر الى المساء ..

لم يتعلم قراءة ولا كتابة ، بل عجبت كيف لم يفقد عقله .. لقد انفجر بالبكاء حالما رآني .

ـ وقال لى متوسلا : « خذنى معك الى موطنى .. ان اكتشى ـ ايشان ليس جاهلا وحسب بل انه لا يعرف شيئا مطلقا عن العلم والتعليم .

ـ ولطمت الصبى على فمه اذ كان من الاثم أن يقال مثل هذا عن الايشان ، ولكن مورانجيان ازداد نحيبا وهو يقول :

« اذا لم تأخذنى الى وطنى يا أبى فانى سأهرب !! لا أريد البقاء هنا »

ـ لقد ساورنى القلق وصممت على الوقوف على جلية الأمر بنفسى ، زرت أحد الجيران وسألته عن « اكتشى ـ ايشان » .

ـ يظهر أن مورانجيان كان على حق حين قال انه بحاجة الى التعلم .. ذلك أن ايشان لم يكن يعرف القراءة ولا الكتابة ، ولكن الغريب فى الأمر أنه أقوى بكثير من الملا المتعلمين ، ولعل سبب ذلك أنه ينتمى الى أسرة قوية كانت تشتهر بأعمال السحر فيما مضى ، فكان سكان القرية لا يذكرون اسم أحد من أفرادها الا فى كثير من الخوف ، ولم يجرؤ أحد أن يتحدث عنهم بسوء ، ولكن أى نوع كان هذا السحر ؟؟

لقد قص على الجار مرة معجزة حدثت فى المزرعة ، وهى أن فلاحا سرق حزمة من الدريس من جد اكتشى ـ ايشان وحملها على ظهره ومضى الى بيته ، ولكنه لم يستطع أن ينزع حمله من على ظهره ، فنادى ابنه لينزعها فعجز أيضا . ولما يئس اللص عاد الى الحقل ليرد ما سرق ، ولكن حمله ظل عالقا بظهره . فاخذ يتجول فى القرية نادما على فعلته الى أن بلغ بيت صاحب الحقل فدخل وتوسل اليه أن يغفر له ذنبه قائلا : « لقد ارتكبت اثما يا ايشان ـ أغا وظللت طوال الليل أحمل اثمى على ظهرى ونفسى حزينة معذبة ، فلتغفر لى ذنبى ليخف ألمى ... دع الدريس يفارق ظهرى » .

فغفر الايشان للص وأرسله الى المكان الذى سرق منه ، فسقط عنه حمله بكلمة واحدة منه .. ان الأكتشى ـ ايشان يستخدم الملح فى سحره ، ويكفيه أن ينفخ فى قبضة من الملح ويردد بعض الكلمات السحرية لكى تحمل العاقر ويشفى المريض » .

وعندما سمعت هذا استقر رأيى على ألا أترك ابنى ليتعلم النفخ فى الملح ، فصحبته معى الى موطنى وجعلته يعمل بالأجر فى رعى الماشية . ومرت سنوات عدة ، ثم رحلنا الى مراعى جديدة ، وعدنا فى الخريف الى هذا الوادى ، وكان الكتاب قابعا فى مكانه داخل الكيس ، وكنت أخرجه بين حين وآخر لأقلب صفحاته فى حزن وأسى ... كنت أجلس كما كان يجلس الملا وأمسك بالكتاب بين يدى كما كان يفعل ، وأشير الى كلماته باصبعى ، ولكن الكتاب كان يظل صامتا ... لم يكن يفعل شيئا غير اثارة الحزن فى قلب زوجتى فتقول : « لو لم تفعل ما فعلت لكان لدينا الآن قطيع من الابل !! »

وتابع فلمورات أغا حديثه قائلا : « ثم أقبل اليوم السعيد حين وصل سلطان السوفييت الى المزارع ، وأقبل علينا المدرسون يحملون الكتب ، وجاء الى مزرعتنا معلم ، وأخذ يجمع الصغار

والكبار الراغبين فى تعلم القراءة ٠ واستمالنى منذ اللحظة الأولى فحدثته عن كتابى ، فطلب الى أن أعيره اياه يوما أو يومين ، وحين اعاده قال لى :

«لقد حققت صفقة رابحة يافلمورات ـ أغا فهو من أثمن كتب التركمان المخطوطة ارسل ابنك الى مدرستى فأعلمه القراءة والكتابة ، ولن أعهد اليه بجمع الحبوب أو جلب الماء ، اذ أننى لست بحاجة الى الأيدى العاملة ٠٠٠ سيذهب ابنك الى المدرسة لعدة سنوات ، ثم يجلس هنا فى بيتك ليقرأ هذا الكتاب لوالده ووالدته ٠

وجدت مورانجيان هنالك فى السهوب يرعى الماشية ، فطلبت منه أن يعود الى الدراسة ، وقلت له : « عندما تتعلم القراءة فستقرأ لأبيك الكتاب الثمين الذى نحتفظ به منذ سنين » ٠

ـ ولم يكن مورانجيان راغبا فى شىء من هذا ، فأجابنى قائلا : « لا ، لا أريد رؤية الملا ولا الايشان مرة أخرى ٠٠ »

ـ فأفهمته أن سلطان السوفييت قد وصل الى المزارع والمدن ، وسوف لا تستطيع زوجة آكتشى ـ ايشان أن تكلفك بجلب الماء ، وأن المدرس الجديد لن يكون الملا ، وأن الحكومة الجديدة قد أرسلت الى المزرعة مدرسا لتعليم الناس ٠ ونجحت أخيرا فى اغراء مورانجيان بالذهاب الى المدرسة واستطاع أن يعيش بيننا ويساعد أمه ، ويتعلم القراءة والكتابة شيئا فشيئا ٠ وأصبح ولدنا مورانجيان الآن مديرا لمزرعة المواد الغذائية فى المنطقة المجاورة ٠

وعندما تعلم ولدنا القراءة ، أخرجت الكتاب فقرأه لنا من الغلاف الى الغلاف، وأدركت آنئذ أن الكتب لا تكتب فى السماء ، بل ان معانيها فى متناول أفهامنا ، وحتى هذا الكتاب يضم أناشيد كنا نغنيها نحن الرعاة فى اقليم السهوب ، ولكن معظم الأشعار تتحدث عن الخير والشر والحق ، وشجاعة الانسان حين يدافع عن سعادته ٠٠ وعلمت آنئذ أن الملا الذى قرأ الكتاب لم يوضحه لى ، ولكن حين قرأه ابنى ونحن فى بيتنا أحسست بكل ماتضمنه من جمال وعندئذ فقط اقتنعت زوجتى وجميع سكان المزرعة أن فلمورات ـ أغا قد أحسن صنعا حين باع ناقته مقابل هذا الكتاب ٠

والآن أيها الشاب اللطيف ، لعلك عرفت ماقاسيناه طوال تلك السنين ، فمن يجرؤ على أخذه منى بعد أن يعرف كل ذلك ؟ اليك الكتاب الآن ٠٠٠ اقرأه كما تشاء ، ولأطول وقت تريد ، ولكن لا تحاول انتزاعه منى !

وانتهى فلمورات ـ أغا من قصته بعد منتصف الليل بوقت طويل ، ولم تجد أية محاولة لاغرائه ببيع الكتاب ، حتى أنه لم يصغ الى حين طلبت اليه أن يعيرنى هذا المخطوط لأطبعه كتابا فى مدينة « أشخاباد » فيستطيع بذلك كل واحد من فلاحى المزرعة الحصول على نسخة منه ، على أن أعيد اليه المخطوط بعد شهرين أو ثلاثة٠ ورأيت من العبث أن أتحدث اليه فى هذا الشأن مادام الكتاب يؤثر فى كل شىء فى حياته ٠ ومع ذلك انتهزت فرصة مواتية فتجاذبت معه أطراف الحديث :

ـ فلمورانت ـ أغا !

ـ نعم

– انني سألتمس منك جميلا تسديه الى ٠٠٠

– أى جميل أيها الشاب ؟

– ان سمحت أن تبيعني ٠٠٠ ؟

– فقاطعني بضحكة ، وهو يمشط لحيته الطويلة بكلتا يديه ٠ ولكنه لم يغضب فى هذه المرة لأنه لم يحمل حديثي محمل الجد ٠ وقال :

– « لا ، ياضيفى العزيز ، لن أبيعه ، ففى هذه الحياة أشياء ليست للبيع »

– « ولكن شخصا آخر سبق أن باعها لك » ٠

– « لقد كان هو الخاسر ! ثم ضحك مرة أخرى

كنت أريد أن يتأكد فلمورات – أغا أننى لا أستطيع أن أرحل صفر اليدين ، ولذلك تحدثنا طويلا ، حديثا جادا ، وأخيرا قال فى اشفاق :

– « أيها الشاب الطيب ، ان كان كتابى يروقك الى هذا الحد ، فاجلس هنا وانسخ منه صورة » ٠

ومكثت أسبوعين بالقرب من مدفأة فلمورات – أغا أنسخ مخطوطته الثمينة ، وكان يجلس بجانبى فى معظم الأوقات يملى على من الذاكرة ، وكان يتأملنى أحيانا وأنا أؤدى واجبى ٠ وكثيرا ماكان يقول :

« لقد تعلمت القراءة قليلا ، ولكنى أخشى ألا أستطيع الكتابة مطلقا » ويردد هذه العبارة مرات ٠

وكانت زوجته تقدم لنا الشاى الأخضر ونوعا من الخبز يطلقون عليه (الشوريك) ، وتحضر لنا بين حين وآخر ابريقا من شراب قوى يصنع من لبن الابل بعد تخميره ٠٠٠ وأصبحنا صديقين ٠

ان القصائد التى احتفظ بها فلمورات – أغا اربعين عاما كتبها شاعر تركمانى شهير اسمه « مختوم كولى » وهو الذى وضع أساس كل آداب التركمان القديمة ٠



قصة حول العالم

بقلم : على شلش

هل يستمر عام الرواية

فى العدد الأول من هذه المجلة عرضنا للمؤتمر الضخم الذى شهدته مدينة لينينجراد فى أغسطس ١٩٦٣ ، ونظمته جماعة الكتاب الاوربيين حول موضوع «الرواية المعاصرة» •

وقد أثار هذا المؤتمر الاول من نوعه العديد من المساجلات والمناقشات لا تزال تتردد بين حين وآخر على امتداد القارة الاوربية ، رغم مرور أكثر من عام على انتهاء المؤتمر •

وقد نشرت مجلة «الادب السوفييتى» تحقيقا حول المؤتمر جعلت عنوانه : «عام الرواية لايزال متصلا» استهلته بقولها ان الكتاب من مختلف الأمم والمعتقدات يجمعون على تسمية العام الماضى ـ ١٩٦٣ ـ بعام الرواية ، ثم عرضت لبعض التعقيبات التى لا تزال تنشرها الصحف السوفييتية والأوربية بأقلام كتابها ونقادها ، فقد كتب الناقد السوفييتى «ايفان أنيسيموف» مدير معهد جوركى للأدب العالمى ، يقول :

كان الموضوع الذى تناوله النقاش هو الرواية المعاصرة ، وبالطبع كان من الامور التى تستحق القاء الضوء عليها أنه لم يكن ثمة فروق فى معالجة الرواية كشكل فنى فحسب ، ولكن كانت ثمة فروق أيضا فى الأهداف التى يسعى اليها الكتاب أنفسهم فقد أشاع ممثلو الأدب الاشتراكى مفهوما هاما مقنعا حول وظيفة الرواية كشكل فنى مقدر عليه أن يلعب دورا فى خلق قيم انسانية واجتماعية جديدة ، وكانت الرواية فى نظرهم أداة بناءة بأشد مافى الكلمة من معانى أدبية •

وعلى المنصة ذاتها أثير مفهوم مخالف •• يوحى بأن الرواية فقدت ارتباطاتها بالمجتمع وانها لايمكن أن تعكس شيئا سوى طابع الانحطاط الروحى الذى يسود العالم البرجوازى المعاصر •

ولعلى أقول ، دون ما خوف من استخدام الألفاظ الطنانة ، ان السعى وراء رواية تصور الوفاق الانسانى وشموله قد وقف وجها لوجه امام الحث على خلق رواية تصور الانحطاط والتنافر .

وكتب الشاعر والكاتب الاوكرانى ميكولا بازهان تحت عنوان « لن ينقطع الحوار » ، فايد فكرة التعاون الدولى بين الكتاب فى السعى وراء حلول لمسائل علم الجمال ، ودلل على أن المؤتمر قد أظهر أن تنمية النقاش وتطويره ليسا ممكنين فحسب ، ولكنهما أساسيان ، وأن النقاش فى حد ذاته كان مفيدا وينبغى أن يستمر .

وكتبت الناقدة السوفييتية **تامارا بالاشوفا** تحت عنوان : « **مناقشات حول الرواية الجديدة** » تتساءل عن جوهر التجديد الذى أضافته المدرسة الفرنسية فى الرواية الى حصيلة التراث الروائى العالمى ، وحاولت فى مقالها هذا أن تحلل الأسس التى قامت عليها هذه المدرسة ، وكان مما قالته :

« **ان الصراع المأساوى بين الفرد والعالم الذى تصوره وتضخمه الرواية الجديدة يتكشف عن طريق صرخة جنون عديمة الشكل أو عن طريق وصف قليل الأهمية لبعض النزاعات السوقية التى تحدث فى الحياة اليومية** » .

ثم تضيف بالاشوفا بأن كشف النقاب عن الحياة اليومية ، وتصوير الأنماط العادية من الناس ، مما يلح عليه الروائيون الجدد انما هو اتجاه سىء للرواية ، ذلك لان كشف النقاب ليس معناه النقل الحرفى أو النسخ ، ولكنه يعنى التحليل والبحث عن الجذور والأسباب وتقول بالاشوفا :

« **ان الروائيين الجدد يقولون بأن الحقل الأساسى للاحداث بالنسبة للروائى هو النفس ، والحق انهم يفضلون أن يختبروا حالة الفرد النفسية فى ايقاعاتها اليومية أكثر مما يفضلون اختيارها فى لحظات الأزمات الأخلاقية أو الأيديولوجية ، غير أن هذه المهمة التى أخذوها على عاتقهم تنعدم أهميتها لو صح أن تتكشف نفس البطل بألوانها الحقيقية فى مواجهة الستار الخلفية للظروف والحالات اليومية** » . وفى الوقت نفسه كثيرا ما تتدرج الرواية الجديدة بدرجات زهيدة من التجارب النفسية الى الوصف المعملى للدوافع الغرائزية ، وبالتالى تصبح مجموعة من الاستعارات والكنايات لعالم سخيف قوامه العبث .

واختتمت بالاشوفا مقالها بتأمل التناقضات بين النظرية الجمالية والممارسة الابداعية للرواية الجديدة التى أصبحت اليوم فى فرنسا اسما لمدرسة قائمة بذاتها ، يختصم حولها الكتاب والنقاد ، فمن رأيها ــ أى الناقدة السوفييتية ــ أن هذه المدرسة مهددة بعدوى خطيرة . ذلك لان الشكل لديها يحظى بالأهمية العظمى على حساب دلالة المضمون الحقيقى ، اذ نرى بين الشكل والمضمون فيها صراعا مريرا بدلا من أن

ترى اتساقا وتوافقا ، وهو صراع تستسلم فيه الفكرة وتسوده التجربة الشكلية ، أما مستقبل هـذه المدرسة فمن رأى النـاقدة انه مرهون بقدرتهـا على الاختيـــار ، فاما ابتكار مصطنع واما ابتكار حقيقى ، ولا وسط بينهما .

ونشرت الباحثة **تامارا موتيليفا** دراسة بعنوان «**مناقشات حول الرواية**»عالجت فيها قضية التراث الروائى ، وأفردت جانبا كبيرا منها لتحليلأعمال الروائيين مارسيل بروست الفرنسى وجيمس جويس الأيرلندى وفرانز كافكا التشيكى ، باعتبار أن ثلاثتهم حظوا فى المؤتمر بلقب آباء الرواية المعاصرة وأصحاب الطريق الجديدة فى الأدب المعاصر وقد اعترضت موتيليفا على هذا اللقب وأثبتت أن الثلاثة لايلتقون فى صفة معينة بقدر ما يختلفون أسلوبا ولغة ، شكلا ومضمونا ، بالاضافة الى انهم لم يكونوا يعبرون فى أعمالهم عن موقفهم من المجتمع تعبيرا يعتد به . « **فكل منهم عبر بطريقته الخاصة عن** فلسفة متميزة تستمد أساسها من اعمال خصومهم الروس الذين ينتمون للمدرسـة المنحطة ، بما جاءوا به من الحاح على خسة العالم ، وقوة الشر التى لاتغلب ، ووحدة **الانسان التى لاشفاء منها » ذلك لان بروست مثلا حاول أن يقدم تحليلا وتفصيـــلا لعملية الصراع النفسى واهتزازات الدوافع المحطمة فى الروح الرقيقة النقية ، لـكن ذاتيته المفرطة أفقرت** وشوهت الى حد ما صورة الحياة التى خلقها ، **فى حين ان جويس فى روايته المعروفة** «عوليس» **ناشد العالم المختنق المحدود الذى تعيش فيه الطبقات المتوسطة الصغيرة من مآزق أفكار ابطاله الخفية** ، ومن تصرفاتهم ، **ومن أسلوبهم فى النظر الى العالم** ، «غير ان مباشرة الوجود البدائى من اشمـئزاز يظهر كوجود يثير **الاشمئزاز فى مجموعـه** » . **أما كافكا الذى تنتمى شـخصياته لعـالم المحرومين والمستضعفين فان عنصر النقد الاجتماعى يظهر بوضوح فى هذه الشخصيات رغم النظرة الصوفية التى تسيطر عليها** .

وتضيف موتيليفا بأن فلسفة العزلة واليأس واستسلام الانسان أمام دوافع عدائية انما تعوق كلها ـ فى المدى الطويل ـ تحقيق المثل الانسانية التى سلم بها كل المؤتمرين فى بيانهم الذى أصدروه عقب المؤتمر ، وأكدوا فيه ضرورة العمل على خلق «**حياة جديرة بالانسان**» ، ومن ثمة فان الكتاب الروس لا يمكن أن يقبلوا المبـــادىء التى دعا اليها بروست وجويس وكافكا ، على الرغم من انهم يعترفون بموهبة كل منهم ومكانته فى تاريخ الادب ، وتلاحظ الناقدة أن تولستوى ودستويفسكى لم ينالا فى المؤتمر القدر الواجب من الاهتمام ، فتقول :

(ان تولستوىودستويفسكى فوق هذا كله هما اللذان شقا الطريق ـكل حسب طريقته الخاصة بالطبع ـ أمام تلك المكتشفات الفنية التى أثرت الرواية اثراء كبيرا فى هـــذا القرن . ويمكن الرجوع اليهما فى كثير من مظاهر التجديد والابتـكار فى بناء الرواية والتحليل العميق للموضوعات الفلسفية والذهنية داخل نسيج القصة

ذاته ، وكذلك فى النفاذ الجرىء الى أفكار الانسان المخبوءة والتصوير الواقعى لحركات اللاشعور ٠٠ وقد كان المونولوج الداخلى فى جميع اشكاله المتعددة الاسلوب ، بما فيها «تيار الشعور» ٠٠ حيلة مبتكرة استخدمها تولستوى على نطاق واسع لأول مرة ٠٠ وليس بروست أو جويس ، وكذلك كان العالم الروحى للمحرومين والمستضعفين ـ بما فيه أكثر مظاهر التمزق دهاء فى المعاناة الانسانية ـ اقليما امتلكه دستويفسكى عن اصالة أكثر مما هو ينتمى لكافكا ، غير أن الواقعيين الروس الكبار لم يفقروا صورة الانسان ، على خلاف ما فعله المعاصرون ، عن طريق عزله عن البيئة الاجتماعية ، فعلى العكس من هذا نجد أن تصوير الانسان فى كل مظاهر التعقيد التى تطبع ظروفه الاجتماعية وعلاقاته وخصوماته ومغرياته ومنفراته ، انما أصبح فى أيديهم وسـيلة لتحقيق فهم ذكى وعميق للفرد لا يحلم به الكتاب اليوم ، وفى الوقت نفسه ساهمت الدراسة المتفحصة ـ من الناحيتين الروحية والعاطفية ـ لحياة الناس الذين ينتمون لطبقات وفئات مختلفة من المجتمع فى خلق البناء المرسوم بدقة درامية ، وكذلك فى تقطيع صورة المجتمع أو البلد أو العصر المحدد تقطيعا تركيبيا واسع المدى » ٠

غير أن ثمة تأثيرا آخر لايمكن تجاهله عند الحديث عن الرواية فى القرن العشرين وهو تأثير جوركى الذى اعترف بفضله أعلام الرواية فى هذا القرن من أمثال رومان رولان وبرناردشو وتوماس مان وباربوس وبرخت ، لكن كيف يمكن أن يتحدث الكتاب الفرنسيون ـ كما تقول موتيليفا ـ عن مصادر الرواية المعاصرة وتراثها فى حدود ثلاثة أسماء فحسب ، متجاهلين التركة الغنية للأدب الغربى ؟ لقد نسى هؤلاء الكتاب أنصار مدرسة الرواية الجديدة وهم فى غمرة حماستهم أن يذكروا فضل رومان رولان مثلا أو مارتان دوجار ، أو توماس مان الذى مروا على اسمه مرور الكرام ، رغم انه بالاشتراك مع رولان قد رفض المفهـوم النيتشوى (نسبة الى نيتشه) الذى يرى فى الانسان وحشا والمفهوم المنحط الذى يرى فى الانسان حشرة ، وبالتالى فاضت أعمالها بالتعاطف مع الانسان ٠

ولم تنس موتيليفا أن تفصل القول فى قضية العلاقة بين الواقع والخيال ، وهى قضية أثارت جدلا كبيرا فى المؤتمر ٠ فقد أكدت خطـأ السعى وراء الأمانة الشبيهة بالمرآة بالنسبة لموقف العمل الفنى من الحياة ، ورفضت احلال الأحلام المزعجة والخداع القاتم محل الواقع الحى كما حدث فى روايات كافكا ٠ كما أثبتت زيادة نسبة الروايات التى تعتمد على الحقائق أو الاحداث التاريخية أو وقائع الحيـاة ذاتها ، وهى زيادة أثبتت وجودها فى هذا القرن ٠

وقد حدث أن أثار الروائى الايطالى **جويدو بيوفينى** فى هذا المؤتمر وجهة نظر مؤداها أن حياتنا الحالية أكثر تجريدا من حياة آبائنا وأجدادنا ، وان الناس الذين نلتقى بهم « **أقل واقعية وأكثر امتزاجا بالمفاهيم والآراء ٠٠ لدرجة يمكن معها أن نمد**

أيدينا فنلمس هذه الآراء والافكار • ولكن موتيليفا عارضت هذا الرأى ، وأخذت على الروائى الغربى رؤيته للفرد بمعزل عن ظروفه وارتباطاته التاريخية والاجتماعية والسياسية ، وأوضحت أن «**المفاهيم التعميمية التى تنتشر فى عصرنا مثل التقدم ، والتأخر ، والشعب ، والامة ، والسلام ، والحرب ، ينبغى أن تتشخص فى أفراد حقيقيين**» • وان قضية موقف الروائى من العالم المعاصر ، لاتنفصل عن قضية مسئولية الكاتب وواجبه المدنى ، وأن اليأس وخيبة الامل لايمكن أن يكونا بحال ، سمة الانسان المعاصر كما تراها الروايات فى العالم الغربى •

وأنهت الباحثة السوفيتية دراستها بالتشديد على مسئولية الكاتب ازاء مجتمعه وضرورة تعمقه فى دراسة الواقع وتحليله ، والا فشل فى اقناع قرائه ، وعجز عن مواجهة نفسه فى النهاية •

ومن جمهورية جورجيا كتب الناقد **فلاديمير ماشافاريانى** تحت عنوان « **مصير الرواية**» ، فأوضح جهود زملائه الكتاب من الواقعيين الاشتراكيين فى تطوير الرواية والارتقاء بها مكانة تحقق ماقاله جوركى من أن الأدب هو «دراسة الانسان» •

وقد اختتمت مجلة الأدب السوفييتى هذا التحقيق بالاشارة الى بعض الاخطاء التى وقع فيها اثنان من أنصار الرواية الجديدة فى فرنسا ، وهما ألان روب جرييه زعيمها وبرنار بنجو أحد دعاتها ، وقد حمل الاثنان على نقد الكتاب الروس لمدرستهما واتهما المؤتمر بأنه خاض فى مسائل السياسة بدل مسائل الأدب والرواية وأبديا أسفهما على استخدام زملائهم الروس لكلمات مثل «منحط» و «غير انسانى» فى وصف أدب الفرنسيين المعاصرين من دعاة الرواية الجديدة ، لكن المجلة فندت هذه الاتهامات وأوضحت فى نهاية تحقيقها حسن نية الروائيين الروس ونقادهم ، ورحبت بالتجديد فى الشكل ، لكنها رفضت أن يكون حكرا لجماعة دون أخرى ، ولكن **الأصح أن يكون جوهر التجديد هو تجويد المعرفة بالحياة وتطوير التعبير الفنى عن هذه المعرفة ، عن طريق التصوير الجمالى للواقع وللانسان ومشاكله ، على أن يكون هذا كله نابعا من التفكير فى الغاية والهدف ، وبذلك يمكن للرواية أن تساهم فى خلق « الحياة الجديرة بالانسان » فى هذا العصر** •

زوايا وأنباء :

• **أصدرت** دار دنوييل الباريسية فى الشهر الماضى أول رواية بالفرنسية للقاص الجزائرى **رضا فلكى ، وتدور حوادثها حول الحرب الجزائرية وكفاح الجزائر من أجل استقلالها • وقد امتدح ناقد صحيفة « لانوفل آوبزرفاتير » أسلوب الكاتب الجزائرى الذى لم يسبق له أن نشر شيئا من انتاجه الروائى ، كذلك صدرت عن دار جاليمار رواية للكاتب الفرنسى جان بلو بعنوان « الأوهام الدامسة » ، وأخرى عن**

دار « دوسويل » للكاتب كاميل بورنكييل بعنوان « البحيرة » ، وكلاهما يتناولان موضوعات اجتماعية .

• **مات** الروائي الأمريكي **جاك لندن** عام ١٩١٦ ، وترك عددا من الروايات التي يدور معظمها حول المغامرات ، ومنها رواية كتبها عام ١٩١١ بعنوان « **مكتب الاغتيال ليمتد** » ، لكنه مات دون أن يتمها . وفي الشهر الماضي صدرت الرواية عن دار **أندريه دويتش** بلندن كاملة بعد تولي الكاتب **روبرت . ل . فش** اكمالها . وتدور الرواية حول مكتب للاجرام والقتل ، مركزه الرئيسي في نيويورك وله ممثلون في جميع أنحاء أمريكا ، يتولون ازهاق الأرواح بالعمولة !

• **ليلة في لشبونة** .. عنوان الرواية الجديدة للكاتب الألماني المعروف **اريك ماريا ريمارك** الذي اشتهر بقصته « **وقت للحب ووقت للحرب** » .. صدرت مترجمة بالانجليزية عن دار هتشنسون اللندنية . وتدور حوادثها في مدينة لشبونة عام ١٩٤٢ حيث يلتقي هناك اثنان من اللاجئين الألمان ، فيعرض أولهما ــ ويدعى جوزيف ــ على الثاني تذكرتي سفر بالباخرة الى أمريكا له ولزوجته ان هو أنصت لقصته مع النازية . وقبل الثاني الصفقة بينما زوجته تنتظره في مكان آخر بالمدينة . ومن ثمة تبدأ «الليلة» ، ومعها قصة حياة جوزيف وفراره من الألمان وسفره الى باريس وحصوله على جواز سفر من رجل كان يحتضر ، وسفره الى ألمانيا لانقاذ زوجته ثم تجواله في أوربا ووفاة الزوجة بالسرطان ، واستقراره في البرتغال . ثم تحويل جواز سفره وأوراقه التي ورثها من الرجل الميت الى اللاجيء المستمع . وبعد ذلك يختفي الراوي ويبقى المستمع الذي يسافر الى أمريكا حيث طلقته زوجته بعد ستة أشهر من وصولهما!

• **آخر رواية للكاتبة الانجليزية ايريس مردوخ عنوانها « الفتاة الايطالية » .. صدرت عن دار « شاتو ووندوس » .. واعتبرها النقاد أكثر روايات عام ١٩٦٤ اثارة. والجدير بالذكر أن ايريس ظلت تعمل الى عهد قريب مدرسة للفلسفة بالجامعة ثم استقالت لتتفرغ للكتابة . وقد صرحت مؤخرا بأنها تفضل روايات القرن الماضي على روايات هذا القرن .**

• **ظهر** في باريس كتاب جديد للكاتبة الروائية **سيمون دي بوفوار** بعنوان : « **موت هادىء للغاية** » نشرته دار جاليمار ، وتحكي فيه قصة أمها مدام فرانسواز دي بوفوار التي كان لها تأثير كبير عليها .

• **رشحت بعض الدوائر الأدبية الانجليزية كاتبين افريقيين لنيل جائزة نوبل هذا العام ، وهما قصاصان من نيجيريا ، أولهما شنوا أشيب وله ٥ روايات عدا قصصه القصيرة ، والثاني أموس توتولا وله ٥ روايات أيضا . ومما يذكر أن الكاتبين يلحان في أعمالهما على الأدب الشعبي في بلادهما ، وخاصة الأساطير التي يكثران منها مع التصرف في دلالتها .**

• **تعد** القصص العلمية فى انجلترا جنسا أدبيا متميزا له قراؤه ومتذوقوه • وقد صدرت فى الشهر الماضى عن دار « **فابروفابر** » مجموعة جديدة من هـذا اللون القصصى ، **قدم لها الناقد بريان الديس بمقدمة تحليلية مستفيضة • وقد ذكر فيها ان عمل القصص العلمية ليس التنبؤ بقدر ما هو التخيل ، وانها ان لم تخضع لقواعد القصة العادية وان لم تشمل أناسا عاديين فانها تكون قالبا متحجرا •**

• **فرانك أوكنور** كاتب قصصى معروف من أصل أيرلندى ، وقد اشتهر فى القصة القصيرة ، حتى **قارنه الشـــاعر الأيرلندى ويليم بتلر ييتس بتشيكوف ••** أصدرت له دار ماكميلان مجموعة جديدة من قصار القصص بعنوان «**المجموعة الثانية**»•

• **اشتهر الأديب البرازيلى المعروف جورج أمادو فى ميدان الشعر** ، وعد واحد من الشعراء الواقعيين الكبار ، لكن له محاولات فى القصـة والرواية ، آخرها رواية بعنوان « **الوطن هو البحار** » ترجمت الى الانجليزية ونشرتها دار « شاتو ووينـدوس » **تدور الرواية** حول رجل فاسـد **يعيش على خيـاله** وذكرياته يضطر الى **قبـول مركز قبطان سـفينة بعـد أن ينجح فى اثارة بحارتهـا الى صف انتصـاراته الـكاذبة فى الماضى •**

• صدر فى موسكو كتابان هامان تنـاولا حيـــاة وفن الروائى الـكبير فيودو دستويفسكى أولهما بعنوان : (مشاكل الفن لدى دستويفسكى) من تاليف الباحث ميخائيل باختين ،وهو طبعة ثانية مزيدة لكتاب أصدره المؤلف قبل ثلاثين عاما ، ويعتبر من أهم المراجع لادب دستويفسكى • والكتاب الثانى ترجمة جديدة لحياة مؤلف «الأخوة كرامازون » من تاليف « ليونيد جروسمان » •



بين القصة والقراء



يقدمه : ثروت أباظة

لست أدرى لماذا يحاول الكثير من النقاد أن يحملوا أعمال الفنان الكبير نجيب محفوظ غير ما تحتمل • وقد نشرنا فى العدد الماضى من مجلة القصة مقالا للأستاذ توفيق حنا خرج فيه رواية الطريق تخريجا عجيبا ولم نملك مع ذلك الا نشره لأن كل كاتب حر فى ابداء رأيه فى العمل الفنى مهما يكن هذا الرأى متعسفا لا يتصل بالواقع • ومعروف طبعا أن كل عمل فنى له اشعاعات ، وأن المستقبلين من القراء يستقبلونه على الوجهة التى يلتقون بها فى العمل الفنى • ولكن ترى هل كان التفسير الذى قدمه توفيق حنا صادرا عن العمل الفنى الذى كتبه نجيب محفوظ •

كيف أتصور أن نجيب حين يكتب رواية أشخاصها يعيشون فى زماننا انما قصد بذلك أسطورة مصرية قديمة • حاولت أن أفهم فلم أستطع •

والواقع أننى فهمت من رواية الطريق معنى أكثر عمقا وأكثر انطباقا على العمل الفنى ، فهمت أنه يصور الشخص الضائع الذى يبحث عن مجلى ايمانه متصورا فيما يبحث عنه الأمن والرخاء والهناء والاستقرار • ويتعرض لكل ما مر به فى الرواية أثناء هذا البحث • وقد صادف فيما صادف شخصية الهام التى حاولت أن تفهمه أن العمل هو الأمن والرخاء والهناء والاستقرار وأنه سيصل الى الايمان الذى يبحث عنه اذا عمل • ونجيب يستمد هذه الفكرة من فلسفة التصوف الاسلامى • وقد كان صريحا فى الابانة عنها من خلال العمل الفنى • فكيف بفكرة تقوم على أساس من التصوف الاسلامى أن تصبح فجأة عند الأستاذ توفيق حنا نابتة من أسطورة مصرية قديمة •

لكم أتمنى أن يرحم النقاد نجيب محفوظ فلا يحملون أعماله غير ما تحتمل • يستطيع الناقد أن يقدم رأيه فى عمل فنى ينشئه هو ولكن من العسف الظالم أن يضع ما يريده هو داخل عمل فنى بعيد عنه كل البعد •

● طالعت بعد أن كتبت هذه الكلمة ما كتبه الاستاذ عامر البحيرى فى مجلة الثقافة ، وانى أخالفه كل المخالفة فيما ذهب اليه • فالمفروض ألا نصادر الآراء وانما نناقشها

سيد سعيد :

قصتك جميلة • الاسلوب فيها نابض بالحياة والعرض يدل على جراة وتمكن • لولا ضيق المجال فى شهرى يناير وفبراير لرأيتها منشورة بدلا من هذا الحديث عنها • ترقب نشرها فى شهر مارس •

مصطفى على أحمد عرفات :

يا سيدى يعز على عتبك أنت واخوانك ولكن لو عرفت العدد الضخم من القصص التى توافينى لرددت عنى هذا العتب ولمهدت لى العذر وأقسم لك اننى كنت أتمنى أن تكون لى ألف عين وألف عقل حتى أستطيع ان الاحق هذا السيل الذى يحمله الى البريد • ولكن ماذا أفعل وجهد الانسان محدود بما خلقه الله عليه •

أما عن قصتك أيها الأخ فانى أرى أنك تعجلت فى الكتابة فاسلوبك لم يستكمل استقامته بعد • والعبارات تخونك فى كثير من الاحيان والعرض غاية فى السذاجة والموضوع غاية فى القدم • أرى أيها الأخ أن تقرأ كثيرا قبل أن تبدأ الكتابة •

رجب سعد السيد :

قصتك الأسطى حافظ والماكينة قصة موفقة أحسنت اختيار الموضوع فيها وكدت أن تحسن العرض أيضا لولا أنك أنت الراوى تكلمت كثيرا • لو انك اكتفيت بتقديم الوقائع دون شرح منك أو تعليق لاكتمل جمال القصة •

كان الشرح منك زائدا لا تحتاجه وقائع القصة • لو انك قدمت الينا الأسطى حافظ وقد اشترى الماكينة ثم قدمته الينا وهو يعود لأدواته دون تعليق منك لأصبت غاية التوفيق •

لم أقرأ قصتك الثانية هذه المرة لأننى لا أقرأ لشخص واحد أكثر من قصة واحدة فى المرة لأتيح للرسائل الأخرى فرصتها • سأقرأ قصتك الأخرى قريبا وارجو أن أجدها صالحة للنشر •

تادرس كيرلس ميخائيل :

أنا ياسيدى لم افهم قصتك • أتراك تدعو الأزواج أن يشربوا الخمر حتى يستطيعوا أن يبقوا على حياتهم الزوجية لا أحسب أن رأيك هذا مقبول من وجهة النظر الطبية أو الخلقية •

وانت يا سيدى كثير الخطأ فى الهجاء فلماذا تتعجل الكتابة • ان مرحلة الهجاء هذه مرحلة أولية بالنسبة لمن يريد أن يقال عنه انه يعرف القراءة والكتابة ولكنك مع ذلك يا سيدى تريد أن تصبح كاتبا قصاصا • اعتقد أن هذا مستحيل اذا أنت لم تعرف كيف تكتب أولا الكلمات كتابة صحيحة •

لعلى قد قسوت عليك • وانى لأسمع الكثير يشكون منى هذه القسوة فى بعض الردود ولكنى أترك لهؤلاء الشاكين أن يقولوا هم رأيهم فيمن يريد أن ينشر أدبا له وهو بعد يخطىء فى الهجاء • اننى اعتذر عن القسوة ولكننى لا أعتذر عن حق أقوله •

غريب محمد غريب :

قصتك « صراع » تدل على أنك تملك ناصية اسلوبك فاللغة عندك نقية والتعبيرات جميلة والحوار العامى فيه حياة وصدق وفكرة القصة فى ذهنك متبلورة ولكنها تحتاج الى العمق • فالقصة التى قرأتها لك صورة وصفية ولكنها بلا أعماق • أنا واثق أنك تستطيع أن تكتب خيرا منها كل ما أرجوه منك الا

ترغم نفسك على الكتابة ارغاما. دع الفكرة تأتى اليك طائعة ثم تعمقها فانك اذا فعلت ستتصل الى الجذور منها وستكون قصتك بالعمق الذى تنشده ٠

***

واقدم فى هذا الشهر قصة للاستاذ أحمد محمود أحمد استطاع فى سطورها القليلة أن يجعلها مليئة بالمعانى وقد عرضها فى بساطة ودون أن يتدخل هو فى العرض وانما جعل الأحداث تقول ما يشاء قوله فى فنية وعمق ٠

« نرجس »

بقلم : أحمد محمود أحمد

احتواه الليل بهـدوئه الذى يلف الكائنات بغلالته الرقيقة ومشى وئيـدا متمهلا وهو يسبح فى آلامه ومشـاعره ولم يشعر الا وهو يصعد الدرج متوانيا يتحسس بقدمه التى اعتادت الصعود فى الظـلام كل ليلة ووقف أمام باب حجرته على السطح وفتح بابه ودخل ٠ كان جو الحجرة خانقا مقبضا يكتم الانفاس فقد كانت ليلة مايو القائظة ولم تفلح النسمات النادرة فى تلطيف جو الحجرة ٠ ووقف فى الظلام يلتمس علبة الثقـاب ليضىء المصباح الغازى ولكنه تذكر أن العلبة خالية فقد أشعل لفافته بآخـر عود فيها ٠ وانتـابه الضيق ٠ لو أنه تذكر ما اضـطر الى قطع الدرج مرة ثانية فى هذا الوقت المتأخر من الليل ٠ وفتح النافذة الوحيدة فى حجرته ورأى النور سـاطعا فى حجرة جارته نرجس هذه المرأة البضة التى تفيض أنوثة رغم زحف الشعرات البيض التى تطل من (عصبتها) ولعنها فى سره ، لو أنهـا لم تقطع (النور) من حجرته ما شعر بمثل هذا الضيق ولما اضطر الى النزول ثانية لشراء ثقاب ٠ وفكر حسين فى أن يذهب ويطرق بابهـا ويطلب منها أن تشعل مصباحه ولكنه تراجع خوفا من أن تسىء مقصده ٠ وكان الجو ما زال خانقا مقبضا والهواء يأبى أن ينشـط ويبعث بنسمة رقيقة تخفف من ضـيقه وتبرمه وألمه ٠

وتقدم نحو الدرج وتعثرت قدمه فى شىء أمامه لم يتبينه فأحدث ضجيجـا عاليا فلعن مرة ثانية الظلام ونرجس التى قطعت عنه (النور) ٠

واستدار لينزل ولكنه سمع صـوت نرجس يأتى من أمام باب غرفتهـا يستوضح الأمر بتساؤل ممطوط فيه قلق فرد حسين ليطمئنها ٠ وعرفت نرجس من صوته أنه جارها فاطمأنت واخبرته انها تسلمت رسالة باسمه ٠ وأقبلت نحوه وكانت فى غلالة من قماش رخيص يكشف عن الكثير من جسمها وناولته الرسالة بنظرة فيها حرمان وعطش ٠

كانت فى نحو الاربعين من عمرهـا بيضاء ملفوفة القوام بضة الجسم عليها مسحة من جمال ما زال آثاره على وجهها وكان يعلم أن زوجها قد مات منذ سنوات وانها لم تنجب ، وانها تعيش من ايجار البيت الذى يسكن حجرة فيه ٠٠ وأخذ الرسالة بسرعة وأخذ يبحث عن لفافة كانت باقية فى جيبه ولكنـه تذكر أنه قد أشعلها فى الطريق الى البيت ٠ وطلب فى لهفة من نرجس عود ثقـاب ليشعل مصباحه فعرضت عليه المرأة أن يدخل حجرتها ويقرأ رسالته فى الضوء ٠ ولم يفكر حسـين فى العرض وانما دخـل بخطوات فيها الكثير من التسرع وجلس

على مقعد وفض الرسالة وأخذ في القراءة ونرجس تنظر اليه نظرات فيها تساؤل وفيها دهشة فقد كان وجهه مرآة تعكس الكلمات التي يقرؤها • وطوى الرسالة وكأنه يطوى أحلامه • كانت الرسالة من والده ولكنه يخبره فيها أن (المبلغ) لن يصله في هذا الشهر لأن أمه قد اشتد عليها المرض وقد وصف لها الطبيب دواء أتى على (المبلغ) الذي يصله كل شهر • وفتح الخطاب مرة ثانية وقراه « ويعلم الله يا بنى انى لا أدرى ماذا أفعل وكيف أتصرف فوالدتك قد اشتدت عليها وطأة المرض والبيت خراب والمحصول ما زال في الأرض رغم ذلك فرحمة الله واسعة وأرجو أن يكون الفرج قريبا • أمك المريضة تبعث اليك بقلبها وان كانت لا تعلم أمر هذه المأساة » وطوى الرسالة مرة ثانية وتاهت نظراته لا تستقر على شيء وأخذ يفكر في مصيره؟ كيف يعيش طيلة هذا الشهر والامتحان على الأبواب ؟ وهل تصبر نرجس أم تلح في طلب الايجار كعادتها دائما وتمنى أن يبكى •

وأحست المرأة بما يعانيه وسألته هل من اخبار غير سارة ؟ ولم ينبس واكتفى بأن دفع اليها بالرسالة وغادر مقعده نحو حجرته الغارقة في الظلمة وخلع قميصه من شدة الحر وجلس كالمغشى عليه •

وجاءت نرجس والمصباح في يمينها ـ وكان الليل قد انتصف ـ ورأته على هذه الحالة اليائسة ونظرت اليه والى ذراعه العارية وعضلاته المفتولة وسال لعابها وأدركت بنفس خبيرة ان هذه فرصتها ولن تدعها تفلت من يديها • واتجهت نحوه وجلست بجانبه وأخذت تربت على ظهره ـ كأنها تهدهد طفلا ليستجيب لرغبتها ـ وأخذت تتحسس عضلاته وكأنها عن غير قصد ونظر اليها وأدرك ما ترمى اليه وبرغم كربه ويأسه أحس لهب النار في أناملها وقام وأطفأ المصباح •••

وعند الشروق عندما تتثاءب الشمس لتلقى بأشعتها على الكائنات وتغسل ظلمات الليل غادرت نرجس مكانها من غرفته بخطوات متلصصة وسمع من مكانه صوتا ينادى اسمه من أسفل الدرج وقفز متسائلا في لهفة وقطع الدرج في خطوتين وسلمه الرجل برقية وفضها باصابع مرتعشة وقلب واجف وقرأ « احضر حالا والدتك قد توفيت عند منتصف الليل » •